

محدث المنعم خفاجي

# فتاوى القرآن الكريم



النجاح

AL-NAJAH



مكتبة

BOOKSHOP

Al-Najaf al Asraf - Iraq - C.A. Kashmirey

للكتاب والقرآن - العراق - بصرى - الهند - كشمير

ASAFIYA  
Bibliotheca Alexandrina  
02589336

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

ا.د محمد العميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

محمد عبد المنعم خفاجي

# تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،  
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

( ٤ )

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

دار العهد الجديد للطباعة  
لايل مصباح - ٥ : ٥.٨٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ○  
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○  
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ  
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○

## تقدير

اللهم إنا نستعينك ، ونستهديك ، ونستغفرك ، وتوب إليك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، بك الحول والطول ، ومنك العون والهداية ؛ لك الحمد والثناء ، وإليك الدعاء والنداء ، وأنت على كل شيء قدير . . .

وبعد .. فهذا هو الجزء الرابع من هذا التفسير الجديد لكتاب الله ، الذي يخرج في ظلمات العصر المادي ، وبين سحب الضلالات الكثيفة المحيطة بالناس من كل جانب ؛ وخلال دعوات ينفخ فيها الشيطان ، ليصل دويها إلى كل أذن ، وليردد نداءها كل لسان ، وليؤمن بها كل عقل وقلب . . . وهي دعوات جاحدة مارقة ما أنزل الله بها من سلطان ، يدعو بعضها إلى الإباحية والوجوهية والمادية ، وينادى بعضها الآخر بالإلحاد في دين الله ، والتكفر بشرائع السماء ، والخروج على رسالات الأنبياء ، ويتماذى بعض هؤلاء الدعاة ، فينكرون وجود الله ، ويشككون في القيم الإنسانية العليا ، ويحاربون الإيمان بالدين وبالتوأميس الإلهية العظيمة ، ويفتخرون بما يدعون إليه ، في الوقت الذي صمت فيه لسان الحق ، وسكت فيه دعاة الخير والهدى ، وتام الحراس على تراثنا الروحي ، وعلى التعاليم السماوية الهادية المنقذة للبشر والحياة .

في وسط هذه التيارات المتدافعة المضطربة المتناقضة ، يخرج هذا التفسير صوت هداية للناس ، ولسان حق يدعو إلى ما يدعو الإسلام وكتابه الكريم .

وتفسير تعاليم السماء ، المنزلة على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب الحكيم ، وتقريب أصولها ، وشرح أهدافها ، وتوضيح مراميها ، وتقريب معانيها ؛ كل ذلك جهد مبذول ، أقدمه بين يدي هذا التفسير ، داعياً الله عز وجل أن يهدي به الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وما توفيقي إلا بالله .

# تمهيد

( ١ )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى  
آلِهِ أَجْمَعِينَ ، وَيَعِدُ ...

فهذا الجزء من تفسير كتاب الله الحكيم ، وهو الجزء الرابع ، صورة  
ناطقة ، ومثل حي ، على ضرورة نشر هذا التفسير وأهميته معاً . وعهد  
ما يأذن الله تعالى بالانتهاء من طبع أجزاء هذا التفسير ، التي تبلغ الثلاثين  
جزءاً ، سوف يدرك الناس جميعاً أن معجزة قد حدثت ، وأن عملاً جليلاً  
قد كان ، وخدمة صادقة مخلصة قد بذلت ، في سبيل نشر هداية القرآن الكريم  
في الآفاق ، وتقريب رسالته إلى الأسماع والقلوب ، وحمل دعوته إلى البشر  
جميعاً ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، وليقف الجاحدون موقف التأمل الواعي  
لدعوة الإسلام وكتابه الحكيم من جديد ..

( ٢ )

وكلنا منصفى بنا الخيال في البحث والدرس للكتاب الله ، كلما أوددنا بإيماننا  
بعظمة القرآن وجلاله وإعجازه ، وبأنه منزل من السماء بشيراً ونذيراً وداعياً  
إلى الله ، وبأنه الكتاب الذي لا تستقيم أمور البشر إلا بهدائه ، ولا تنتظم  
أحوال العالم إلا بحكمته ، ولا تستعيد الإنسانية رشدها وأمنها وسلامها إلا  
بتعاليمه ، وما أصدق ما قال رسول الإسلام محمد بن عبد الله : « إن هذا  
القرآن مادة الله ، فاقبلوا من مادته ما استطعتم . إن هذا القرآن جبل الله ،  
والنور المبين ، والشفاء الناجع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ  
فيستعيب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقض عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد .  
أتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنة » .

إن القرآن الكريم أعظم دليل على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يزال حتى اليوم سرا من الأسرار التي يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يؤمن بأنه منزل من عند الله . والقرآن الكريم آية في البلاغة ، ومع ذلك فهو في الوقت نفسه دستور رفيع للشريعة وللحياة جميعاً ، إنه الدستور الأساسي لأصول الإسلام ، وللأحكام الجنائية والمدنية فيه ، بل وللشرائع التي عليها مدار حياة النوع الإنساني وترتيب شئونه ، وهو القانون العام للعالم الإسلامي ، القانون الذي شمل في ثناياه شتى القوانين المدنية والتجارية والحرية والقضائية والجنائية والسياسية والاجتماعية .

( ٣ )

والقرآن الكريم قبل ذلك وبعد ذلك هو أساس القومية الإسلامية للمسلمين ، ومن ثم فإن أول واجب على كل مسلم أن يفهمه ويتدبر معانيه ، ويتأدب بآدابه ، ويتخلق بأخلاقه ، ولقد روى عن سعد بن هشام أنه قال : دخلت على عائشة رضی الله عنها ؛ فسألتها عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « أما تقرأ القرآن ، قلت : بلى ؛ قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم القرآن ، ، وعند ما يكتمل الوعي الجديد في نفوس المسلمين ، سوف يفرضون بأنفسهم تعاليم الإسلام على أنفسهم ، وعلى مجتمعاتهم التي يعيشون فيها ، وعلى كل شيء في حياتهم التي يحيونها ؛ وسوف تندثر دعوات الإباحية والوجودية والمادية من بين صفوفهم ، وسوف لا يجرؤ ضال أو جاحد أو مسنود بقوة الاستعمار وسلطانه : أن يرفع صوته داعياً إلى مادية أو إلحاد في الدين ، ولن يكون هناك إلا ضوت واحد يدوي في الآفاق : نحن عرب ، ونحن مسلمون ، ونحن حملة رسالة الإخاء والسلام إلى العالم جميعاً . . .



( ٤ )

ونحن إذ نكتب هذا التفسير ونشره ، فإنما نريد أن تصل دعوة القرآن  
الكريم ورسالته إلى آذان البشر جميعا ، وإلى قلب الشباب المسلم وعقله  
في كل مكان ، وإلى موطن العقيدة والإيمان عند كل مسلم يؤمن أن لا إله إلا  
الله ، وأن محمدا عبده ورسوله إلى الناس كافة . .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير آيات الجزء الرابع

من كتاب الله الكريم

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٣ — كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ  
عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ  
فَأَتْلَوْهَا إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ .

٩٤ — فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ  
هُمُ الظَّالِمُونَ .

٩٥ — قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِثْلَ مَا نَزَّلَ اللَّهُ وَمَا كَانَ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ .

ثلاث آيات كريمة بدأ بها الله عز وجل الجزء الرابع من القرآن الكريم،  
الذي يشمل على آيات كثيرة من سورة آل عمران، وعلى آيات أخرى من  
سورة النساء .

وقد سبق أن ذكرنا أن سورة آل عمران هي السورة الثالثة من سور  
القرآن الكريم وفق ترتيب المصحف الشريف، وأنها مدنية نزلت بعد الهجرة  
بالمدينة المنورة، وأنها سميت بآل عمران نسبة إلى عمران، وهو أبو مريم  
عليها السلام، ومريم أم المسيح عيسى صلوات الله عليه، وقد جاء ذكر عمران  
في السورة مرتين: في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ  
وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ»، وفي قوله: «وَإِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ  
لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا»، ولا يصح أن يكون عمران هذا هو أبو موسى وهرون؛  
لأن هذه السورة ليس فيها ذكر لموسى وهرون، وإنما جاء فيها ذكر مريم  
وابنها المسيح عيسى، وبين العمرانين كما سبق عشرات القرون والأجيال .

وقد قص الله جل جلاله فيها قصة مريم وابنها المسيح لغرابة أمرها ،  
وطرافة شأنها ، ودلالنها على قدرة الله الباهرة ، وعلى عظمتة النادرة ، وعلى  
معجزاته الفائقة الساحرة ..

وفي السورة ذكر لغزوة بدر ، وقد وقعت في السابع عشر من شهر رمضان  
من السنة الثانية للهجرة - ٦٢٤ ميلادية ، وقد تقدم من هذه السورة اثنان  
وتسعون آية ، فيها تقرير وحدانية الله ورسالاته إلى الأنبياء ، وكتبه المنزلة على  
محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ، وفيها تقرير لعظمتة وهيمتة ، وفيها ذكر  
لأصطفاء الله لبعض خلقه رسلا مبشرين ومنذرين ، وفيها كذلك تصوير  
جميل رائع لقصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وفيها حجاج  
للنصارى الذين عاندوا الإسلام ورسوله عليه السلام ، وفيها حجاج لأهل  
الكتاب عامة ، إلى غير ذلك مما تناولناه بإفاضة في الجزء الثالث من هذا التفسير .

وهذا الجزء - الرابع - قد بدأه الله عز وجل بالرد على اليهود فيما زعموه  
وافتروه على الله ، إذ قالوا لرسول الله صلوات الله عليه : إنك تزعم أنك على  
ملة إبراهيم ، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل والبانها وأنت تأكلها ، فليست  
على ملته ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم . كان ذلك حلالا لإبراهيم ، فقالوا  
له صلوات الله عليه : كل ما نحرمه اليوم كان حراما على نوح وإبراهيم حتى  
انتهى إلينا ، فنزلت هذه الآيات : « كل الطعام ، إلخ ، يريد الله عز وجل :  
كل المطعومات ، أو كل أنواع الطعام كان حلالا ، أى حلالا أكله لبني إسرائيل ،  
أى أولاد يعقوب عليه السلام ، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن  
ينزل التوراة ، أى ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل والبانها على  
إبراهيم ، بل كان الكل حلالا له ولبني إسرائيل ، وإنما حرمها إسرائيل على  
نفسه قبل نزول التوراة ، فليس في التوراة حرمتها .

واختلفوا في الطعام الذى حرمه إسرائيل على نفسه ، وفي سببه ، فقال  
مقاتل والكلبي : كان ذلك الطعام هو لحم الإبل والبانها ، وسبب ذلك أنه مرض

مرضا شديدا ، وطال نقمه ، فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه ، وكان ذلك أحب طعام إليه فخرمه ، وقال ابن عباس والضحاك : هي العروق ، وسبب ذلك أنه اشتكى عرق النساء (١) ، وكان قد نذر إن وهبه الله اثني عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم ، فلتقاه ملك من الملائكة فقال يا يعقوب : إنك رجل قوى ، فهل لك في الصراع ؟ فصارعه فلم يصرع واحد منهما صاحبه ، فغزوه الملك غمزة فعرض له عرق النساء ثم قال : أما إنى لو شئت أن أصر عك لفعلت ، ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أنيت بيت المقدس صحيحا ذبحت ولدك ، فجعل الله لك بهذه الغمزة عن ذلك مخرجا ، فكان لا ينام بالليل من الألم ؛ فخلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى أن لا يأكل عرقا ولا طعاما فيه عرق ، فخرمه على نفسه ، وكان بنوه بعد ذلك مثله ، قال ابن عباس ولما أصاب يعقوب عرق النساء ، وصف له الأطباء أن يحتب لحوم الإبل وألبانها فخرمها يعقوب على نفسه ، ثم اختلفوا في حال هذا الطعام المحرم على بنى إسرائيل بعد نزول التوراة ، فقال السدي : حرم الله عليهم في التوراة ما كانوا يحرمونه قبل نزولها ، وقال الضحاك : لم يكن شيء من ذلك حراما عليهم ، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعا لأبيهم ، ثم أضافوا تحريمه إلى الله عز وجل ، وكذبهم الله تعالى فقال تعالى « قل ، أي لهم يا محمد ، فأتوا بالتوراة فأنلوها ، ليتبين لكم مدى صدق قواكم » إن كنتم صادقين ، فيه ، فبهتوا ولم يأتوا بها . وفي إخباره صلى الله عليه وسلم عما في التوراة دليل على نبوته قال تعالى « فمن افتري ، أي ابتدع » على الله الكذب من بعد ذلك ، أي ظهور الحججة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب لاعلى عهد إبراهيم « فأولئك هم الظالمون ، أي المتجاوزون الحق إلى الباطل وقوله تعالى « قل ، أي لهم ، صدق الله ، تعريض بكذبهم ، أي ثبت أن الله صادق في جميع ما أخبر به وأنتم الكاذبون » فاتبعوا ملة إبراهيم ، أي ملة الإسلام التي أنا عليها حتى تخلصوا

(١) يفتح النون وألف مقصورة في آخره : عرق يخرج من الورك ، فيستبطن الخند .

من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم ، حيث اضطر تنكم إلى تحريف كتاب الله لتحتجوا بالكلام المحرف على باطلكم ، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله تعالى « حنيفا ، أى ما تلا عن كل دين إلى دين الإسلام ، وقوله تعالى « وما كان من المشركين ، فيه إشارة إلى أن اتباع إبراهيم واجب في التوحيد وخاصة في أمر التوحيد الخالص ، وفي الاستقامة في الدين ، وفي تجنب الإفراط ، وهو تحريف التوراة وعدم العمل بما فيها . . وفي هذا إشارة وتعريض بشرك اليهود وبعديهم عن الدين الحق ، وعن شريعة موسى الصادقة . وفي هذه الآيات الثلاث تفيه إلى كذب اليهود وافتراءاتهم على الله ، وإلى أن المفترين للكذب على الله من بعد ما جاءهم الكتاب وبجاتهم البيعة والهدى والإرشاد من الله لا بد أن يكونوا ظالمين معنيين في الظلم ، ظاهرين فيه ، وأن يكون الظلم من شأنهم ، ومن دينهم . . وينبه الله عز وجل في رفق وأدب جم إلى صدق رسالته على محمد وصدق ما جاء به القرآن ، وإلى وجوب الإيمان بملة إبراهيم التي تمثلت في الإسلام ديننا قويا ، وإبراهيم عليه السلام إنما كان حنيفا قويا ، ولم يكن من المشركين ، ولا كان يهوديا ولا نصرانيا . .

٩٦ - **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى  
لِّلْعَالَمِينَ .**

٩٧ - **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا جَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا  
وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ  
كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .**

في هاتين الآيتين رد على ما زعمه اليهود من مزاعم باطلة حين حاولت قنلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة ، والكعبة لإبراهيم بها ضللة لا تنسى ، والإسلام هو الامتداد الكبير لشريعة إبراهيم عليه السلام ، ومحمد أولى الناس بإبراهيم وشريعته ، فكان اتخاذ الكعبة قبله عامة للمسلمين أمرا معقولا في غاية

الوضوح، فهذه هي الكعبة التي رفع بناءها إبراهيم وإسماعيل، وكان محبه صلوات الله وسلامه عليه، دعوة أبيه إبراهيم، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه.

ويروى في سبب نزول هاتين الآيتين أن اليهود قالت للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء، وقال المشركون: بل الكعبة أفضل، فنزل قوله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس» أي جعله الله متعبدا لهم، وقد بناه إبراهيم، وقيل: إن آدم كان قد بناه ثم دمره الطوفان.

قال البيضاوي: وهذا القول لا يلائم ظاهر الآية، وقيل: أول من بناه إبراهيم ثم هدم، فبناه قوم من جرهم، ثم العماليق، ثم قريش والذي، أي للبيت الذي ديكه، لغة في مكة، سميت بذلك لأنها تبتك أعناق الجبابرة التي تدقها، فلم يرد لها جبار بسوء إلا وقصمه الله، وسميت مكة بالميم لقلعة مائها، وتدعى (المرحم) لأن الرحمة تنزل بها، وقوله تعالى «مباركا، أي ذا بركة لأنه كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف عنده أو طاف حوله، من الثواب وتكفير الذنوب، وهدى للعالمين، لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ولأن فيه آيات عظيمة كما قال تعالى: «فيه آيات بينات، إذ قد صار إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار، وأن الصلاة فيه تضاعف، وأن كل جبار قصده بسوء قهره الله تعالى كصحاب الفيل، وقوله تعالى «مقام إبراهيم»، أي منها مقام إبراهيم، وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين بناء البيت، وقد حفظه الله مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة أوف سنين، وهذا معجزة عظيمة.

وقوله تعالى «ومن دخله كان آمنا، عطف من حيث المعنى على مقام، لأنه في معنى آمن من دخله، أي ومنها آمن من دخله، وذلك بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام «رب اجعل هذا البلد آمنا»، وفي الاختصار على ذكر هاتين الآيتين وطى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات ينال مقام إبراهيم وآمن من دخله وكثير سواهما، وروى عن الرسول عليه الصلاة

والسلام أنه قال : من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً . وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى : من لزمه القتل برودة أو قصاص أو غيرهما لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يباع حتى يضطر إلى الخروج فيقتل ، وكان عمر يقول : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه ، وعند الشافعي رحمه الله تعالى لا يلجأ إلى الخروج بل يقتل للأمر في خبر الشيخين بقتل ابن خطل ، وكان قد ارتد وتعلق بأستار الكعبة ، وأما قوله « ومن دخله كان آمناً ، وخبر « من دخل المسجد فهو آمن ، فعناه جمعاً بين الأدلة : أن من دخله بغير جريرة ، وأما إذا ارتكب الجريمة فيستوفى منه بالاتفاق .

« والله على الناس حج البيت ، أي قصده للزيارة على وجه مخصوص ، وهو أحد الأركان في الإسلام ، قال صلى الله عليه وسلم : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان » من استطاع إليه ، أي الحج والبيت « سبيلاً ، أي طريقاً بدل من الناس مخصص له ، وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة ، رواه الحاكم وغيره « ومن كفر ، أي بما فرض الله من الحج أو كفر بالله « فإن الله غنى عن العالمين ، أي الإنس والجن والملائكة ، وعن عبادتهم ، وقيل : وضع (كفر) موضع (لم يحج) تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من ملك زاداً وراحلةً تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً رواه الترمذي ، وفي هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد على طلب الحج : منها قوله تعالى « والله على الناس حج البيت ، أي أنه حق واجب لله في رقاب الناس ، لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهده ، ومنها أنه ذكر الناس ثم إنه أبدل عنه « من استطاع إليه سبيلاً ، وفيه ضربان من التوكيد : أحدهما أن الإبدال ثنية للبراد وتكرير له ، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ؛ ومنها ذكر الاستغناء ، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان لمن لم يحج ؛



ومنها قوله « عن العالمين ، ولم يقل « عنه » ، وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه  
يرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لامحالة ، ولأنه يدل على  
الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه . وعن  
سعيد بن المسيب : نزلت فى اليهود ، فإنهم قالوا : الحج إلى مكة غير واجب ؛  
وروى أنه لما نزل قوله تعالى « والله على الناس حج البيت ، جمع رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال : إن الله كتب عليكم الحج  
فحجوا ؛ فأمنت به ملة واحدة وهم المسلمون ، وكفر به خمس ملل وهم المشركون  
واليهود والنصارى والصابئون والمجوس قالوا : لا تؤمن به ولا نصلى إليه ولا  
نحججه فنزل « ومن كفر » ، وعنه صلى الله عليه وسلم : حجوا قبل أن لا تحجوا  
فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع فى الثالثة ، وروى : « حجوا قبل أن لا تحجوا » .

٩٨ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ  
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ .

٩٩ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ  
تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

بعد أن رد الله تعالى على اليهود وأخفهم ، عاد فخطبهم خطاب توبيخ  
وزجر وسخط منها إلى سورة صنيعهم واعتقادهم .

« قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، أى الدالة على صدق محمد  
صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من رسالته ومن وجوب الحج وغيره ، وتخصيص  
أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح وإن زعموا أنهم مؤمنون  
بالتوراة والإنجيل ، فهم كافرون بهما ، والله شهيد ، أى والحال أن الله شهيد  
« على ما تعملون ، فيجازيكم عليه » « قل يا أهل الكتاب لم تصدون « أى تصرفون  
« عن سبيل الله ، أى دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الإسلام « من آمن ،  
بتكذيبكم النبي صلى الله عليه وسلم وكنتم نعتة ، وكانوا يفتنون المؤمنين ويتحالفون

يصدّم عن دين الله ، ويمنعون من أراد الدخول فيه جهدهم ، وقيل : أنت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ، ليعودوا لمثله ، وإنما كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التوبيخ ونفي العذوة ، وإشعاراً بأن كل واحد من الأُمّيين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب ، وقوله تعالى « تبغونها ، أي للسبيل ، عوجاً ، حال أي باغين طالبين لها عوجاً وميلاً عن القصد والاستقامة ، بأن تلبسوا على الناس وتوهّموا أن في دين الإسلام عوجاً عن الحق ، بمنع النسخ وبتغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحوهما . هذا ويقول بعض اللغويين : العوج بالكسر : في الدين والقول والعمل ، وبالفتح : في الجدار وكل شيء قائم ، وأنتم شهداء ، أي عالمون بأن الدين المرضي هو دين الإسلام كما في كتابكم ، وما الله بغافل عما تعملون ، من الكفر والتكذيب ، وإنما يؤخركم لوقتكم فيجازيكم .

فإن قيل : لم ختمت الآية الأولى بقوله تعالى « والله شهيد على ما تعملون ، وهذه الآية بقوله « وما الله بغافل عما تعملون ، فالجواب أنه لما كان التكبير في الآية الأولى على كفرهم وهم يجهلون به ختمها بقوله « والله شهيد على ما تعملون ، ولما كان في هذه الآية على صدق المؤمنين عن الإسلام ، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال تعالى « وما الله بغافل عما تعملون ، ليناسب المقام .

١٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ يُوَدِّعُكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ .

١٠١ - وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ  
وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ  
مُّسْتَقِيمٍ .

١٠٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ  
مُسْلِمُونَ .

١٤٣ - وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

يروى في سبب نزول هذه الآيات أنه دمر شاس بن قيس اليهودى - وكلفه شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مسجد لهم يتحدثون ، فغاضبه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة. وقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكروهم يوم بعث - وهو موضع بالمدينة ، وينشد بعض ما قبل فيه من الأشعار ، وكان يوم ما اقتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس ففعل ، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح ؛ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معانن المهاجرين والأنصار فقال : أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، أى شاس وأصحابه » يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، قال جابر : ما رأيت يوما قط أقبح أولا وأحسن آخر من ذلك اليوم ؛ ثم قال الله تعالى على وجه التعجب والتوبيخ « وكيف تكفرون ، أى ولم تكفرون ؟ » وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : من أين يتطرق لكم الكفر والحال أن آيات الله وهى القرآن المعجز يتلى على لسلك

لنبي صلى الله عليه وسلم ، وبين أظهركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » ومن  
يعتصم بالله ، أى ومن يمسك بدينه أو يلتجئ إليه فى مجامع أمورهِ فقد  
هدى ، أى فقد حصل له الهدى للاحالة ، كما تقول : إذا جئت فلانا فقد  
أفلحت ، كان الهدى قد حصل . فهو يخبر عنه حاصلًا ، ومعنى التوقع فى ( قد )  
ظاهر ؛ لأن المعتصم بالله متوقع للهدى ، كما أن قاصد الكريمة متوقع للفلاح  
عنده « إلى صراط ، أى طريق مستقيم ، أى واضح « يأبى الذين آمنوا اتقوا  
الله حق تقائه ، أى واجب تقواه وما يخف منها وهو القيام بالواجب واجتناب  
المحرم ؛ وقال ابن مسعود بأن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر  
فلا ينسى ، ولما نزلت هذه الآية قال الصحابة رضى الله تعالى عنهم يا رسول الله :  
من يقوى على هذا ؟ ففسخ بقوله « فاتقوا الله ما استطعتم ، وقال مقاتل : ليس  
فى آل عمران منسوخ إلا هذا « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أى موحدون ،  
والمعنى : ولا تكونن على حالة سوى الإسلام إذا أدرككم الموت ، فالنهي  
هنا يتوجه إلى القيد وحده .

« واعتصموا بحبل الله ، أى بدينه وهو دين الإسلام ، استعار له الحبل من حيث  
أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من الردى ، أو بكتابه وهو القرآن لقول الرسول :  
القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخاق على كثرة الرد ، من قال به صدق ،  
ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم ، وقوله تعالى « جميعاً ،  
أى مجتمعين عليه ، ولا تفرقوا ، أى ولا تفرقوا بعد الإسلام بوقوع الاختلاف  
بينكم كأهل الكتاب ، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين يعادى  
بعضكم بعضاً ويحاربه « واذكروا نعمة الله ، أى إنعامه عليكم التى من جملتها  
الهداية والتوفيق للإسلام المؤدى إلى التآلف « إذ كنتم أعداء ، فى الجاهلية  
بينكم الإحن والعداوات والبغضاء والحروب المتواصلة « فآلف بين قلوبكم ،  
بالإسلام وقذف فيها المحبة « فأصبحتم بنعمته إخواناً ، متراحمين متناصرين مجتهدين  
على أمر واحد وهو الأخوة فى الله ؛ وقيل : هم الأوس والخزرج : كنا أخوين

لاب وأم ، فوقعت بينهما العداوة بسبب قتيل ، وتناولت الحروب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام ، وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم «وكنتم على شفا» أى طرف «حفرة من النار» أى حفرة ، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا كفارا ، فأنقذكم منها ، بالإسلام ، والضيق للحفرة أو النار أو الشفا ، وأنه لتأنيك ما أضيف إليه ، كذلك ، أى مثل ذلك البيان «يبين الله لكم آياته ، أى دلائله وحكمه وعظاته ، لعلمكم تهتدون ، أى لكي تزدادوا هدى وفلاحا ورشادا .

في الآيات السابقة حث على الألفة ونهى عن الفرقة ، وفيها بيان لفضل الله على قبائل العرب ، إذ جمع الإسلام بينهم ، وألف بين قلوبهم ، ووحده كلمتهم ، وأزال الإحن من صدورهم ، وجعلهم بنعمة الله إخوانا متحابين ، وأصدقاء متآلفين . . وما أجل فضل الإسلام على المسلمين في القديم والحديث ، وما أعظمه رابطة تجمع بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها : على الخير والهدى ، وعلى الحب والصفاء ، وعلى التعاون والتآخي والتآلف .

والدين بصفة عامة فطرة في الإنسان ، تبعثه على التشبث بعقيدة يعتصم بها فؤاده في المحن والشدائد والخطوب .

ولقد حار الإنسان فيمن يلوذ به في الأعاصير ، حتى أيقن بأنه لا يصح أن يلاذبه إلا الله تعالى خالق الكون والحياة والناس أجمعين ، واهتدى بفطرته بعد حيرته إلى سبيل الخلاص بالإخبات لقاطر السموات والأرضين . ولكن كيف يعبد الإنسان الله ، وكيف يصلى له ، في أثناء هذه الحيرة الإنسانية كان الله يرسل للناس رسله تترى ، فيعلبون الناس تعاليم السماء ؛ ولكن كانت تعاليمهم لا تلبث إلا قليلا ، لغلبة اندفاع الإنسان وراء خيالاته عليها ، وعدم استعداده للوقوف عند حدود إحساساته الفطرية . وإن شئت فقل يغلب إنسانيته التي كانت تطالبه بأن تلمسه بيدها وتنظره بعينها . استمر الإنسان في هذا التدافع الديني ألونا من السنين كان في أثنائها لا يشغل له إلا الدين .

وبيننا الناس في هذه الخطة من التدافع والتجالد ، وإذا بصاخته عظمى دوت لها أوجاء الكرة الأرضية ، فشخص الناس إليها من كل مكان ، وإذا بها أمة صغيرة ، لا عهد لها بكتاب سماوي ، ولا دين نظلي ، ولا حكومة متسقة ، ولا رابطة عامة ، قامت تحمل للشعوب على يدها تزيان الهدوء والسكينة ، ولا كسير الراحة والطمأنينة . ترد المتخالفين إلى أصل مشترك بينهم ، وترفع عن القلوب تلك الحجب التي أسدتها رؤسائهم . فدعت هذه الأمة إلى الحقيقة بكل وسيلة ، وصاحت الأمم أن هلموا عباد الله إلى النور الذي لن يضل صاحبه ولن ينجو متجنبه ، تلبية على رؤوس الأشهاد : يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فلما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطا مستقيما ، فأصغى إليها من سمعت له السعادة ، ولوى عنها من غلبت عليه الشقاوة ، واستنام للرؤساء طامحا حتى أدت المظلوم منها ، وأقامت علما يهتدى إليهم من أراد أن يستقيم على عمادى القرون .

إن الدين : هو التعليم الإلهي ، والإرشاد الشماوي ، ينزل رحمة من الله بعباده ، فيرشدهم بعد الغواية ، ويبددهم من الضلالة ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويرددهم عما يضرهم ، ويوجههم إلى ما فيه نفعهم . والدين : هو القوة التي أمد الله بها الناس ، فعدلت من مزاجهم ، وكبحت من طغيانهم ، وردت غوائل بعضهم عن بعض .. جعلت للقوى حدودا لا ينبغي أن يتجاوزها ، وحفرت النفوس الواهنة الضعيفة إلى أن تستخدم قواها التي بثت فيها ، ونهبت الفكر الخامل إلى اجتناء الثمار التي مكنته الخالق منها ، والتي سخرها له وبصلحته . فالدين ينهض الفكر ، وينظم الإرادة ، ويصد العدوان ، ويقف الطغيان ، فهو الرحمة العظمى لبني الإنسان .

ولما كان الدين تعليما وإرشادا ، وتربية وتهديا ، وكان الإنسان في مجموعه كالإنسان في مفرده : قد نشأ على الفطرة الأولى ، حتى تداولته التجارب ، واكتنفته التصاريف ، واختلفت عليه الأحوال ، وكل حال منها يغرس في نفسه حكما ينتفع به ، ويعلمه أمرا كان خفيا عنه ، كالطفل يولد لا يعلم شيئا ،

فلا يزال عرضة للحوادث ، وعمرا للطوارئ المختلفة ، حتى يستكمل رشده ،  
ويصلح أشده ، وهو في كل طور مستعد لدرجة من التعليم والتهذيب والتربية .  
كذلك كان الإنسان في مجموعته له أطوار بحسب ما استعداد له من المراتب في  
القبول والسيال ، فيليق به في كل حال ما يليق به في غيرها . فاختصت حكمة  
العلم الحكيم أن يمد النوع الإنساني بضروب من التربية والتعليم قد استعد لها  
ووصلت له ، حتى يتم نضجه ، ويكمل استعداده ، فيعطيه التعليم النهائي الكامل  
والقانون المنظم العادل ، الذي يصلح لكل أمة في كل زمان ومكان ، في كل  
مظهر من مظاهر الحياة ، من بدائة وحضارة : ذلك هو الدين الإسلامي .  
ولقد تجلت هذه الرحمة الإلهية في الدين الإسلامي بثلاثة مظاهر :  
بوضوح تعاليمه ، ومثاقه براهينه ، وإنتاج فوائده وثماره .

أما وضوح تعاليمه ، فتراه في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات . فهو  
في باب العقائد لم يكلف الإنسان عناء ، ولم يرهقه اعتقاد ما لا يسوغه عقله .  
فما طلب منه أكثر مما دل عليه العقل السليم ، والنظر الصحيح في الدليل القويم ،  
ففي العقائد الإلهية كلفه أن يعتقد أن لهذا العالم موجودا ، عالما ، حكما ، كامل  
القدرة والإرادة ، منزها عن سمات النقص ، لا يشاركه في الملك والتقدير  
والصرف شيء ، ولا يشبهه شيء ، ولا يعزب عن علمه شيء ، ولا يخرج عن  
قدرته وتصرفه شيء ، وأنه المنفرد بالسيال ، المتوحد بالجلال . ولم يقسر  
النفوس على هذا الاعتقاد الصحيح ، بل وجهها إلى النظر في أنفسها وما يحيط  
بها ، وبسط لها كيف تستفيد من ذلك النظر حتى تعلم العلم اليقيني من نفسها أن  
ما دعاها إلى اعتقاده قد أقام لها الدليل عليه ، وهداها إلى الاستيقان به والتثبيت  
منه . ولو أنها نظرت هذا النظر الصحيح منفردة ، لاهتدت إليه من تلقاء  
نفسها ، وكلما ازدادت نظرا واعتبارا ، ازدادت نورا واستبصارا . ووجهها  
إلى النظر في ملكوت السموات والأرض . ووجهها إلى التفكير في نفسها  
وخلقها . وعليها كيف تفكر في النبات والحيوان والرياح والسحاب ،  
وما ينشأ عن ذلك وما فيه من النظام ، حتى استخراج من قرارة النفوس العلم

اليقيني واعتقادها الجازم أن هذه المظاهر الكونية التي ربط بعضها ببعض ، وأخذ كل منها في النظام الكوني العام محلا ليس له أن يتجاوزه . فربطه الأجزاء على تباعدها ، واتصلت مع اقترانها ، واتحدت في تكوين نظام كامل على عظيم تباينها . كل أولئك لا يمكن في نظر العقل أن يصدر إلا عن إرادة واحدة ، وتقدير محكم ، وعلم شامل ، ويدل جزما على أن المتصرف فيها يجب أن يكون واسع السلطان ، نافذ الحكم ، مبسوط القدرة ، سالما من المعارضة والمضادة ، والمشاركة ، والتظير: « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، فلو كان هناك قوة تضاهي قوته وتنفذ يعارض نفوذه لاصطدمت الإرادات ، وفسدت الأرض والسماوات : » إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، وما وراء ذلك من صفات السكالات التي وصف بها نفسه تجدها فرعا عن هذه الصفات ، تعلم بعلمها ، وثبتت بثبوتها ، أو هي من السكالات التي لا يأتي العقل أن يتصل بالجلال الإلهي . فأرشد المؤمنين إليه على لسان أنبيائه ورسله .

هذا في الاعتقاد في الإلهيات . وأما الاعتقاد في أمر النبوات ، فهو من السهولة في الفهم والقرب إلى الذهن ، بحيث لا يتعثر امرؤ في اعتقاد أنه من الممكنات السائغات ، كما قال جل وعلا : « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، صدق الله العظيم ، ما في هذا من عجب ، ولا يعلو تناوله على النظر ، وقد ألف الناس في كل زمان أن يكون منهم لهم مرشدون ، بتفاوت العقل ورجحان الرأي ، فلم لا يكون لهم منهم نذير وبشير ، بمدد الله به من اصطفاه من عباده ، ومزية يختصه بها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، نعم ، منصب النبوة منصب خطير ، ومقام كبير ، يتمنى كل واحد أن يكون له منه نصيب . فلا يعد أن يدعيه من ليس أهلا له . فاقترضت الحكمة العظمى أن يتميز الرسول عن غيره بمظهر من مظاهر القدرة الإلهية ، لا يدانيه فيه غيره ، ولا يساويه أحد من الخلائق أجمعين ، فيظهر على يده من المعجزات ما يشهد



بصدقه ، ولا يكون مستندا إلى أسباب عادية وقوانين كونية يستطيعها كل من  
باشر أسبابها ، بل هي بمحض القدرة الإلهية والتصرف الرباني ، فتدل على صدق  
من أيده الله بها . ثم يحف الله هذا الفريق الذي اصطفاه لأن تكون الهداية  
على يديه بلطف منه ، فيعصمه من الكذب والخيانة ، ومخالفة ما جاء به عن  
ربه ، ويجعل له في النفوس من المهابة والاحترام ما لا يكون معه لنفس عذري  
الاستنكاف من اتبائه . فهم عباد من عباد الله : أكرمهم برسالته ، وأيدهم بآياته ،  
وعصمهم من مخالفة أمره ، وجعلهم القدوة الحسنة والمثل الصالح ، حتى قامت  
بهم الحججة ، واستنار بهم طريق الهدى . يجب لهم أن يكونوا صادقين ،  
أمناء ، معصومين ، سالمين من المنقرات ، مؤيدين بالمعجزات والآيات  
البيانات هذا المعنى لا عسر فيه ولا عنت ، ولا إشكال في فهمه ولا صعوبة .

وفي القرآن يقول الله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر  
الناس عليها لا تبدل الخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »  
وهذا نص صريح على أن الدين الحق هو الوقوف عند حد ما فطر عليه الإنسان  
في صميم طبيعته وأن كثرة اللجاج وإعطاء الخيالات حق التلاعب في أصول  
العقائد ليس من الدين النقي في شيء ، بل من شطحات الظنون ونزعات الأهواء  
التي لم ينزل الله بها من سلطان ، قال الله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى  
الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » علم الله أن النفوس تتوق إلى ما سترته  
عنها يد العيوب ، وتتشوف إلى كشف الغطاء عن كل محجوب ، وأن ذلك الميل  
قد يطرحها إلى محارلة البحث في كنه ذاته ، وهو البحث الذي قصم روابط الملل  
بعد استحكامها ، ونكث قتل الوحدة من بينها ، فسد على متبعي شريعته الفطرية  
هذا ينبوع من الشر سدا محكما فقال « ليس كمنه شيء » . « لا تدركه الأبصار  
وهو يدرك الأبصار » فكان هذا أكبر زادع لشهوات العقول عن التناول  
إلى مقامه الرفيع ، بما لديها من وسائل واهية ومعلومات نسبية ضئيلة . وعلوم  
الإنسان على اختلاف أنواعها وقواه العقلية على كبر سلطانها ليست إلا نتائج  
تدافع القوة الإدراكية مع هذا العالم الأراضى المتلاشى . وإذا كان الأمر كذلك

أليس من الجنون المحض محاولة الوصول بهذا العلم المحدود وذلك العقل القاصر إلى تحديد صفات سر الأسرار الكونية التي لا نهاية لها ، وإدراك كنه ذاته العملية التي لا حد لها ؟ أى عاقل يتلج صدره على ما وصل إليه عقله من صفات الله تعالى ، وهو يرى بعينه أن علم اللاهوت عند سائر الأمم متبع خطوة التدرج في الترقى على حسب ارتقاء العقل البشرى . قال «فلامريون» في كتابه المسسمى : «الله في الطبيعة» : «إن فكرة أسلافنا في الله كانت في كل زمان مناسبة لدرجات العلم التي حصلها النوع الإنساني على التعاقب» - «إذا كان الأمر كذلك وثبت أن كل وصف يستطيع العقل أن يصف الله به أحط من مقامه القدسي بمراعاة ، بل حين اللؤكده أنه لا يلبث إلا قليلا ثم يصير لدى العقلي المستقبل في أخير درجات الخشيرة بالنسبة لما يكون قد وصل إليه عليه من عظم قدر الله تعالى ، فكيف لا يعوبى الإنسان بعد ذلك كله ويعتقد أن كمال الله فوق كل كمال ، وأن التهجم على فتق الحجب التي تمنحنا عن ذاته بمساير هذا العقل الاعتلاى القاصر جريمة لا تغفر ، وأن الواجب على كل ذى فطرة سليمة أن يكتفى منه بما فى وجدانه من الإحساس بوجوده مقراً بالعجز عن تناوله علم ذاته ؟ هذا هو التنزيه فى الإسلام ، الذى أبى إليه أصحاب الديانة الفطرية الطبيعية ، بعدما أرتهم علومهم التجريبية أن ادعاء الإحاطة بسر هذه المادة المحسوسة جهل فاضح ، فما بالك بسر الأسرار ومشرق الأرواح والأنوار . قال الفيلسوف «فلامريون» مندهشاً من عظمة الله تعالى ، ومستهجنا عقل من يتجارأ على تحديده «اللهم ما أكبرك : من ذا الذى تجاسر وسماك لأول مرة ، ومن ذلك المتكبر الجنون الذى حاول لأول مرة أن يعرفك بتعريف : يا الله ؛ يا الله ؛ يا قوة غير متناهية ؛ يا رحمة غير محدودة ؛ يا لا نهاية سامية ؛ يا من لا تدرك ذاته العقول ، أليس هذا التنزيه الذى يفخر به علماء العصر الحاضر ، ويعدونه علامة لرقى العقل الإنساني ، وخطوة جديدة للفلسفة الدينية ، أليس هو إلا ترديداً لقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . «العجز عن درك الإدراك إدراك» ، وقول على كرم الله وجهه : هو القادر الذى إذا أرتمت الأوهام

لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناوله علم ذاته، ردعها وهي تجوب في مهاوى سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جبهت معترفة أنه لا ينال بالاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته .

هذه هي عقيدة المسلمين في تنزيه خالقهم عن مشاكلة المخلوقين، وقد رأيت أنها النقطة التي آب إليها النوع الإنساني بعد ما طاف على كل دور خيالي، وارتطم بكل عقبة في سبيل العودة إليها .

هذا شأن الإسلام من حيث طهارة العقيدة وملاءمتها لما بعده أساطين فلسفة العصر دينا فطريا طبيعيا لملاءمة لحاجات النفوس وانطباقه على نوااميس الخليقة . أما آثار هذا الدين على فهم معتقديه من حيث الترقبات المادية، فما لم يرو لنا تاريخ الأديان مثلها لأي دين من الأديان، جاء هذا الدين إلى تلك الأمة الصغيرة وهي من معاداة المدنية بمكان، ظنت معه أن حالة البداوة هي أرقى أحوال الإنسانية، وغالت في ذلك، فعدت مكنى القصور والاعتصام بالحصون من بعض مسبات الفرس والروم، فلم يرض عليها غير بضع وعشرين سنة حتى دبت فيها روح جديدة، وسرت في عروقها حياة غير التي كانت لديها من قبل، ولم يدر عليها قرن بعد تلك الحركة حتى استولت على صولجان العظمة والسلطة، ووطئت بلاداً لم تكن تعرف اسمها وارتقت في الوجود مكاناً أقر به جميع فلاسفة الغرب، قال العلامة (دروى) أحد وزراء المعارف السابقين في فرنسا في تاريخه : « بيننا أهل أوروبا تائمون في دجى الجهالة، لا يرون الضوء إلا من سم الخياط؛ إذ سطع نور قوى من جانب الأمة الإسلامية: من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك، حيث كانت مدائن بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف، ومنها انتشرت في الأمم، واغتم منها أهل أوروبا في القرون

المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنوننا عالية لا حصر لها . وقال في سبقهم في كاتة المحارلات الإنسانية : « وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها بسائر الأوقات ، ثم لما امتدت سلطنتها من البريانية - وهي جبال بين فرنسا وأسبانيا إلى جبال هماليا التي بأقصى شمال الهند - صاروا أكبر تجار الأرض . وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها ، إذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة ، فسيرتهم في ذلك - العامل بها إلى الآن أهل روضة أسبانيا - صالحة أن نجعلها أسوة تقتدى بها في فلاحتنا الفرنسية . وأما الصناعات فإن العرب تعلموا جميعاً لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة ، حتى صاروا من أحذق أربابها . وقال في سعة سلطانهم : « قد امتد ملكهم في ظرف مائة سنة من ظهور الإسلام مثل ما يمتد عظيم الحلقة فاتحاً ذراعيه لا لتقاط شيء ، فبلغ من أقصى الهند إلى جبال (بيرانية) السكائنة بين فرنسا وأسبانيا ، وقد امتداد هذا الملك من ألف وسبعمائة إلى ألف وثمانمائة فرسخ ، ولم تبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية . وقال «سديو» في تاريخه : « بعد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً واحداً ، ظهرت للعيان أمة كبيرة ، مدت جناح ملكها من نهر تاج في أسبانيا إلى نهر الجانج في الهند ، ورفعت على منار الإشادة أعلام التمدن في أقطار الأرض ، أيام كانت أوروبا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة ، ثم قال «إنهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم ، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها ، بل اجتهدوا في توسيع دوائرها ، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها ، ثم استشهد بقول «اسكندر همبولد» : « إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات إلى الوادي الكبير بأسبانيا ، وبين العلوم وأسباب التمدن ، فتناولتها تلك الأمم على أيديهم ، لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصصهم

أثرت في الدنيا تأثيراً لا يشبهه بغيره ، فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني إسرائيل  
الذين لا يطبقون خلطة أحد من الناس ، فإنهم خالطوا غيرهم من غير أن يختلطوا  
به ، ولا يتبدل طبيعتهم بكثرة المخالطة ، ولا ينسون أصلهم الذي خرجوا منه ،  
وما أخذت أمة ألمانيا من التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف  
العرب ، فإنهم كانوا يحملون التمدن معهم ، فحينما حلوا حل معهم فيثبون في الناس  
دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة ، وتهذيباتهم وأشعارهم الشهيرة التي هي أساس  
بني عليه ( المنسيفر والتربرور ) أشعارهم .

والإسلام - بعد ذلك كله - يأمر بالتراحم والتعاطف ، وينهى عن التداير  
والنشاحن ، وينبها إلى ما بيننا من رابطة يجب تقديسها ، فقال جل وعلا  
في سورة الحجرات : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله  
لعلمكم ترحمون . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا  
خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلبسوا أنفسكم  
ولا تباذروا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك  
هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ،  
ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً  
فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم ، ، فانظر إلى ما بدأ به من تقرير  
الأخوة بين المؤمنين : يرتب عليها الأمر بالإصلاح بينهم ، معبراً عنهم بعنوان  
الأخوة ، ترغيباً في الإصلاح وحثاً عليه ، ثم يردنه بالأمر بتقوى الله ،  
لينبهم إلى أن هذا من تقوى الله ، ويرتب عليه أنه باب لرجاء الرحمة العامة ،  
تشمل المصلح ومن أصلحه ، ثم يذهبهم بعد ذلك إلى اقتلاع أسباب الفساد التي  
تتسرب إلى الناس وهم في غفلة من عواقبها ، وهي سخرية بعضهم من بعض .  
فكم تورط ساخر في سخرية يتلهى بها ولا يقطن لعواقبها ، فإذا بها تجر إلى  
شر مستطير وفساد كبير .

وما أجمل ما يعلل النهي عن السخرية بما يعود على المؤمن بحاسبة نفسه ،  
والنظر إلى ما فيها من نقص يجب أن يعنى بتكميله ، بدل الخوض في عيوب

غيره والسخرية منه ، وذلك يتجلى في قوله عز وجل : « عسى أن يكونوا  
خيراً منهم » . ثم يردف هذا بسد الباب وإغلاق منافذ الشر ، الضيقة في مبدئها ،  
المتسعة في نهايتها ؛ فنهى عن اللمز ، والتنازع بالألقاب ، وعد ذلك فسوقاً بمقوتاً  
لا ينبغي صدوره من مؤمن ، وجعله من الظلم البين ، بل جعل عدم التوبة منه  
بما يقذف به في زمرة الظالمين ، أو يجعله كأنه هو الحقيق وحده بلقب الظالمين .  
وبعد ذلك أخذ على النفوس مسالك التردى في تلك الهاوية : بإبعادهم عن  
الاسترسال في الظنون السيئة ، واتباع الهواجس الشيطانية . كل ذلك وهو ينفذ  
فيهم قوة الإيمان ، ويرشدهم إلى طريق الانتفاع بإيمانهم حيث يبدأ كل أمر من  
ذلك بالنداء « يا أيها الذين آمنوا » ، أفترى بعد هذا وضوحاً في تعليم الإسلام ،  
سواء أكان في تربية النفوس على التزام العبادة ، أم في تعويدها الأخلاق الفاضلة ،  
أم في تغييرها من الرذائل الضارة ؟ إنك لا تكاد تجد أمراً بشيء أو نهياً عن شيء  
إلا وقد اقترن بما يحجبه إلى النفوس ، ويرغبها فيه بأجلى بيان وأوضح أسلوب ،  
انظر إلى الترغيب في الأمر بالمعروف بالحسنى ، نجد قوله تعالى : « ولا تستوي  
الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن » ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي  
حميم ، « وفي نهيه عن إساءة الأدب مع المخالفين مهما كبر إجرامهم ، حيث  
يقول : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم »  
تجد التأديب الصحيح في الأسلوب الفصيح ، والنصح الصريح .

هذا هو الإسلام في ثقافته وصفاته ، وهو الرابطة الضخمة بين المسلمين  
عامة في مشارق الأرض ومغاربها ، وهو الذي وحد بين شعوب العرب ،  
وبين شعوب الشرق حتى اليوم ؛ وحد بينها في كل شيء ، حتى في الأحاسيس  
والعواطف والآمال والآلام . ولقد عاش المسلمون كافة طول عصور التاريخ  
أمة واحدة وحكومة واحدة في أغلب الأمر ، وفي كثير من العصور ؛ ويجب  
أن تقام دعائم الوحدة الإسلامية من جديد بين المسلمين ، وأن تنشأ الولايات  
المتحدة الإسلامية ، على نمط الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، وأن تكون  
القومية الإسلامية هي العامل الأول في حياة المسلمين ، وما القومية العربية

التي تنادي بها اليوم إلا جزء من القومية الإسلامية ، فهي تأخذ من القومية الإسلامية : الوحدة في اللغة والجنس والتاريخ والدين ، تأخذ منها كل خصائص هذه القومية ويميزاتها ، ولكن لا تنتمي إلى هذا الرباط المقدس الأبدى ، رباط الإسلام الكريم . . الذي يجب أن نعود إليه من جديد ، ولو قد فعلنا ذلك لكان المجد والتاريخ والحضارة والقوة وكل شيء بين أيدينا ورهن أمرنا ؛ ولكن قاتل الله العصبيات الحقيرة ، والنفوس المريضة ، والتخاذل الأليم الذي يعيش فيه المسلمون اليوم . . إن مشروع الولايات المتحدة الإسلامية لم يظهر لكان خير اعتصام بجبل الله ، ولكان جمعا لشعوب المسلمين في ظلال وحدة قوية ملؤها الحب والإخاء والصفاء والتعاون ، ولكن إذا فاتنا ذلك اليوم ، فترجو أن يكون في الغد القريب ، وأن نستعاض عنه مؤقتا بولايات متحدة عربية ، تكون دولة واحدة ، وحكومة واحدة ، وجيشا واحدا ، يدافع عن حمي العرب والمسلمين ، ويلوذ بظله الحائرون المستعبدون المضطهدون المستعمرون من العرب ، حتى يكتب لهم الله الفوز والنصر والفلاح والتوفيق . .

١٠٤ - وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

١٠٥ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ

الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

١٠٦ - يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ

وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا

كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

١٠٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ أُبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَبِ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ

١٠٨ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ  
ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ .

١٠٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

ست آيات كريمة ترشد إلى وجوب الوحدة والتعاون والإخاء على الحق والعدل والمساواة ، وعلى البر والخير والرحمة والمودة والصفاء ، وعلى المثل الكريمة والقيم الباقية ، وعلى العلم والمعرفة والثقافة ، وعلى أكرم معاني الحياة وأرفعها ، وترشد هذه الآيات إلى مزار الفرقة وتأنجها ، وإلى سخط الله منها ومن الداعين إليها ، ويتوعد الله عز وجل بالعذاب الشديد في الآخرة هؤلاء الداعين إلى الخلاف والحصومة والفرقة بين الناس .

وفي آخر هذه الآية تمجيد لآيات الله وقدرته وسلطانه في العالمين .

يقول الله تبارك وتعالى : « ولتكن منكم أمة ، أي طائفة ، يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف ترتب الأمر في إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وقد يغلط في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة ، وعلى هذا فالمخاطب به الكل على الأصح ويسقط بفعل البعض ، وهو على هذا فرض كفاية ؛ فإن يتركوه أصلا أموا جميعا ، ويجوز أن يكون المعنى : وكونوا أمة تأمرون كقوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، « وأولئك ، أي الداعون الآمرون الناهون » هم المفلحون ، أي الفائزون بكال الفلاح ، روى الإمام أحمد وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر : من خير الناس ؟ قال : أمرهم بالمعروف وأنهم عن المنكر وأتقاهم الله وأوصلهم للرحم ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله وخليفة كتابه ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع



فلسانه ، فإن لم يستطع فبقليه ، وذلك أضعف الإيمان ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : والذي نفسى بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم . وروى أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال : أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة ، فصار بعضهم فى أسفلها و صار بعضهم فى أعلاها ، فكان الذى فى أسفلها إذا استقى غير بالماء على الذى من أعلاها فتأذوا به ، فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة ، فاتوه فقالوا : مالك؟ فقال : تأذيتم بى ولا بد لى من الماء ، فإن أخذوا على يده أنجوه وأنجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم .. وعن حذيفة : يأتى على الناس زمان يكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وعن سفيان الثورى : إذا كان الرجل محبا فى جيرانه محمودا عند إخوانه فاعلم أنه مداهن .

والأمر بالمعروف تابع للأمر بربه ، إن كان واجبا فواجب ، وإن كان مندوبا فتدوب ، وأما النهى عن المنكر أى الحرام فواجب كله ، لأن جميع المنكر تركه واجب لا تصافه بالقبح ، والأظهر أن العاصى يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركه وإنكاره ، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر ، وإنما يجب الأمر والنهى على المكلف إذا لم يخش ضررا ، ويجب أن يدفع بالأخف فالأخف ، فإن قيل : الدعاء للخير عام فى التكليف من الأفعال والتروك ، فهو شامل للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فما فائدة ذكر ذلك ؟ أجيب بأنه من عطف الخاص على العام إيذانا بفضله كقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا ، عن دينهم » واختلفوا ، فيه وهم اليهود والنصارى « من بعد ما جاءهم البينات ، أى الآيات والحجج الموجبة

للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق، وقيل: هم مبتدعة هذه الأمة، وهم المشبهة  
والجبرية والحشوية وأشباههم. وقوله تعالى « وأولئك لهم عذاب عظيم، وعيد  
للذين تفرقوا وتهذب للشبهة بهم » يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، هو يوم  
القيامة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه  
وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وعن يمينه. ومن كان من  
أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه، واسودت صحيفته وأظلمت  
وأحاطت به الظلمة من كل جانب، فأما الذين اسودت وجوههم، فهم  
الكافرون، فيلقون في النار ويقال لهم توبيخاً « أكفرتم بعد إيمانكم، واختلفوا  
في كيف كفروا بعد إيمانهم، فقال أبي بن كعب: أراد به الإيمان يوم الميثاق،  
وعلى هذا هم جميع الكفرة، وقال الحسن: هم المنافقون تكلموا بالإيمان  
بألسنتهم وأنكروا بقلوبهم، وعن عكرمة أنهم أهل الكتابين آمنوا بألسنتهم  
وبمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به، وقال قتادة:  
هم أهل البدع، وقال أبو أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم في دمشق دمعت غيرة.  
وقال: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة، قيل له: فما شأنك  
قد دمعت عينك؟ قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا، ثم  
قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده فقال: إن بأرضك منهم كثير فأعاذك الله منهم.  
وقوله تعالى: « فذوقوا العذاب، أمر إهانة بما كنتم تكفرون، أي بسبب  
كفركم أو جزاء كفركم » وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله، أي  
جنته، عبر عنها بالرحمة تذييها على أن المؤمن وإن استغرق بجهد في طاعة الله تعالى  
لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله.

فإن قيل: كان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم، فالجواب أن القصد أن يكون  
منطلق الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم، وفائدة قوله تعالى: « هم فيها  
خالدون، بعد قوله « ففي رحمة الله، أنه أخرج مخرج الاستئناف والتأكيد، كأن  
قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال « هم فيها خالدون، لا يطعنون عنها ولا يمتدحون  
« تلك، أي هذه الآيات الواردة في الوعد والوعيد: آيات الله تلوها عليك »

يا محمد ، بالحق ، أى متلبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء ، وما الله يريد ظلما للعالمين ، أى يستحيل الظلم منه ، لأنه لا يجب عليه شيء بل هو المالك على الإطلاق ، كما قال الله تعالى ، والله ما فى السموات وما فى الأرض ، أى ملكا وخلقا ، وإلى الله ترجع ، أى تصير ، الأمور ، أى فيجازى الناس كافة على ما عملوا من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية .

١١٠ - كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ  
الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ  
الْفَاسِقُونَ .

١١٤ - لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذَى وَإِنْ يُقْتَلُوا كُمْ يُؤَلِّفُكُمْ الْأَذْيَارَ  
هُمْ لَا يُنصَرُونَ .

١١٢ - ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنْ اللَّهِ  
وَحَبْلِ مِّنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِنَضْبٍ مِّنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ  
الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا  
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

ثلاث آيات كريمة ، وجه الخطاب فيها إلى أمة الإسلام ، وأتباع محمد عليه السلام ، وتضمنت أولها تشريفا وتكريما لهذه الأمة العظيمة ، التى حملت لواء الإسلام ، ونشرت دعوة محمد عليه السلام فى كل البقاع والأقطار والأرجاء ، وتضمنت كذلك دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بشريعة محمد وأتباعه ، والعمل برسالته ، كما تضمنت الثانية وعدا إلهيا كريما بمنع ظفرز الكافرين عن المؤمنين ، وبإلقاء الرعب فى قلوب أهل الكتاب من المسلمين ،

واحتوت الثالثة على تصوير ما لحق ويلحق بأهل الكتاب من الكافرين والمعادين للإسلام من الذلة الملازمة لهم ، ومن الهوان اللاحق بهم ، ومن سوء التصير بسبب جرائمهم وجرائزهم وكفرهم وإصرارهم ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وعصيانهم ، واعتدائهم على حرمة الله . .

ثلاث آيات كريمة حرى بكل مسلم أن يتأملها ، ويتدبر معناها ، ويعبى فخرها ، ويفتخر بمفاخره فيها ، ويجتهد في طاعة الله والعمل بشريعة الإسلام التي هي مصدر عزه وفخره ومجده .

يقول الله عز وجل في أولى هذه الآيات : « كنتم ، يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم في علم الله تعالى وخير أمة أخرجت ، أي ظهرت للناس ، وقيل : كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين بذلك ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إلا وإن هذه الأمة توفى سبعين أمة هي آخرها وأكرمها على الله تعالى ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مثل أمي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره ؟ » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمي ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون من هذه الأمة ، .

وقوله تعالى « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، استئناف بين به كونهم خير أمة ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خير ثان لكتبت .. وقوله تعالى « وتؤمنون بالله » يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن تؤمن به ؛ لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به : من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه ، فكانه غير مؤمن بالله ، وآخر « تؤمنون بالله » وحقه أن يقدم ، لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً بالله وتصديقاً به وإظهاراً لدينه ، واستدل بهذه الآية على أن إجماع هذه الأمة حجة ، لأنها تقضى كونهم أمرين بكل معروف ناهين عن كل منكر ، فلما أجمعوا على باطل كتحريم

شيء هو في نفس الأمر معروف كان أمرهم على خلاف ذلك ، ولو آمن أهل الكتاب ، بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لكان ، الإيمان ، خيرا لهم ، بما هم عليه ، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام جبا للرياسة واستتباع العوام ، منهم المؤمنون ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وأكثرهم الفاسقون ، أى المتردون في الكفر ، لن يضروكم ، أى اليهود يا معشر المسلمين بشيء ، إلا أذى ، أى ضرا يسيرا ، مثل السب والطعن في الدين والتهديد ونحو ذلك ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، أى منهزمين ، ولا يضروكم بقتل أو أسر ، ثم لا ينصرون ، عليكم بل لكم النصر عليهم ، وفي هذا تثبيت لمن أسلم منهم لأنهم كانوا يؤذونهم بأنهم كانوا لا يقدر أن يتجاوزوا الأذى إلى ضرر يبالى به ، مع أنه وعدم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل ، ورفع الفعل هنا ، ينصرون ، ليفيد أن نفي النصر وعد مطلق كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها أو أبشركم بها بعد التولية أنهم مخذلون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، كما أخبر عن حال بني قريظة والنضير ويهود خيبر ، ومعنى التراخي في ثم هنا ليفيد أن التراخي في الرتبة ؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار ، وضربت عليهم الذلة ، أى الصغار في النفس والمال والأهل وذل التمسك بالباطل والجزية ، وإنما ثقفوا ، أى حينما وجدوا ، فلا عز لهم ولا اعتصام في سائر أحوالهم ، إلا ، أى في حال اعتصامهم ، بحبل من الله ، أى بذمة من الله أو كتابه ، وحبل من الناس ، أى بذمة من المسلمين أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين ، أى لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة وهي التجاؤم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية أو دين الإسلام ، وباءوا ، أى رجعوا ، بغضب من الله ، أى مستوجبين له ، وضربت عليهم المسكنة ، كما يضرب البيت على أهله ، فهم ما يكونون في المسكنة غير ظاعنين عنها - وفسر أكثر المفسرين المسكنة بالجزية - وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه ، ذلك ، أى الكفر والقتل وضرب الذل والمسكنة والتبوء بالغضب ، بأنهم ، أى بسبب أنهم ، كانوا يكفرون بآيات الله ويقبلون

الأنبياء بغير حق ذلك ، أى الكفر والقتل ، بما عصوا وكانوا يعتدون ، أى بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله ، فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى الكبائر ، والإصرار على الكبائر يفضى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

وفى الإسلام ومنزله من الشرائع السماوية ورد الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا ، فقال بعضهم : إنه نائم وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجيب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة ، فقالوا : أولوها له يفقهها فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا : فالدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أطاع محمدا صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله عز وجل ، ومحمد فرق بين الناس .

وفى شرح الإسلام وبيان بساطة مبادئه وسموها ، وخلق صاحب الرسالة الأعظم ، ورد الحديث الشريف عن ابن عباس رضى الله عنه أن أبا سفيان ابن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هادنا فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم يابلياء (١) ، فدعاهم وحوله عطاء الروم ، ثم دعاهم ، فدعا بالترجمان فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان فقلت : أنا أقربهم ، فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهري ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سأئل هذا عن هذا الرجل فإن كذبتني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه ، ثم كان أول ما سألتني

(١) هى بيت المقدس .

هنا أن قال : كيف نسبة فيكم؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول  
منكم أحد قط قبله؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آباءه من ملك؟ قلت : لا ، قال :  
فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت : ضعفاؤهم . قال : أيزيدون  
أم ينقصون؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد  
أن يدخل فيه؟ قلت : لا ، قال : فهل تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟  
قلت : لا ، قال : فهل يغدر؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل  
فيها ، ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال : فهل قاتلتموه؟ قلت :  
نعم؟ قال : فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وينال  
منه ، قال : فماذا يأمركم؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا  
ما كان يعبد آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فقال للترجمان :  
قل له : إني سألتك عن نسبة فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث  
في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا  
فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك  
هل كان في آباءه من ملك ، فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان من آباءه من ملك ، قلت :  
رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول  
ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب  
على الله ، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم  
اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون  
وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل  
فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل  
يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بهم يأمركم ، فذكرت أنه  
يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وبينهاكم عن عبادة الأوثان ،  
ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي  
هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أني أخلص إليه  
لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، قد فعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسين<sup>(١)</sup> ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً. ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله؛ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون، قال: قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ؛ وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا فقلت لأصحابي لقد أمر أمر ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بنى الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام. وإلى هنا ينتهى الربع الأول من الجزء الرابع من أجزاء القرآن الكريم، وقد احتوى على تكذيب الله عز وجل لليهود فى افتراءهم وبهتانهم وكذبهم على الله وادعائهم أن محمداً ليس على شريعة إبراهيم ، وأنهم هم الذين ساروا على شريعته ؛ كما تضمن الرد عليهم فى ثلثهم للمسلمين حين حولوا وجوههم فى القبلة إلى الكعبة والبيت الحرام، لأن الكعبة هى أول بيت للعبادة وضع للناس ، ولأنه قد باركه الله وجعله هدى للعالمين ، وفيه مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً .. فهذا شأن الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ، وهذا دين إبراهيم كان هو الإسلام ، وهذه هى الكعبة رفع إبراهيم وإسماعيل قواعدها ، وظهرها للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وهذا هو نبي الإسلام محمد بن عبد الله كان دعوة أبيه إبراهيم ، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين .

واحتوى هذا الربع كذلك على فرض شريعة الحج فى الإسلام ، ثم تضمن حججاجاً لأهل الكتاب وإخاماً لهم ، ورداً عليهم ، وتوبيخاً لهم على كفرهم وصدوم الناس عن سبيل الله ودينه القويم ، وفيه تحذير للمؤمنين بالاحتراس من كيد الكافرين ،

(١) أى الفلاحين وعامة الشعب ، أى عليك مسئولية بقائهم على ما هم عليه ومسئولية

عدم إيمانهم .



والحذر من مكائدهم ومكرهم وقتهم ، وفيه كذلك دعوة للمؤمنين بالاعتصام  
جميعا بحبل الله ودينه وكتابه الحكيم ، وبشكر الله عز وجل على ما بلغ نعمه  
وعظيم كرمه ، وعلى إنقاذه للعرب وجمعهم تحت كلمة واحدة وراية واحدة ، بعد  
أن كانوا أعداء متفرقين متحاربين ، وفيه كذلك دعاء للمسلمين بأن يحرصوا على  
الدعوة للخير ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي ذلك سعادة لهم  
وفوز وفلاح في دنياهم وأخرهم ، وأن يتعدوا عن الخلاف والتفرق وخاصة  
في الدين ، ولا يكونوا كاهل الكتاب الذين تفرقوا وانقسموا شيئا وأحزابا  
من بعد ما جاءتهم البينات ، ومن أجل ذلك استحقوا عذابا شديداً من الله  
في الآخرة ، التي يفوز فيها المؤمنون ، ويخسر فيها الكافرون ، ثم اشتمل هذا  
الربع أيضا على تمجيد شأن الإسلام والمؤمنين به ، وعلى التنويه بهم ووصفهم  
بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ثم وصفهم الله عز وجل بأوصاف ثلاثة :  
الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله . وقد سبق أن دعا الله  
عز وجل في هذا الربع المزمين أوجاعة منهم إلى الدعوة إلى الخير ، وفي مقدمة  
هذا الخير دين الإسلام ، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وذلك  
لعظم أمر هذه الصفات الثلاث ، ولكبير منزلتها وشأنها عند الله . وفي هذا  
الربع دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بشريعة الإسلام ، ورفع ضررهم  
الكبير عن المسلمين والإسلام ، والتنبيه لهم بمصير مظلم تضرب عليهم فيه الذلة  
والمسكنة ، ويلازمهم غضب الله ، بسبب كفرهم بالدين الحق ، وقتلهم  
الأنبياءم بغير حق ، وعصيانهم واعتدائهم على شرائع الله وحرماته .  
والدعوة إلى الخير التي وردت في هذا الربع تشمل الدعوة إلى الدين الحق ،  
وإلى كل خير عام ينفع الإنسان في أولاه وأخراه . وذلك سبب لحفظ كيان  
العقيدة في النفوس بالعقل والحجة والبرهان .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرطان أساسيان لحفظ نظام المجتمع  
والأمة سليما بعيدا عن التدهور والانهيار ، وهما كثيرا ما تسببا في ردع الطغاة

عن طغيانهم ، والظالمين عن ظلمهم ، وفي الدعوة إلى الحق والخير وصالح الأفراد والجماعات والشعوب .

وقد اشتمل هذا الربع كذلك فيما اشتمل عليه - على نداءين من الله عز وجل للمؤمنين ؛ وأول هذين النداءين قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الخ ؛ وثاني هذين النداءين قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » الخ .. والنداء الأول تحذير من الله للمؤمنين بأن لا يستمعوا إلى أهل الكتاب ، وأن لا يطيعوهم ، لأنهم لا يريدون للإسلام والمسلمين إلا شرا ، أما النداء الثاني فدعوة إلى تقوى الله وطاعته ، وإلى العمل الصالح المصحوب بخوف الله وخشيته ، والحذر من غضبه وعذابه الشديد .

١١٣ - لَيْسُوا مَوَآءٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ، أَنَا ، اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

١١٤ - يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

١١٥ - وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .

١١٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

١١٧ - مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

خمس آيات كريمة ، فيها تصوير لطائفتين من أهل الكتاب : طائفة مؤمنة ، وأخرى كافرة ، طائفة آمنوا بالله وباليوم الآخر وبمحمد ، وطائفة كفروا واغتروا معتزين بأموالهم وأولادهم .

أما الآية الأولى من هذه الآيات الخمس فهي قوله عز وجل «ليسوا سواء» أى ليس أهل الكتاب مستوين فى أحوالهم ، وفى إيمانهم وكفرهم . وقوله تعالى : «من أهل الكتاب أمة قائمة ، أى مستقيمة ثابتة على الحق ، وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام ، قالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ، ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم ، فأنزل الله هذه الآية . . . ويتلون آيات الله ، أى يقرأون كتاب الله «آناء الليل ، أى فى ساعاته «وهم يسجدون ، أى يصلون ، لأن التلاوة لا تكون فى السجود ، واختلف المفسرون فى معناها ، فقال بعضهم : هى قيام الليل ، وقال ابن مسعود : هى صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها ، لما روى أنه صلوات الله وسلامه عليه آخرها ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم .

ثم وصف الله تعالى تلك الأمة القائمة بصفات أخرى فقال «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك ، أى الموصوفون بما ذكر «من الصالحين ، أى بمن صلحت أحوالهم عند الله ، واستحقوا رضاه وثناءه ، أما الأمة الأخرى فهي غير قائمة ، بل منحرفون عن الحق غير متعبدين بالليل ، مشركون بالله ، ملحدون فى صفاته ، متباطئون عن الخيرات ، فترك هذه اكتفاء بذكر أحد الفريقين .

وقوله تعالى «وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، أى يعدموا ثوابه بل يجازون عليه ، أى الأمة القائمة ، وقوله تعالى «والله عليم بالمتقين ، بشارة لهم وإشعارا بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل ، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى «إن الذين كفروا لن تغنى ، أى تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله ، أى من عذابه «شيئاً ، وخص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الإنسان يدفع

عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد ، وأولئك أصحاب النار ،  
أى ملازموها وهم فيها خالدون ، أى ما كثون أبداً ، مثل ، أى صفة ، ما ينفقون ،  
أى الكفار ، فى هذه الدنيا ، أى فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ونحوها  
، كمثل ريح فيها صر ، قال أكثر المفسرين : فيها برد شديد ، وحكى عن ابن  
عباس أنها السعوم الحارة التى تقتل ، وقيل فيها صر أى صوت ، أصابت  
حرث ، أى زرع ، قوم ظلّموا أنفسهم ، أى بالكفر والمعاصى ، فأهلكته ، عقوبة  
لهم ، لأن الإهلاك عن سحق أشد وأبلغ ، والمعنى : مثل إهلاك ما ينفقون كمثل  
إهلاك ريح الزرع فلم يندفعوا به ، فكذلك نفقة هؤلاء ذاهبة لا ينتفعون بها  
، وما ظلّمهم الله ، بضياغ نفقاتهم ، ولكن أنفسهم يظلمون ، أى بالكفر الموجب  
لضياغها ، ويجوز أن يعود الضمير لأصحاب الحرث الذين ظلّموا أنفسهم ،  
وما ظلّمهم الله تعالى بإهلاك حرثهم ، ولكن ظلّموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا  
به العقوبة .

١١٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ  
لَا يَأْتُونَكُم بِخَبْرٍ وَلَا يَدِينُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِن  
أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ يَتَّبِعْنَا لَكُمْ  
الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ .

١١٩ - هَآئِنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ  
كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ  
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلِ مُؤْتُوا بِنِعْمَتِكُمْ إِنَّا لَنَنظِرُكُمْ  
بِدَاتِ الصُّدُورِ .

١٢٠ - إِن تَمَسَسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ  
يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا  
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

ثلاث آيات بليغة في التحذير من اتخاذ الأصدقاء والناصحين من غير المسلمين وخاصة في شئون الإسلام والدين .. فإنهم لا يقصرون في الفساد والهوار والهلاك للمسلمين ، بل كثيرا ما يودون ضررهم ، وكثيرا ما يتنطق ألسنتهم بعبارات للغيضاء للدين وأهله ، والإسلام وأمه . والذي كمن في صدورهم أكبر مما ظهر على ألسنتهم عند إعمال العقل والرأى ..

وقوله تعالى في الآية الأولى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ، أى أصدقاء وأصدقاء تطلعونهم على سركم ثقة بهم ، شبهوا ببطانة الثوب ، كما شبهوا بالشعار ، قال عليه الصلاة والسلام في الأنصار : « الأنصار شعار ، والناس دثار ، والشعار : ما يلبس فوق الجسد ، والدثار : فوقه .. وقوله تعالى « من دونكم ، أى من دون المسلمين ، أى غيركم من الكفار والمنافقين .. لا يألونكم خيالا ، أى لا يقصرون لكم في طلب الفساد . والإلواء : التقصير ، وتقول : لا آلوك نصحا : على تضمن معنى المنع أو النقص ، والمعنى : لا أمنك نصحا ولا أنقصك منه شيئا .. ودواء ، أى تنوا ، ما عتم ، أى عنتكم ، والعنت هو شدة الضرر ، وما - هنا : مصدرية .. « قد بدت البغضاء ، أى ظهرت الموجدة والضعينة والحقد ، من أفواههم ، أى شفاههم وألسنتهم . وفي كلامهم بالوقية فيكم وإطلاع المشركين على سركم لا يتم الكون أنفسهم لفرط بغضهم ، وعن قتادة : « قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضا على ذلك ، وما تخفى صدورهم ، من العداوة والغيظ ، أكبر ، أى أعظم مما بدا ؛ لأن ظهوره لم يكن عن روية واختيار ، قد بينا لكم الآيات ، أى الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ، وموالاة المؤمنين ومعادات الكافرين « إن كنتم تعقلون ، ما بين لكم ؛ فلا توالوهم « ها أتم أولاء ، هاللتنيه وأتم كناية عن المخاطبين ، وأولاء إسم للشار إليهم وهم المؤمنون ، وقوله تعالى « تحبونهم ، أى هؤلاء الذين نهيتكم عن مصادقتهم للأسباب التي بينكم من القرابة أو الرضاع أو المصاهرة أو المصالح المالية المشتركة أو غيرها ولا يحبونكم ، لمخالفتهم لكم في الدين ، بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبدون محبتهم لأهل

البغضاء وتؤمنون بالكتاب كله ، أى بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم ،  
وفى هذا توبيخ شديد للمؤمنين ، بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم ، ونحو  
هذا قوله تعالى ، فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ، وإذا  
لقوكم قالوا آمنا ، أى تفاقا وتقريرا ، وإذا خلوا ، أى خلا بعضهم ببعض  
، عضوا عليكم الأنامل ، أى أطراف الأصابع ، من الغيظ ، أى شدة الغضب  
لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، ويعبر عن شدة الغضب بعض  
الأنامل كناية أو مجازا وإن لم يكن ثم عض فيوصف المغتاض والنادم بعض  
الأنامل والبنان والإيهام ، قل موتوا بغيظكم ، أى ابقوا إلى الممات بغيظكم ،  
فلن تروا ما يسركم فى المؤمنين ، وقوله تعالى ، إن الله عليم بذات الصدور ،  
أى بما فى القلوب ، وهذا يحتمل أن يكون من مقول القول السابق ، أى وقال  
لهم كذلك : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفون من عض الأنامل غيظا ، ويجوز  
أن يكون خارجا عن القول بمعنى : قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطلاعى إياك  
على أسرارهم ؛ فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم ، إن تمسكتم ، أى تصبكم أيها  
المؤمنون ، حسنة ، أى نعمة ، كنصر وغنيمة وخصب فى معاشكم وتتابع الناس  
فى دينكم ، تسؤم ، أى تحزنهم ، وإن تصبكم سيئة ، أى إساءة ، كهزيمة وجذب  
واختلاف يكون بينكم ، يفرحوا بها ، المعنى أنهم متناهون فى عداوتكم ، فلم  
توالونهم ؟ فاجتنبوهم ، ووصفت الحسنة بالأس والسيئة بالإصابة ؛ لأن المس  
مستعار بمعنى الإصابة ، فكان المعنى واحد ، ألا ترى إلى قوله تعالى ، ما أصابك من  
حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، ويجوز أن يكون القرآن الكريم  
قد عبر بالأس للدلالة على أن حصول أقل نعمة للمؤمنين يسوء الكفار ، والشىء  
إذا مسك فقد انتفعت به نفعاً أقل مما لو أصابك وحصل فى يديك ، وإن تصبروا ،  
على أذاهم ، وتقوا ، الله فى موالاتهم وفى غير الموالات ، لا يضركم كيدهم  
شيئا ، بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين . وهذا تعليم من الله  
وإرشاد إلى أنه يجب أن يستعان على كيد الأعداء بالصبر والتقوى ، وقد  
قالت الحكمة : إذا أردت أن تكبت عدوك ومن يحسدك فزدد فضلا فى  
نفسك .. ، إن الله بما يعملون محيط ، أى عالم فيجازيهم به .

في هذه الآيات الثلاث تحذير للمؤمنين من اتخاذ الناصحين والمستشارين من الكفار وأهل الكتاب ، فإنهم أكثر تمنيا لضرر المسلمين ولسوء أحوالهم ، وفي هذا عظة للمسلمين الذين يستعينون بالمستشارين الأجانب في شئون السياسة وفي شئون الاقتصاد وفي شئون كثيرة ، وكثيرا ما يكون هؤلاء المستشارون من الأمم المستعمرة التي لا تريد الخير للمسلمين . . وكثيرا ما يطلع هؤلاء المستشارون على أوضاعنا الداخلية وينقلونها لأهمهم ، فتطلع أولا بأول على كل أسرارنا وشئون حياتنا . وتجتهد في العمل على تأخيرنا ، وفي إبداء النصيح والشورى لنا بما يعود علينا بالضرر والوبال والدمار وسوء المصير . و فرق بين هذا وبين الاستعانة بالخبراء الأجانب في مشكلة من مشكلاتنا الصناعية أو الاقتصادية مثلا ، فالضرورة تبيح لنا ذلك بقدر ، وبشرط عدم الثقة الكاملة بهؤلاء الخبراء ، وبشرط عدم إطلاعهم على أسرارنا ، وعدم ترك وثائقنا تحت بصرتهم وفي أيديهم ؛ وكثيرا ما كان الخبراء الأجانب ضدنا ، وكثيرا ما كتبوا تقارير هي خلاف الحقيقة ، فيجب أن لا نركن إليهم كل الركون ، فقد كان الخبراء الأجانب في مصر يقولون : إن الصناعة لا يمكن أن تقوم في بلادنا ، وكثيرا ما نصحونا بنصائحهم ، التي فيها تأخرنا وضعفنا وانحطاطنا . إن أبناء المستعمرين لا يمكن أن يكرنوا صادق النية في خدمتنا ولا في الإخلاص لنا ، فيجب التحفظ من قبلهم ، والاحتراس من كيدهم ، والعجب لكثير من الأمم الإسلامية ، التي تمتع دواوينها للخبراء وتضع وثائقها وأسرارها بين أيديهم ، وتعتمد عليهم اعتمادا كثيرا في كل شئونها ، ثم تطلب لنفسها السلامة والنجاة لا ، لا يمكن أن يكون ذلك وعين المستعمر ترقبنا ، وتأخذ بخناقتنا ، وتدمر نهضتنا . وتعرقل تقدمنا ورخاء شعوبنا .

هذا وكتاب الله الكريم يضع للمؤمنين الحدود الفاصلة بين من يصبح مخالطهم والتعاون معهم من المخالفين لنا في الدين ومن لا يصبح لنا ذلك معه ، كما يبين مدى هذا التعاون وحدوده ، وهو لم يجعل مجرد المخالفة في الدين سببا من أسباب الحرب والحصام ، أو من أسباب التقاطع وعدم التعاون ، وإنما

جعل السبب في ذلك العداة الذي يدفع المخالفين إلى إيذاء المسلمين وقتلهم عن دينهم، وإخراجهم من ديارهم وأوطانهم، وسلب حقوقهم، وتختق خرياتهم، والاعتداء عليهم؛ ولذلك يقرر الإسلام حسن معاملة المخالفين الذين لم يكن لهم من عداوة المؤمنين ما يدفعهم إلى البغى والعدوان، «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون».

١٢١ - وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

١٢٢ - إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُتَا كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ .

١٢٣ - وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

١٢٤ - إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ .

١٢٥ - بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

١٢٦ - وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

١٢٧ - لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ .



١٢٨ - لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ  
فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

١٢٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ  
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

تسع آيات كريمة ، تذكر المؤمنين والرسول صلوات الله عليه بأسرار  
هزيمة أحد ، وتذكرهم بالنصر الكبير الذي نالوه في بدر ، هذا النصر الذي  
كان بشري وطمانينة للمؤمنين ، وكان شرا وهزيمة وكبشا للكافرين .

قال الله تعالى : « وإذا ، أي واذكر يا محمد الوقت الذي حدث فيه هذا  
الفضل الإلهي عليك وعلى المسلمين . وذاكر الوقت ذكر لما حصل فيه ، لشكر  
الله أولا ، وللعظة والاعتبار والتدبر والإفادة من التجارب ثانياً ... » غدوت  
من أهلك ، أي من منزل أهلك ، من حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها  
وتبوي ، أي تنزل المؤمنين معاً ، أي مراكن يقفون فيها للقتال والله  
سميع ، لأقوالكم وعليم ، بأحوالكم . روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم  
الأربعاء ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، ودعا عبدالله بن سلول  
- ولم يدعه قط قبلنا - فاستشاره ، فقال عبد الله وأكثر الأتصار : يا رسول الله  
أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصابنا مناه ،  
ولا تدخل علينا إلا وأصبنا منه . فكيف وأنت فينا ، فدعهم ، فإن أقاموا ،  
أقاموا بشر مخمس<sup>(١)</sup> وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء  
والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين ، فأعجب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم هذا الرأي ، وقال بعض أصحابه : اخرج بنا إلى هؤلاء  
المعتدين حتى لا يرون أننا قد جينا عنهم وضعفنا ، وقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : إني قد رأيت في منامي يقدا مذبحه حولي فأولتها خيراً ورأيت  
كأنني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة

(١) الخمس بكسر الباء : مكان لا ماء فيه ولا طعام .

وتدعوهم ؛ فقال رجال من المسلمين قد فاتهم يوم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد : أخرجنا إلى أعدائنا ، فلم يزالوا به حتى دخل قلبس لأمته أى درعه ، فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا : بثس ما صنعنا ، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه ا ، وقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال : لا ينبغي لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقايل ، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة ، وأصبح من الشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة ، ونزل فى عروة الوادى وجعل ظهره من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير بسفح الجبل وقال : انضحوا علينا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا ، إذ ، بدل من إذ قبله ، همت طائفتان منكم ، هم بنو سلبية من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وهما جناح العسكر ، أن تفشلا ، أى تجنبنا عن القتال وترجعا ، روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج فى زهاء ألف رجل ، ووعدهم النصر إن صبروا ، وكان المشركون ثلاثة آلاف ، فلما بلغوا عند جبل أحد بالمدينة انزل ابن أبى المنافق وثلاثمائة ، وقال : علام تقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى وقال : أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم ، قال ابن أبى : لو نعلم قتالا لا تبعناكم ، فهم الجبان باتباعه فتبهم الله ، ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الزمخشري : والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، وكما لا تخلو النفس فى الشدة من بعض الهلع ، ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر ، ويوطنها على احتمال المكروه ، والله وليهما ، أى ناصرهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، أى ليشقوا به دون غيره فينصرهم كما نصرهم بيدر .

ونزل- لما هزموا فى أحد- تذكرة لهم بنعمة الله ، ولقد نصركم الله بيدر ، وهو ما بين مكة والمدينة ، وهو اسم ماء كان لرجل يسمى بدرا فسمى به ، وقوله تعالى ، وأنتم أذلة ، أى بقلة العدد والسلاح والمال ، فإن قيل : كيف قال تعالى ، وأنتم أذلة ، وقد قال الله تعالى : والله العزة ورسوله وللمؤمنين ، فالجواب أنه بمعنى القلة وضعف الحال وقلة السلاح والمال كما مر ، فإن نقيض

ذلك هو العز وهو القوة والغلبة ، وروى أن المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، ولم يكن فيهم إلا فرس واحد وأكثرهم كانوا رجالا ، وربما كان الجمع يركبون جملا واحداً ، والكفار كانوا نحو ألف مقاتل ، ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة ، فاتقوا الله ، في الثبات وعدم المخالفة ، لعلمكم تشكرون ، أى نعمه التى أنعم بها عليكم .

وقوله تعالى « إذ تقول للؤمنين ، أى توعدهم تطمينا - ظرف لنصركم ، وقوله تعالى « ألن يكفيكم أن يمدكم ، أى يعينكم » ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، أى من عند الله ، وإنما جيء بـ « بلن إشعاراً بأنهم كالأيسين من النصر لضعفهم وقتلهم مع قوة العدو وكثرتهم .

وقوله تعالى « بلى ، إيجاب لما بعد لن ، أى بلى يكفيكم ، فإن قيل قد قال تعالى في سورة الأنفال : « إني بمدكم بألف من الملائكة مردفين ، فكيف قال هنا : بثلاثة آلاف ؟ فالجواب أنه أمدهم أولاً بألف ثم صارت ثلاثة ، ثم صارت خمسة ، كما قال تعالى « إن تصبروا ، أى على لقاء العدو ، وتيقوا ، أى الله في المخالفة ، ويأتوكم ، أى المشركون « من فورهم ، أى وقتهم » هذا ، والفور العجلة والسرعة ، ومنه فارت القدر : اشتد غليانها وسارع ما فيها إلى الخروج « يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، اسم فاعل أو اسم مفعول أى معلين ، وقد صبروا واتقوا ، وأنجز الله وعده لهم بأن قاتلت معهم الملائكة مؤيدين ، وعن عروة بن الزبير كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك ، وعن الضحاك : معلين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنانها ، وقال أكثر المفسرين : إن الملائكة لم تقايل في غير يوم بدر ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : تسوموا فإن الملائكة قد تسومت « وما جعله الله ، أى الإمداد أو النصر المفهوم من السياق « إلا بشرى ، أى بشارة « لكم ، أى بالنصر » ولتطمئن ، أى ولتسكن « قلوبكم به ، فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ، كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر وطمانينة لقلوبهم » وما النصر إلا من عند الله ، لا من العدة والعدد ، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم

إلى مدة الملائكة، وإنما أمرهم ووعدهم بشارة لهم وربطوا على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر، العزيز، الذي لا يغالب، الحكيم، الذي ينصر ويخذل من يشاء بوسيط وبغير وسيط على مقتضى الحكمة والمصلحة، وقوله تعالى، ليقطع، متعلق بنصركم، أى ليهلك طرفاً، أى طائفة من الذين كفروا، بالقتل والأمر، وهو ما كان في يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم، أو يكبتهم، أى يذلهم بالهزيمة، والسكبت شدة غيظ أو وهن يقطع في القلب، فينقلبوا، أى فيرجعوا، خائبين، أى لم ينالوا ما راموه، وأول التنويع لا للترديد.

ونزل لما كسرت ربايعته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه في أحد، وقال: كيف بفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا ربايعته وهو يدعوهم، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، فأضربوا، إنما أنت عندهم مبعوث لإبذارهم وبخائنهم. وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد: اللهم الغن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان ابن أمية، فنزلت هذه الآية. وقال قوم: نزلت في أهل بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم، أميرهم المنذر بن عمرو وقتلهم عامر بن الطفيل، فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدا شديدا، وقتلت شهرا في الصلوات كلها يدعوا على جماعة من تلك القبائل باللعن والسبي، وقوله تعالى، أو يتوب عليهم أو يعذبهم، عطف على قوله، أو يكبتهم، و ليس لك من الأمر شيء، اعتراض، والمعنى أن الله مالك أمرهم، وإنما أن يهلكهم أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أضروا، فإنيهم ظالمون، بالكفر، وقيل إن، أو يتوب عليهم، بمعنى: إلى أن يتوب عليهم، والله ما في السموات وما في الأرض، أى ملكا وخطما، فله الأمر كله، والمقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولا من قوله، ليس لك من الأمر شيء، والمعنى: إنما يكون ذلك إن له الملك وليس هو لأحد إلا الله، وظاهر ما ذكر يدل على أن ذلك ورد للنع من أمر كان صلى الله عليه وسلم.

يريد أن يفعله ، وذلك القفل إن كان بأمر الله فكيف يمنعه منه ، وإن كان  
بغير أمره فكيف يضح مع قوله تعالى « وما ينطق عن الهوى » ؛ ولكن الحق  
أن ذلك كان من ترك باب الأفضل والأولى ، فلا جرم أن أرشده الله تعالى إلى  
اختيار الأولى ، ونظيره قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ،  
ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، فكأنه قال تعالى  
أولاً : إن كان لا بد أن تعاقب ذلك الظالم فكيف بالمثل ، وإن تركته كان ذلك  
أولى ، ثم أمره أمراً جازماً بتركه فقال « واصبر وما صبرك إلا بالله » .

وقوله تعالى « يغفر لمن يشاء » ، أي المغفرة ، أي لمن يشاء الله الغفران لا  
أول للعبد الذي يشاء هو - أي العبد - المغفرة لنفسه ، « ويعذب من يشاء » أي  
تعذيبه ، أي لمن يشاء الله عذابه ، أول للعبد الذي يشاء هو - أي العبد - العذاب  
لنفسه ، ويفسر هذا قوله صلى الله عليه وسلم « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من  
أبى » ، ثم قال صلوات الله وسلامه عليه ؛ « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني  
فقد أبى » .

ولما كان الله عز وجل أن يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، إلا أن جانب  
المغفرة والرحمة غالب لا على سبيل الوجوب ، بل على سبيل التفضل  
والإحسان ، قال : « والله عفون ، أي لأولياته ، رحيم ، أي بعبادة ، فلا  
يأدر بعذابهم .

في هذه الآيات ذكر الله عز وجل رسوله الكريم بما حدث للسليمن من  
الهمزية في أخذ بسبب عصيانهم لرسول الله ، ومخالفتهم لقائدكم الحكيم ، ثم  
طالبهم بشكره على نصره لهم في بدر ، هذا النصر العظيم الذي كان معجزة  
المعجزات والذي أقام للإسلام وطناً قوياً مرهوب الجانب في الحجاز ،  
والذي أعز الله به الإسلام والمسلمين ؛ وكان مقدمة لانتصار الرسول والمسلمين  
في معاركهم مع المشركين والكفار ، ثم لانتصار خلفاء الرسول في المعارك  
الكبرى التي حدثت بين الإسلام والمسيحية ، والوثنية . إنه لنصر خلدته الأيام ،  
ومضت بذكره الأعوام ، وذلك على مستقبل الإسلام ، ووضع لبنته قوية

ودعامة متينة لصرح العزة المحمدية، والكرامة الإسلامية . بدر وأحد : يومان خالداً في التاريخ الإسلامي ، لا ينساها أحد ، ولا يستطيع أن يغض عنهما الطرف باحث في نشأة الإسلام وحياة المسلمين ، ففي بدر نصر الإسلام والرسول نصراً مؤزراً ، وفي أحد منى المسلمون بالهزيمة بسبب مخالفتهم لأوامر قائدهم الأعظم ، ورسولهم الحكيم . . في بدر قوة مؤمنة تكافح من أجل سلام دائم ضد وثنية متربصة وضد بحر لحي من الشرك والاستعباد والطغيان ؛ وفي أحد صراع ضخم بين دعاة السلام ودعاة الحرب ، بين أنصار الحق والعدالة وحرىات الأفراد والمجتمعات والشعوب ، وبين جماعات فارغة تعيش في الظلام، وتقتات بالأوهام ، وتريد أن تحجر على الإنسانية لتعيش كما كانت تعيش في عصور البطش والقوة ، وفي ظلال شريعة الغاب والناج . فلقد كانت هجرته . صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة مبدأ عهد جديد ، نال فيه الإسلام من التأييد والانتشار ما ألقى راحة قريش ، وزاد حنقهم عليه ، فمنعوا المسلمين من الحج ، وصادروا أموالهم ، وأغروا شعراءهم على هجو الرسول فنصب للرد عليهم ثلاثة ، منهم حسان بن ثابت الأنصاري ، وكان يقول له : شن الغارة على بني عبد مناف ، فتالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام . ولقد كان لشعرهم أثره في ذلك الوقت على أنه لم يكن يكفى وحده لمقاومة تيار قريش ، والدفاع عن أرواح المسلمين وكرامتهم ، فلم يكن بد من سل السيف إلى جانب اللسان حتى يعملوا معاً مجدداً ، فاللسان للهداية والسيف للحماية . وكما كان محمد صلى الله عليه وسلم سياسياً محسناً ، كان إلى جانب ذلك فارساً صنديداً ، غاض غمار الحروب مذ كان يافعاً ، فقد حضر مع قومه في صباه ( حرب الفجار ) و ( حلف الفضول ) ، وكان يهيم فيها النبال لأعمامه . وقد أذن الله له بالقتال في السنة الثانية من هجرته ، بعد أن حرمه عليه ، في نيف وسبعين آية ، فبلغت غزواته سبعا وعشرين ، ووقع القتال منها في تسع ، بخلاف السرايا التي كان يبحث بها قواده ، وعدتها ثمان وأربعون ، ووقعت بدر التي انتصف المسلمون فيها من أعدائهم بالسيف لأول مرة ، يغذوهم الإيمان

العامر ، والعقيدة الراسخة ، وتحفزهم حمية الإسلام لإعلاء كلمة الحق ، والاستشهاد في ميدانه .. ودار بينهما القتال؛ فانتصر المسلمون على قلتهم وهزموا قريشا ، فقتلوا من صناديدها سبعين، منهم أبو جهل الدأعدائه ، وأسروا مثلهم واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا ، وانتهت في ١٧ من رمضان سنة ٥٢ - ٦٢٤ م . ولما عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل فداء بعض الأسرى بالمال ، والبعض ممن يعرف القراءة والكتابة بتعليم عشرة من الأنصار ، ولما بلغ خبر هذه الهزيمة أبا لهب عم النبي وأحد منارثيه مات كذا بعد سبع ليال . وكبر على قريش أن تتلقى تلك الطعنة القاسية ممن كان بينهم بالأمس مضطهدا ضعيفا ، فتحركت في نفوسهم عوامل الحقد والانتقام ، واجتمعوا في ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان ، ومعه زوجته هند وجملة نساء، يضربن الدغوف تحريضا لهم على القتال ، والأخذ بثأر قتلى بدر ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونزل بجوار أحد ، وهو جبل شمال المدينة ، ثم أوقف خمسين رجلا ممن يجيدون الرمي على الجبل وأوصاهم قائلا : إن رأيتمونا نخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمننا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . ثم دار القتال يوم ١١ من شوال سنة ٥٣ - ٦٢٥ م ، وفيه قاتل المسلمون قتالا شديدا ، حتى كاد يتم لهم النصر ، لولا أن طمع الرماة في الغنيمة ، ففارقوا مكانهم ، وجاءت من خلفهم جماعة المشركين بقيادة خالد بن الوليد ، وأوقعت بهم شرايقاع ، وأصابت حجارتهم النبي نفسه حتى وقع وكسرت رباعيته وشج في وجهه ، وكانت عدة قتلى المسلمين سبعين رجلا ، والمشركين اثنين وعشرين ، ثم تحصن المسلمون في الجبل ، وراة قريش أنها أخذت بثأر قتلاها فكفت عن القتال . وفي هذه الغزوة مثلت هند وصاحباتها بالشهداء ، فجذعن الأنوف والآذان ، واتخذن منها قلائد ، وبقرت هند بطن حمزة عم النبي ، ولاكت كبده ولم تسغها .

١٣٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً  
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

١٣١ - وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

١٣٢ - وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

ثلاث آيات كريمة ، فيها دعوة إلى ترك الربا ، ونهى عنه ، وحث على تقوى الله ، وعلى الحذر من عذابه وسعير نار الآخرة ، وفيها حض على طاعة الله والرسول ، وما أروع ما رتب الله عز وجل الفلاح والفوز على هذه الطاعة ، فطاعة الله ورسوله - دون شك - هي سبب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، وهي سبب كل خير يناله الإنسان ، ومصدر كل سعادة يحصلها ، وكل مجد يدركه .

وهذه الآيات تتصل بما قبلها اتصالاً وثيقاً ، وتدخل في الموضوع بسبب ظاهر ، فإنه لما شرح الله عز وجل عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح في أمر الدين والجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً ، وهو جمع ضعف ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدل على ذلك ، وهو الوصف ، بقوله تعالى « مضاعفة ، بأن تزيدوا في المال عند حلول الأجل وتؤخروا الطلب ، والتخصيص بالأضعاف المضاعفة بحسب الواقع ؛ إذ كان الرجل منهم يهرب إلى أجل ثم يزيد في الدين زيادة أخرى ، حتى يستغرق بالشئ الطفيف مال المديون ، وإلا فالربا حرام بلا مضاعفة ، بل هو من الكبائر مطلقاً » واتقوا الله ، بترك ما نهيتهم عنه « لعلمكم تفلحون ، أي تفوزون ، ثم خوفهم الله تعالى فقال : « واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم ، وكان بعض العلماء يقول : هذه أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ، وفي الآية تنبيه على أن النار بالذات للكفار وبالعرض للعصاة » وأطيعوا الله والرسول لعلمكم ترحمون ، أي في الدنيا والآخرة ؛ وكما رتب الله عز وجل الفلاح على طاعة الله ورسوله فيما سبق ، رتب هنا على طاعة الله والرسول الرحمة التي



ينالها المؤمنون من عباده ، دليلا على أن طاعة الله سبب كل خير ، والوسيلة إلى كل مجد يناله الإنسان ؛ وذكر طاعة الله مقرونة بطاعة الرسول ، لأن طاعة الرسول من طاعة الله .

وبذلك ينتهي الربع الثاني من الجزء الرابع من القرآن الكريم ، هذا الربع الذي تضمن التمييز بين طائفتين من أهل الكتاب : طائفة جمعت إلى إيمانها بكتابها ودينها الإيمان بالإسلام ، وطائفة كفرت برسالة محمد واعتزت بما لها وجاهها ووقفت عقبة كاداء في سبيل الإسلام . كما تضمن الإشارة إلى عدم جدوى أموالهم التي ينفقونها في هذه الحياة الدنيا عليهم ، وإلى أنها لا تنفعهم شيئا ، ولا تدفع عنهم عذابا . . ونهى الله عز وجل المسلمين عن اتخاذ بطانة لهم من غير دينهم ، على نحو ما يفعل ملوك العرب اليوم ، من اتخاذ المستشارين الأجانب واصطناعهم ، ووضع مفاتيح النفوذ والسيطرة في أيديهم ؛ وبين الله تبارك وتعالى أن هذه البطانة السوء ، إنما تسعى لهدم الإسلام وتدمير قوة المسلمين ، وأنها تضمر في نفسها الشر والعداء لآمة محمد عليه السلام ، وتفرح بالمحن تصيب المؤمنين ، وتحزن للخير ينالهم ، كما وقع للمشركين الذين طاروا فرحا لهزيمة محمد وأصحابه في أحد ، ناسين هزيمتهم الكبرى في بدر ، التي أعز الله بها الإسلام والمسلمين . . وينهى الله نهيا قاطعا عن الربا والتعامل به ، داعيا إلى تقوى الله وطاعته وامتنال أوامره واجتناب نواهيه .

وآية الربا التي وردت في هذا الربع هي أول آية نزلت في تحريم الربا . والمقصود في الآية هو هذا النوع من الربا الذي كان معروفا في الجاهلية ، وهو ربا النسئة ، وقد أجمع المسلمون على تحريمه . أما ربا الفضل ففي دخوله فيما حرمه القرآن أو عدم دخوله كلام بين العلماء . وللإسلام من تحريم الربا جانب إنساني ، هو خلق التعاون والتعاطف بين الأغنياء والفقراء ، وجانب اقتصادي عملي أساسه تداول المال كيلا يكون دولة بين الأغنياء فحسب ، ولو طبق النظام الاقتصادي الإسلامي في مجتمعنا ، لذهبت حجة القائلين بضرورة الربا في محيطنا الإسلامي وهو ما نأمل ونرجوه .

١٣٣ - وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ  
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ .

١٣٤ - الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ الْغَيْظَ  
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

١٣٥ - وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ  
فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ  
عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

١٣٦ - أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

أربع آيات كريمة ، فيها دعوة إلى المبادرة بطاعة الله وامثال أوامره ،  
وفيه بيان لصفات المتقين ، ولجزائهم الأوفى عند الله في الآخرة .

ولما ذكر الله عز وجل الوعيد أتبعه بالوعد ، ترهيباً عن المخالفة ، وترغيباً  
في الطاعة ، قال محمد بن إسحاق بن يسار : الآية الأولى معانية للذين عصوا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم به يوم أحد ، و « لعل »  
و « عسى » في أمثال ذلك دليل على عزة التوصل إلى ما جعل خبراً لهما ، ومن  
تأمل هذه الآيات وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة ، والتنى على الله . .  
وقوله تعالى « وسارعوا » أي بادروا وأقبلوا .. « إلى مغفرة من ربكم »  
أي إلى ما تستحق به المغفرة ، كالإسلام والتوبة وأداء الفرائض والجهاد والتكبير  
الأولى والأعمال الصالحة ، « وجنة » أي وسارعوا كذلك إلى جنة « عرضها  
السماوات والأرض » أي عرضها كعرضها ، كقوله تعالى « عرضها كعرض  
السماء والأرض » وجمعت السماء وأفردت الأرض لأنها سبع سموات ،  
والأرض نوع واحد ، وذكر العرض للبالغة في وصف الجنة بالسعة لأن

العرض دون الطول ، يقول تعالى : هذه صفة عرضها فكيف طولها ، قال الزهري : وإنما وصف عرضها ، فأما طولها فلا يعمله إلا الله تعالى ، وهذا على سبيل التمثيل ، لا أنها كالسموات والأرض لاغير ، بل معناه كعرض السموات السبع والأرضين السبع عند ظنكم ، كقوله تعالى «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض» ، أى عند ظنكم ، وإلا فهما زائلتان ، وروى أن جماعة من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا كانت الجنة عرضها ذلك فأين تكون النار ، وإذا جاء الليل فأين يكون النهار ، وسئل أنس عن الجنة : فى السماء أم فى الأرض ؟ فقال : وأى أرض وسماء تسع الجنة ، قيل : فأين هى ؟ قال : فوق السموات السبع تحت العرش ، وقال قتادة : كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع ، والنار تحت الأرضين السبع «أعدت» هبئت «للمتقين» أى للذين يتقون الله بفعل الطاعات وترك المعاصى ، وفى ذلك دليل على أن الجنة مخلوقة الآن ، وقيل : إن الجنة والنار مخلقتان بعد قيام الساعة ، ثم وصف الله تعالى المتقين بصفات ، فقال «الذين ينفقون» أى فى طاعة الله وفى السراء والضراء ، أى فى العسر واليسر والأحوال كلها ، لأن الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة ، فأول ما ذكر من أوصافهم الموجبة للجنة : السخاء والجود - ولو بالقليل . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله من العالم البخيل ، والسكاظمين الغيظ ، أى المسكين عليه ، والكافرين عن إرضائه مع القدرة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء . وروى : من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملاً الله قلبه أمنا وإيمانا ، وروى : ليس الشديد بالصرعة ، لكن الذى يملك نفسه عند الغضب . «والعافين عن الناس» أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ينادى مناد يوم القيامة : أين الذين كانت أجورهم على الله ؟ فلا يقوم إلا من عفا . وعن ابن عيينة أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه ،

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن هؤلاء في أمي قليل إلا من عصم الله ،  
وقد كانوا كثيرا في الأمم التي مضت .

وقوله تعالى « والله يحب المحسنين » يجوز أن تكون اللام فيه للجنس  
فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون ، وأن تكون للعهد فتكون  
إشارة إلى هؤلاء ، وقوله تعالى « والذين إذا فعلوا فاحشة ، أي ذنباً قبيحاً  
كالزنا « أو ظلموا أنفسهم ، أي بما دون الزنا كالقبلة ، وقيل الفاحشة ما يتعدى  
إلى الغير ، وظلم النفس ما ليس كذلك « ذكروا الله ، أي ذكروا وعيده أو حكمه  
أو حقه العظيم « فاستغفروا لذنوبهم ، بالندم والتوبة ، واختلف في سبب  
نزول هذه الآية فقال عطاء : نزلت في أبي سعيد التمار ، أته امرأة حسناء تبتاع  
منه تمرأ فقال لها : إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه ، فذهب بها إلى  
بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : اتق الله ، فتركها وندم على ذلك ، ثم أتى  
النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك له ، فنزلت هذه الآية ، وقال مقاتل  
والكلبي : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين ، أحدهما من الأنصار  
والآخر من ثقيف ، فخرج الثقيفي في غزاة واستخلف الأنصاري على أهله ،  
فاشترى لهم اللحم ذات يوم ، فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها  
وقبل يدها ، ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه ، فلما  
رجع الثقيفي لم يستقبله الأنصاري ، فسأل امرأته عن حاله فقالت : لا أكثر الله في  
الإخوان مثله ، ووصفت له الحال ، والأنصاري يسبح في الجبال تائباً مستغفراً ،  
فطلبه الثقيفي حتى وجده فأتى به أبا بكر وجاء أن يجد عنه راحة وفرجا ، وقال  
الأنصاري : هلكت ، وذكر القصة ، فقال أبو بكر : ويحك أما علمت أن  
الله يغار للغازي مالا يغار للقيم ، ثم أتيا عمر ، فقال عمر مثل ذلك ، ثم أتيا النبي  
صلى الله عليه وسلم فقال مثل مقالتهما ، فنزلت هذه الآية .. وقوله تعالى « ومن »  
أي لا أحد « يخفر الذنوب إلا الله » استفهام بمعنى النفي والمراد به وصفه  
سبحانه وتعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد  
بقبول التوبة « ولم يصروا على ما فعلوا ، أي ولم يقيموا على قبيح فعلهم بل

أفعلوا عنه ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة ، وروى : لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ، وقوله تعالى « وهم يعلمون » حال من « يصرّوا » أي ولم يصرّوا على فعلهم عالمين به .

وقوله تعالى « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار » إشارة إلى الفريقين ، وقوله تعالى « خالدن فيها » أي مقدرين الخلود فيها ، إذا دخلوها . هذا ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون . كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم ، فنقول الزمخشري في الكشاف « وفي هذه الآيات بيان قاطع على أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات : متقون وتائبون ومصرون وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين ، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه ، إنما هو جار على طريق الاعتزال من أن مرتكب الكبيرة إذا مات مصرا لا يدخل الجنة ، والصحيح : أن كل من مات على الإسلام يدخل الجنة ، وهو تحت المشيئة ، إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه ؛ وقوله تعالى « ونعم أجر العاملين » أي ونعم أجر العاملين ذلك ، أي المغفرة والجنات ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما من عبد مؤمن أذنب ذنبا فيحسن الطهور ، ثم يقوم فيصلي ، ثم يستغفر الله إلا غفر له ، وروى : أي عبد أذنب ذنبا فقال : يارب أذنبت ذنبا فاغفر لي فقال ربه : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بها فغفر له ، فمكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبا آخر فقال : يارب أذنبت ذنبا آخر فاغفر لي ، قال ربه : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ به قد غفرت له ، فليعمل ما شاء أي ويستغفر فأغفر له ، وروى أنه تبارك وتعالى قال : يا ابن آدم ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ، ابن آدم إنك إن تلتقي بملء الأرض خطايا لقيتك بملئها مغفرة بعد أن لا تشرك بي شيئا ، وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل ، كيف أجود برحمتي على من يخل بطاعتي . وعن بعض الزهاد : طلب الجنة بلا

عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور. وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة : جوزوا الصراط بعفوى، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم .

١٣٧ - قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا  
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

١٣٨ - هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

١٣٩ - وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

١٤٠ - إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ  
الْأَيَّامُ نُدَّوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

١٤١ - وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ .

١٤٢ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا  
مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ .

ست آيات كريمة تضمنت ما تضمنت من وجوب الاعتبار بمصائر الأمم السالفة ، وبنهاية الكافرين والمكذبين ، ومن التنويه بالقرآن الكريم وإرشاده ، ومن تسلية الرسول والمسلمين ، وتخفيف آلامهم من أثر الهزيمة في أحد ، وبيان أثر هذه الهزيمة في تمحيص المؤمنين .

ومعنى قوله تعالى « قد خلت » أى مضت . « من قبلكم سنن » هى جمع سنة ، وهى الطريقة التى يكون عليها الإنسان ويلازمها ، ومنه سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أى قد مضت من قبلكم طريق فى الكفار بإمها لكم ، ثم أخذهم بالعذاب الشديد . « فسيروا » أى أيها المؤمنون . « فى الأرض

فانظروا كيف كان عاقبة ، أى آخر أمر ، المكذبين ، أى للرسول من الهلاك ،  
فلا تحزنوا لغلبيهم ، فإنما تمهلهم لوقتهم . .

وقوله تعالى « هذا ، أى القرآن الكريم » بيان للناس ، أى عامة ، وهدى ،  
أى من الضلالة ، وموعظة للمتقين ، أى خاصة ، ولا تنهوا ، أى تضعفوا  
عن قتال الكفار بما نالكم من القتل والجرح في يوم أحد . . ولا تحزنوا ، أى  
على ما أصابكم ، وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم : حمزة بن  
عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وقتل من الأنصار سبعون رجلاً : « وأتم  
الأعلون ، أى وحالكم أنكم أعلى شأناً منهم ، فإنكم على الحق وقتالكم لله  
وقتلكم في الجنة ، وأنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلهم في النار ، أولئك  
أصبتهم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم ، أو هي بشارة لهم بالعلو  
والغلبة ، أى وأتم الأعلون في العاقبة » وإن جندنا لهم الغالبون . .

وقوله تعالى « إن كنتم مؤمنين ، متعلق بالنهي بمعنى لا تنهوا إن صح  
إيمانكم ، على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بالله وقلة المبالاة بأعدائه  
أو متعلق بالأعلون ، أى إن كنتم مضدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة  
« إن يمسسكم قرح ، أى جهد من جرح ونحوه يوم أحد » فقد مس القوم ،  
أى الكفار ، قرح مثله ، يوم بدر ، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا ، فأنتم أولى  
أن لا تضعفوا ، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، وقيل : بل مسهم قرح  
مثله يوم أحد ، فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ، وتلك الأيام ، الأيام تطلق على الزمن المخصوص ، وتطلق على  
المغارك والحروب ، نداؤها ، أى لهذا يوم ولهذا يوم ، والصحيح أن المراد  
بالأيام أوقات الظفر والغلبة أى نصرها ، بين الناس ، قال البغوي : فيوماً عليهم  
ويوماً لهم ، فكان النصر للمسلمين على المشركين يوم بدر ، حتى قتلوا منهم  
سبعين وأسروا سبعين ، وأدبل تارة للكافرين على المسلمين وهو يوم أحد ، حتى  
جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم  
جعل عبد الله بن جبير على الرجالة يوم أحد ، وكانوا خمسين رجلاً . فقال : إن

وأيتمونا هزمتنا القوم وأوطانهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، فهزموهم ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة فما تنتظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : والله لنائين فلنصيب من الغنيمة ، فكر عليهم المشركون ، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا اثني عشر رجلا وأصاب المشركون منهم سبعين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر كثيرا من الأسرى وسبعين قتيلًا ؛ فقال أبو سفيان : أفي القوم محمد ؟ ثلاث مرات - فهام النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيئه ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ ثلاث مرات - ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثلاث مرات - ثم رجع إلى أصحابه وهو يقول : أما هؤلاء فقد قتلوا ، فما ملك عمر نفسه فقال : كذبت والله يا عدو الله ، إن الذين عدت لأحياء كلهم ، وقد بقي لك ما يسرك ، قال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، ثم أخذ يرتجز : اعل هبل اعل هبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تجيئوه ؟ فقالوا يا رسول الله ما نقول ؟ قال قولوا : الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تجيئوه ؟ قالوا يا رسول الله ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ، وفي حديث ابن عباس قال أبو سفيان : يوم بيوم ، وإن الأيام دول والحروب سجال ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه : لا سواء ، قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار ، وإنما كانت الدولة يوم أحد للكفار على المسلمين ، لمخالفتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعلم الله الذين آمنوا ، أي أخلصوا إيمانهم من غيرهم ، وظاهر هذه الآية أن الله تعالى إنما فعل تلك المداولة ليكتب هذا العلم ، وذلك في حقه تعالى محال ، ونظير هذا الإشكال قوله تعالى : « أم حبستم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، » وقوله تعالى : « ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ، » وقوله « لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا ، » وقوله « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ، » وقوله : « إلا لنعلم من يتبع الرسول ، » وقوله « ليلوكم أيكم أحسن عملا ، »



فظاهر هذه الآيات تدل على أنه تعالى إنما صار عالما بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها ، وأجاب المتكلمون عنه ، بأن الدلائل العقلية دلت على أنه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها؛ فثبت أن التغيير في العلم محال ، إلا أن إطلاق العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور ، يقال : هذا علم فلان ، والمراد معلومه ، وهذه قدرة فلان ، والمراد مقدوره فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم فالمراد بتجدد المعلوم ، وإذا عرف هذا فهذه الآية محتمة لوجوه : أحدها ليظهر المخلص من المنافق والمؤمن من الكافر، وثانيها : ليعلم أولياء الله ، وأضاف العلم إلى نفسه تفخيما ، وثالثها : ليحكم بالامتياز ، فأوقع العلم مكان الحكم بالامتياز ، لأن الحكم لا يحصل إلا بعد العلم ، ورابعها : ليعلم ذلك واقعا كما كان يعلم ما سيقع ، ويتخذ منكم شهداء ، أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم المستشهدون يوم أحد ، أوليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الإسم يوم القيامة بما وجد منهم من الثبات والصبر على الشدائد ، كما قال تعالى : لتكونوا شهداء على الناس ، وقوله تعالى : والله لا يحب الظالمين ، قال ابن عباس : أى المشركين ، كقوله تعالى : إن الشرك لظلم عظيم ، وفيه تنيبه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة ، وإنما ينصرهم أحيانا استدراجا لهم وابتلاء للمؤمنين ، وليحص الله الذين آمنوا ، أى يطهرهم من الذنوب بما أصابهم ، ويحق ، أى يهلك الكافرين ، أى إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك ، مما هو أصلح لهم ؛ وإن كانت على الكافرين فلهحقهم ومحو آثارهم .

« أم حسبتم ، أى بل أحسبتم ، وأم مقدره ببل ومعنى الههزة الدلالة على الإنكار . . . » أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، أى فى الشدائد والمحن والخطوب . والمعنى أن الجنة لا تنال إلا بالتضحيات ، وبعد امتحان عسير مرير ، وبعد تقديم العمل الذى يوصل إليها من الجهاد والصبر والتضحية والاستشهاد فى سبيل الله والحق ومثل الحياة الرفيعة ؛ ومن مثل الجهاد الرفيعة فى أحد استشهاد حمزة رضى الله تعالى عنه ،

وقد ورد عن عبيد الله بن عدي أنه قال لو حشى: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار بيد، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعى فأنت حر، فلما أن خرج الناس خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ قال: نخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: ياسباع يا ابن أم أنمار، أتحد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم شد عليه، فكان كأمس الذاهب، قال وكنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحررتي فأضعها في ثنته حتى خرجت من بين وركيه، فكان ذلك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقتت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل، قال: نخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأيته قال: أأنت وحشى؟ قلت نعم، قال أنت قتلت حمزة؟ قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك، قال: فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟ قال: نخرجت، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، نخرج مسيلة الكذاب، فقلت: لأخرجن إلى مسيلة لعل أقتله فأكفي به حمزة، قال: نخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، فإذا رجل قائم في ثلثة جدار كأنه جمل أورق نائر الرأس، فرمته بحررتي، فأضعها بين ثديه حتى خرجت من بين كتفيه، قال ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

١٤٣ - وَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ

وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

١٤٤ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ

مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى

عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ .

١٤٥ - وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلاً وَمَنْ

يُرِدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ  
نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ

١٤٦ - وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا  
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الصَّابِرِينَ

١٤٧ - وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا  
وَأَسْرَفَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ  
الْكَافِرِينَ .

١٤٨ - فَثَابَتَهُمْ اللَّهُ وَثَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ  
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

ست آيات بليغة ، فيها عزاء لصحابة رسول الله ، من أجل هزيمتهم في  
أحد ، وفيها تقرير الاستهانة الموت ، وفيها الحث على الصلابة والقوة وشدة  
العزيمة ، ونفي الضعف والاستكانة والوهن ، وعلى الصبر وتعود الكفاح واللجوء  
إلى الله في الشدائد ، وفيها بيان للثواب العظيم في الدنيا والآخرة لمثل هؤلاء  
الصابرين الصامدين المساكين .

وفي هذه الآيات حكم جليلة منها : قوله تعالى : وسيجزي الله الشاكرين .  
والله يحب الصابرين والله يحب المحسنين . وفي شرح كل حكمة من هذه الحكم  
الثلاث وبيان مغزاها ، ما يأخذ الكثير من الوقت دون الوصول إلى تجلية  
هذا الإعجاز ، وهذا السحر مع هذا الإيجاز .

وهذه الآيات تنمة لحديث الآيات الثلاث السابقة : « إن يمسسكم ، حتى  
قوله تعالى « ويعلم الصابرين » وما أقرب روح هذه الآيات من قوله تعالى في  
سورة البقرة ، في تثبيت وتشجيع رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتشجيع المؤمنين

على الثبات والصبر بإزاء الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، عند ما أنكروا آياته وعادوه ، فقد خاطبه وخاطب المسلمين بقوله تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » .

وقد تطابق المفسرون على أن المعنى أنهم « بلغ منهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك ، وأضاف المفسرون بيانهم بأن معناه طلب النصر وتمنيه واستطالة زمان الشدة، ثم قالوا: وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم ، لأن الرسل لا يقادرون ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم؛ فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجروا، كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها .»  
واقراء قوله تعالى في سورة يوسف : « حتى إذا استياس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، ومعلوم أن اليأس لا يكون إلا بعد انعدام الأمل ، ولذلك قال علماء الدين في تفسير هذه الآية الكريمة : إن انتظار النصر من الله وتأمله قد تطاولت عليهم مدته وتمادت حتى استشعروا القنوط . ولا قنوط إلا بعد فوات الأمر المرجو أو الظن بمجرد فواته .»

قوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون ، أي تتمنون الموت ، أي الحرب ؛ فإنها من أسباب الموت أو الموت بالاستشهاد في سبيل الله ، والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا ، لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة ، فألحوا يوم أحد على الخروج ، من قبل أن تلقوه ، أي تشاهدوه وتعرفوا شدته ، فقد رأيتموه ، أي الحرب أو الموت حين قتل دوكم من قتل من إخوانكم ، وأنتم تنظرون ، أي تتأملون الحال كيف هي ، فكيف انهزمتم .. » وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، فسيخلو كما خلت الرسل بالموت أو القتل ، ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد لأن الحمد لا يستوجبها إلا الكامل ، فالتحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلا المستولى على الأمر في الكمال ، وقد أكرم الله تعالى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جل وعلا ، هما : محمد وأحمد .

وقوله تعالى : أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، إنكار لارتدادهم  
وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل ،  
بعد علمهم بخلو الرسل ، قيل : وبقاء دينهم متمسكا به ؛ فإن قيل : قوله تعالى فإن  
مات أو قتل ، شك وهو على الله محال ، فالجواب أن المراد أنه سواء وقع هذا  
أو ذلك فلا تأثير له في ضعف الدين ووجود الارتداد ، قال ابن عباس  
وأصحاب المغازي : لما رأى خالد بن الوليد الرماة يوم أحد اشتغلوا بالغنيمة  
ورأى ظهورهم خالية ، صاح في خيله من المشركين ، ثم حمل على أصحاب النبي  
صلى الله عليه وسلم من خلفهم فهزمهم وقتلوهم ، ورمى عبد الله بن قيسة رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بحجر ، فكسر أنفه ورباعيته وشججه في وجهه فأثقله وتفرق  
عنه أصحابه ، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة ليعلوها ، وكان قد  
ظاهر بين درعين فلم يستطع ، فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى عليها ، فقال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجب طلحة . ووقعت هند والنسوة معها يمثلن  
بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحد عن الأذان والأنوف ،  
حتى اتخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشياً ، وبقرت هند كبد حمزة فلاكتها  
فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، وأقبل عبد الله بن قيسة يريد قتل النبي صلى الله  
عليه وسلم فذبح عنه مصعب بن عمير ، وهو صاحب راية النبي صلى الله عليه  
وسلم ، فقتله ابن قيسة وهو يرى أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع وقال :  
إني قتلت محمدا وصاح صارخ : ألا إن محمدا قد قتل ، فانكف الناس ، وجعل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلى عباد الله إلى عباد الله ، فاجتمع  
إليه ثلاثون رجلا فخموه حتى كشفوا عنه المشركين ، ورمى سعد بن أبي وقاص  
وثقل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانة فقال : ارم فداك أبي وأمي ،  
وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا ، فكان  
الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول : انثرها لأبي طلحة ، وكان إذا رمى شرف  
النبي صلى الله عليه وسلم فينظر إلى موضع نبله ، وأصابت يد طلحة بن عبد الله  
فيبست - وقي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصابت عين قتادة بن النعمان

يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانها فعادت أحسن مما كانت ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول : لا نجوت ، لا نجوت ؛ فقال القوم : يا رسول الله ألا نعطف عليه رميا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه حتى إذا دنا منه - وكان أبي قبل ذلك يلتقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : عندي فرس أعلفها كل يوم أقتلك عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله - فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصامت ثم استقبله فطعنه في عنقه وخذشه خدشه ، فخر عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ، وهو يقول : قتلتني محمد ؛ واحتمله أصحابه وقالوا : ليس عليك بأس قال : بلى لو كانت هذه الطعنة بريعة ومضرت لقتلتهم ، أليس قال لي : أقتلك ، فلو بصق على بعد تلك المقالة لقتلني فلم يلبث إلا يوماً حتى مات بموضع يقال له «سرف» . قال ابن عباس : اشتد غضب الله على من قتله نبي . واشتد غضب الله على من رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وفشا في الناس أن محمداً قد قتل ، قال بعض المسلمين : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي فياخذ لنا أماناً من أبي سفيان ؛ وبعض الصحابة جلسوا والقوم بأيديهم ، وقال أناس من أهل النفاق : إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول . قال أنس بن مالك ياقوم : إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون في الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك بما يقول هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك ممن جاء به هؤلاء - يعني المسلمين - ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس ، فأول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم كعب بن مالك . وقال : عرفت عينيه تحت المغفر يزهران ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إلي : أن أمسك ، فأنحازت إليه طائفة من أصحابه ، فلامهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم على الفرار فقالوا: يا نبي الله فدينك بأبائنا وأمهاتنا ، أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرغت قلوبنا ، فولينا مدبرين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فلن قيل : إنه تعالى بين في آيات كثيرة أنه عليه الصلاة والسلام لا يقتل قال : « إنك ميت وإنهم ميتون » وقال « والله يعصمك من الناس » وقال : « ليظهره على الدين كله » وإذا علم أنه لا يقتل فلم قال أو قتل ؟ فالجواب أن هذا ورد على سبيل الإلزام ، فإن موسى عليه السلام مات ولم ترجع أمته عن دينه ، والنصارى زعموا أن عيسى عليه السلام قتل ولم يرجعوا عن دينه ، فكذا ما هنا « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وارجعوا » وإنما يضر نفسه « وسيجزى الله الشاكرين » على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » أي بقضائه ومشيئته ، أو بإذنه لملك الموت في قبض روحه ، وقوله تعالى « كتابا » مصدر أي كتب الله ذلك « مؤجلا » أي مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر فلم انهزمتتم ، والهزيمة لا تدفع الموت والثبات لا يقطع الحياة ؟ ونزل في الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة « ومن يرد » أي يعمل لأجل « ثواب الدنيا ثوته منها » ما نشاء بما قدرناه له ، كما قال تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » ، ونزلت كذلك في الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا « ومن يرد » أي بعمله « ثواب الآخرة ثوته منها » أي من ثوابها « وسنجزي الشاكرين » أي الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب له . وقال صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه . . وقوله تعالى « وكأين » أصله « أي » دخلت الكاف عليها فصارت مركبة من كاف التشبيه ومن أي ، وجد فيها بعد التركيب معنى التكثير .

وقوله تعالى « من نبي » تمييز لسكانين لأنها مثل كم الخبرية ، وقوله تعالى « قاتل » بفتح القاف وقرىء بضمها ، وقوله تعالى « معه ربيون » هو هو جمع ربي وهو العالم المتقى ، منسوب إلى الرب ، وإنما كسرت راؤه تغييرا في النسب ، وقيل : لا تغيير فيه وهو منسوب إلى الربة وهي الجماعة للبالغه ، وقوله تعالى « كثير » هو وصف مفرد لأن معناه جمع « فإلهونوا » أي جبنوا ولما أصابهم في سبيل الله ، من الجراح ، وقيل : أنبيائهم وأصحابهم « وما ضعفوا » عن الجهاد « وما استكانوا » أي خضعوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل : قتل نبيكم « والله يحب الصابرين » على الشدائد ، فيثيبهم ويعظم أجرهم « وما كان قولهم » عند قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم وكونهم ربانيين « إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا ، أي تجاوزنا الحد ، « في أمرنا ، بأن ما أصابهم لسوء فعلهم وهضما لأنفسهم » وثبت أقدامنا ، أي بالقوة على الجهاد « وانصرنا على القوم الكافرين » أي فهلا قاتم وفعلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم « فآتاهم الله ثواب الدنيا ، أي بالنصر والغنيمة والعز وحسن الذكر « وحسن ثواب الآخرة ، أي بالجنة والنعيم المقيم ، وخص ثوابها بالحسن إشعارا بفضله ، وإنه لمعتد به عند الله « والله يحب المحسنين » أي فيكثر لهم الثواب .

١٤٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

١٥٠ - بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

١٥١ - سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مِمَّا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ .

١٥٢ - وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا

فَشَلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ

مِمَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ



ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو  
فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

هذه الآيات الشريفة الأربعة تمثل نتائج معركة أحد تمام التمثيل ، وتمثل محاولات الكافرين والمنافقين لزعة المسلمين وزلزلة أقدامهم ، وبعث الخوف والهلوع في نفوسهم ، وتمثل هذه التصورات الفاسدة التي كان يحاول الكافرون إلقاءها في قلوب المسلمين ، من حثهم على العودة إلى دين الشرك والوثنية ، ومن مثل التشكيك في أن محمداً رسول من عند الله ، ومن مثل بعث اليأس في قلوب المسلمين ، وسوى ذلك كله .

وتمثل كذلك فضل الله على المسلمين ، ودفاعه عن الإسلام ، ورعايته لهذا الدين القويم ، وصرفه المشركين عن تطويق المدينة والقضاء على مقر الرسالة المحمدية وعاصمة الإسلام .

وقد نزلت هذه الآيات في سياق الكلام عن غزوة أحد ، وكان المشركون وعلى رأسهم أبو سفيان ، والمنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي وأتباعهما ، قد جعلوا يثنون فتنتهم في ضعاف الإيمان ويقولون لهم : لو كان محمد رسولا من الله ما وقعت له هذه الواقعة ، وإنما هو رجل كسائر الناس ، يوماً له ويوما عليه ، فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه . . والكلام شامل لجميع المؤمنين المخاطبين ، ولجميع الكفار الذين ينهى الله عز وجل عن طاعتهم . . وقد تضمنت هذه الآيات :

١ - نهى الله المؤمنين عن طاعة الكافرين ، لأن طاعتهم انقلاب على الأعقاب ، وخسران في الدنيا والآخرة . وهذه حقيقة لا بد أن يذكرها المسلمون اليوم ، وأن يعوها وعياً كاملاً ، وهي خير تذكير لرؤساء المسلمين الذين يلقون بأنفسهم في أحضان الاستعمار والمستعمرين ، ويسلمون للأمم الاستعمارية مقاليد شعوب الإسلام عن طريق الأحلاف والمعاهدات أو شركات الاحتكار الاستعمارية ، أو عن طريق استئجار القواعد الحربية في بلاد المسلمين ، أو غير ذلك من الوسائل .

٢ - تقرير ولاية الله للمؤمنين، وكفالاته إياهم بالنصر وهو خير الناصرين،  
وهنا نقول: إنه يجب أن نكون مؤمنين حقا وصدقًا، حتى يكون الله مولانا  
وينزل نصره علينا .

٣ - وعد الله تعالى بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين بسبب إشرائهم .  
قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ، أي اليهود  
والنصارى فيما يأمرونكم به . وقال على : يعنى المنافقين في قولهم للمؤمنين عند  
الهمزة : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم ، ولو كان محمد نبيا ما هزم .  
يردوكم على أعقابكم ، أى يرجعوكم إلى الكفر بعد الإيمان ، وإلى الضلال  
بعد الهدى ، وإلى الشر بعد الخير .. « فتقلبوا خاسرين ، أى للدنيا والآخرة ،  
أما خسران الدنيا فلأن أشق الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد إلى العدو  
وإظهار الحاجة إليه ، وأما خسران الآخرة فالحرمان من الثواب المؤبد ،  
والوقوع في العقاب المخلد الدائم إلى ما شاء الله .

« بل الله مولاكم ، أى ناصركم وحافظكم على دينكم ، وهو ولى نعمتكم  
لا هؤلاء الكافرون والمنافقون .. « وهو خير الناصرين ، فاستغنوا به عن  
ولاية غيره ونصره ، فهو الذى يثيب المجاهدين على جهادهم ، ويجزى الصابرين  
على صبرهم ، ويعطى الشاكرين أجر شكرهم .

« منلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، أى الخوف ، وذلك أن الكفار  
لما هزموا المؤمنين فى أحد ، أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوا ميدان المعركة  
وفروا منهم من غير سبب ، وإلا لاقتحموا المدينة ودمروها وأزالوا كل أثر  
للإسلام .. يروى أن أباسفيان صعد الجبل ونادى : يا محمد موعدنا  
موسم بدر لعام قابل إن شئت ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن شاء  
الله ، وقيل : إنهم لما ذهبوا متوجهين إلى مكة ، فلما كانوا فى بعض الطريق ندموا  
وقالوا : ما منعنا شيئا ، قتلنا أكثرهم ولم نبق منهم إلا الشريد ، وتركناهم ، ارجعوا  
حتى نستأصلهم بالكلية ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم « بما  
أشركوا ، أى بسبب إشرائهم « بالله ما لم ينزل به سلطانا ، أى حجة على عبادته

وهو الأصنام ، أى لا ليس لهم حجة أصلاً ، وأصل السلطنة القوة ، وما واهم النار وبئس مثوى ، أى ماوى الظالمين ، أى الكافرين هى ، واقد صدقكم الله وعده ، قال محمد بن كعب القرظى : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة من أحد ، وقد أصابهم ما أصابهم ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا؟ هذا وقد وعدنا الله النصر ، فأنزل الله هذه الآية . لأن النصر كان للمسلمين فى الابتداء ، كما قال تعالى : إذ تحسونهم ، أى تقتلونهم من (حسه) إذا بطل حسه . يا ذنه ، أى يارادته ، حتى إذا فشلتم ، أى جبتم على القتال ، وتنازعتم ، أى اختلفتم ، فى الأمر ، أى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمقام فى سفح الجبل للرمى حين انهزم المشركون ، فقال بعضهم : نذهب فقد نصر أصحابنا ، وقال آخرون : لا تخالفوا أمر النبي فاتبتوا مكانكم ، فثبت عبد الله بن جبير أمير الرماة فى نفر دون العشرة ، ونفر الباقرى للنهب ، وهو المعنى بقوله : وعصيتم ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتركتم المركز لطلب الغنيمة ، من بعد ما أراكم ، أى الله : ماتحبون ، من الظفر والغنيمة وانهمزام العدو ، أى منعكم نصره حين ذلك ، ويجوز أن يكون المعنى : صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة ، وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا مكانهم ولا يبرحوا ، سواء كانت الدولة للمسلمين أو عليهم ، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقرى يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا ، والمسلمون على آثارهم ، ثم اشتغل بعضهم بالغنيمة كما قال تعالى : منكم من يريد الدنيا ، وهم التاركون المركز للغنيمة ، ومنكم من يريد الآخرة ، وهم الثابتون مع عبد الله بن جبير حتى قتلوا ، وقوله تعالى : ثم صرفكم ، أى ردكم بالهزيمة عنهم ، أى الكفار . عطف على ما قبله ، وقوله تعالى : ليبتليكم ، أى ليبتحنكم فيظهر المخلص من غيره ، واقد عفا عنكم ، أى ما ارتكبتموه من مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وميلكم إلى الغنيمة تفضلاً منه تعالى . . . وظاهر الآية يدل على أن هذا الذنب الذى ارتكبه الصحابة من الصغائر لصحة العفو عنه من غير توبة ، لقيام الدليل على أن أصحاب الكبار إذا لم يتوبوا لم يكونوا

من أهل العفو والمغفرة من الله ، ولكن بما لاشك فيه أن مخالفة صريح نص رسول الله صلوات الله عليه من كبار الذنوب ، وخاصة لما ترتب على هذه المخالفة من نتائج خطيرة ومن هزيمة شاملة ؛ فلا بد إذن أن يكون هؤلاء الذين قد كانوا سبياً في الهزيمة قد أعلنوا التوبة أو أضرروها . والله ذو فضل على المؤمنين ، أى يتفضل عليهم بالعفو ، أو ذو فضل عليهم في جميع الأحوال ، سواء كانت الدولة لهم أم عليهم ، إذ أن الابتلاء رحمة من الله ..

ولى هنا ينهى الربع الثالث من هذا الجزء ؛ وقد اشتمل على صفات المتقين وبيان جزائهم عند الله ، كما اشتمل على ضرورة اتعاظ المسلمين بالشعوب التى سبقتهم ، وبمصارع الأمم الكافرة التى مضت ، وفيه تمجيد للقرآن الكريم وتقوية بهدايته للناس عامة ، وللمتقين منهم خاصة . واشتمل هذا الربع بعد ذلك على ذكر هزيمة المسلمين فى أحد ، وعلى تسلية الرسول وأصحابه فيما أصابهم . وتثبيت قلوبهم ، وتقوية صفوفهم ، وإبعاد وساوس الشيطان والكافرين عنهم ؛ وعلى بيان عفو الله عز وجل عنهم بسبب مخالفتهم لأمر نبيهم وهذا الربع الثالث حافل بالعظات البليغة ، والحكم الرائعة ، والتوجيهات الصائبة الحكيمة .

١٥٣ - إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ فَأَنْتُمْ كَافِرَةٌ بَعْدَ مَا نَبَّأَكُم بِمَا فَعَلَ اللَّهُ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

١٥٤ - ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَّاعِسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّا الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ

كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ أَبْرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى  
مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي  
قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

١٥٥ - إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ  
الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ  
غَفُورٌ حَلِيمٌ .

١٥٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا  
لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ  
كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي  
قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

١٥٧ - وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً  
خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

١٥٨ - وَلَئِن مُّتِمْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

سنت آيات كريمة ، تحتوي على تصوير هزيمة المسلمين في أحد وأسبابها ،  
وعلى الحث على ترك الأمور كلها لله ، وسواء مات الإنسان في غير معركة ،  
أو قتل في المعركة ، فإن الجميع آجالهم وأعمارهم وجزاؤهم بيد الله ، ومصيرهم  
كذلك إلى الله الذي إليه يحشرون .

قوله تعالى : إذ ، أي اذكروا إذ تصعدون ، أي تبعدون في الأرض  
هاربين ، ولا تلوون ، أي تعرجون ، على أحد ، أي لا يقف أحد لأحد أي  
لا ينتظره ، والرسول يدعوكم ، أي يقول : إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، أنا  
رسول الله ، من يكره الجنة ، في أخراكم ، أي من ورائكم ، فإنا بكم ، أي

جازاكم ، غما ، بالهزيمة ، بغم ، أى بسبب غمكم الرسول بالمخالفة ، وقيل : الباء  
بمعنى على ، أى مضاعفا على غم فوت الغنيمة . والغم : الحزن ، وكانت الأحزان  
هناك ، كثيرة أحدها : غمهم بما نالهم من العدو فى الأفس والاموال ، وثانيها :  
غمهم بما وقع منهم من المعصية وخوف عقابها ، وثالثها : غمهم بما وصل إلى  
الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورابعها : غمهم بسبب التوبة التى صارت واجبة  
عليهم ، لأنهم إذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم إلا بترك الهزيمة والعود  
إلى المحاربة بعد الانهزام ، وذلك من أثبت الأشياء ، لأن الإنسان بعد انهزامه  
يضعف قلبه ويجبن ، فإذا أمر بالعودة : فإن فعل خاف القتل ، وإن لم يفعل  
خاف عقاب الآخرة ، وخامسها : غمهم حين سمعوا أن محمدا قد قتل ، وسادسها :  
غمهم حين أشرف عليهم أبو سفيان ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة ، فلما رأوه وضع  
رجل سهما فى قوسه وأراد أن يرميه ، فقال : أنا رسول الله ففرحوا حين وجدوه ،  
وفرح صلى الله عليه وسلم حين رأى من يمتنع به ، فأقبلوا على المشركين يذكرون  
الفتح وما فاتهم منه ، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا ، فأقبل أبو سفيان وأصحابه  
حتى وقفوا بباب الشعب ، فلما نظر المسلمون إليهم همهم ذلك ، وظنوا أنهم يميلون  
عليهم فيقتلونهم ، فأنساهم هذا ما نالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
ليس لهم أن يعلمونا ، اللهم إن تقتل هذه العصابة لاتعبد فى الأرض ، ثم بدت  
أصحابهم فرموهم بالحجارة حين أنزلوهم ، وإذا عرفت ذلك فلا يضر  
اختلاف المفسرين .

وقال القفال : وعندى أن الله تعالى ما أراد بقوله « غما بغم ، اثنين ، وإنما  
أراد مواصلة الغموم والأحزان ، أى إن الله عاقبكم بغموم كثيرة ، مثل قتل  
إخوانكم وأقاربكم ، ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم بحيث لم تأمنوا أن  
يهلك أكثركم ، فكانه تعالى قال : أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ليصير ذلك زاجرا  
لكم عن الإقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى .  
وقوله تعالى « لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، أى من الغنيمة » ولما أصابكم ،

أى من القتل والهزيمة « والله تخيير بما تعملون ، أى عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها ، ثم أنزل عليكم ، يا معشر المسلمين « من بعد النعم أمتة ، أى أمتنا ، والأمن والأمانة بمعنى واحد ، وقيل : الأمن يكون مع زوال سبب الخوف والأمانة مع بقاء سبب الخوف ، وكان سبب الخوف هاهنا قائما . وقوله تعالى « نعاسا ، بدل من « أمتة » ، « يغشى طائفة منكم ، وهم المؤمنون ، وطائفة ، وهم المنافقون » قد أهمتهم أنفسهم ، أى حملتهم على الهزيمة ، فلا رغبة لهم إلا إنجاؤها دون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يناموا ، فإن الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فريقان : أحدهما الجازمون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهؤلاء كانوا قاطعين بأن الله ينصر هذا الدين ، وأن هذه الواقعة لا تؤدي إلى الاستئصال ، فلا جرم كانوا آمنين ، وبلغ ذلك الأمن إلى حين غشيم النعاس ، فإن النوم لا يجيء مع الخوف ، قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه ، وقال ثابت عن أبي طلحة قال : رفعت رأسي يوم أحد فجعلت ما أرى أحدا من القوم إلا ويميل من النعاس ، قال الزبير : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف ، فأرسل الله علينا النوم ، والله إنى لأسمع قول مغيث ابن قشير والنعاس يفشاني ما أسمع إلا كالحلم ، يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ؟ والفريق الثانى هم المنافقون ، كانوا شاكين في نبوته صلى الله عليه وسلم ، وما حضروا إلا لطلب الغنيمة ، فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم ، قال ابن مسعود : النعاس فى القتال أمتة ، والنعاس فى الصلاة من الشيطان ، وذلك لأنه فى القتال لا يكون إلا من الوثوق بالله والفراغ من الدنيا ، ولا يكون فى الصلاة إلا من غاية البعد من الله ، فإن قيل : ما فائدة هذا النعاس ، فالجواب أن له فوائد ، الأولى : أن السهر يوجب الضعف والكلال ، والنوم يفيد عود القوة والنشاط ، والثانية أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله تعالى النوم على الباقين لئلا يشاهدوا قتل غيرهم فيشتد خوفهم ، والثالثة : أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم فى النوم مع السلامة

في تلك المعركة من أدل الدلائل على أن الله تعالى يحفظهم ويعصمهم ، وذلك بما  
ينزل الخوف من قلوبهم ويورث الأمن .  
وقوله تعالى « يظنون بالله غير الحق ، أي أن لا ينصر الله محمدا ، أي  
يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به ، أي كظن الجاهلية ،  
حيث اعتقدوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل أولا ينصر ، وقوله تعالى :  
« يقولون ، أي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لنا ، أي ما لنا ، استفهام  
ومعناه الإنكار « من الأمر ، أي النصر الذي وعدناه « من شيء ، أي شيء « (من)  
صلة زيدت للتأكيد ، وقيل : إن عبد الله بن أبي لما شاوره النبي صلى الله عليه  
وسلم في هذه الواقعة أشار إليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن بعض الصحابة  
ألحوا على النبي صلى الله عليه وسلم في أن يخرج إليهم ، فغضب ابن أبي من ذلك  
فقال : عصاني وأطاع الولدان ، ثم لما كثرت القتل في بني الخزرج ورجع ابن أبي  
قيل له : قتل بنو الخزرج فقال : هل لنا من الأمر من شيء ؟ يعني إن محمدا لم يقبل  
قولي حين أشرت بأن لا يخرج من المدينة ، والمعنى : هل لنا أمر يطاع ؟ فهو استفهام  
على سبيل الإنكار ، قل ، لهم يا محمد « إن الأمر كله لله ، أي الغلبة الحقيقية لله  
ولأوليائه ، فإن حزب الله هم المفلحون ، والقضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .  
وهذه الآية تدل على أن جميع المحدثات خلقها الله تعالى بقضائه وقدره ، لأن  
المنافقين قالوا : لو أن محمدا قبل منا رأيا ونصحا لما وقع في هذه المحنة ، فأجابهم الله  
تعالى بأن الأمر كله لله ، وهذا إنما ينتظم إذا كانت أفعال العباد بقضائه وقدره ،  
إذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب رافعا لشبهة المنافقين ، وقوله  
تعالى « يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، أي يظهرون ، أي يقولون مظهرين  
أنهم مسترشدون طالبون النصر ، مبطنين الإنكار والتكذيب ، وقوله تعالى  
« يقولون ، بيان لما قبله « لو كان لنا من الأمر شيء ، أي كما وعد محمد وزعيم  
أن الأمر كله لله ولأوليائه ، أو لو كان الاختيار إلينا لم نخرج ، كما كان رأى ابن  
أبي وغيره « ما قتلنا هاهنا ، أي لما غلبنا ، ولما قتل من قتل منا في هذه المعركة  
« قل ، لهم « لو كنتم في بيوتكم ، وفيكم من كتب الله عليه القتل « لبرز »



أى خرج ، الذين كتب ، أى قضى ، عليهم القتل ، منكم ، إلى مضاجعهم ، أى  
مصارعهم فقتلوا ولم ينجهم قعودهم ، لأن قضاءه تعالى كائن لا محالة ، فإنه قدر  
الأمور ودبرها في سابق قضاائه ، لا معقب لحكمه ، وقوله تعالى ، وليبتلي ، أى  
ليختبر ، الله ما في صدوركم ، أى قلوبكم من الإخلاص والنفاق ، وهذا علة  
لفعل محذوف تقديره : فرض الله عليكم القتال ولم ينصركم يوم أحد ليبتليكم .  
وقوله تعالى ، وليحص ما في قلوبكم ، فيه وجهان : أحدهما : أن هذه الواقعة  
تخرج ما في قلوبكم من الوسوس والشبهات وتظهرها ، والثاني : أنها تصير كفارة  
لذنوبكم فيمحصكم من تبعات المعاصي والسيئات ، فإن قيل : فقد سبق ذكر  
الابتلاء في قوله تعالى ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، فلم أعاده هنا ؟ والجواب  
أنه أعيد إما لطول الكلام بينهما ، وإما لأن الابتلاء الأول هزيمة للمؤمنين ،  
والابتلاء الثاني بسائر الأحوال ، والله عليم بذات الصدور ، أى بما في القلوب  
قبل إظهارها ، وفيه وعد ووعد ، وتنبه على أنه غنى عن الابتلاء وإنما يبتلى  
ليظهر للناس حال المؤمنين من المنافقين ، إن الذين تولوا منكم ، عن القتال  
يوم التقى الجمعان ، أى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد ، وكان قد انهزم  
أكثر المسلمين ، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة عشر رجلا ، ستة  
من المهاجرين وأبو بكر وعمر وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد  
ابن أبي وقاص ، إنما استزلهم الشيطان ، أى طلب منهم الزلل بوسوسته وبعض  
ما كسبوا ، من الذنوب بترك المركز والحرض على الثغمة ، ومخالفة النبي صلى  
الله عليه وسلم وأطاعوا الشيطان فنعوا التأييد وقوة القلب حتى انهزموا ، ولقد عفا  
الله عنهم ، لتوبتهم واعتذارهم ، إن الله غفور ، الذنوب ، حلیم ، لا يعاجل بعقوبته  
الذنب كي يتوب ، يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، أى المنافقين  
وهم ابن أبي وأصحابه ، وقالوا لإخوانهم ، أى في شأنهم ، ومعنى إخوانهم أشباههم  
في النفاق والكفر ، وقيل : في النسب ، إذا ضربوا في الأرض ، أى ساروا فيها  
لتجارة وغيرها فاتوا ، أو كانوا غزى ، أى غزاة جمع غاز فقتلوا ، لو كانوا  
عندنا ماماتوا وماقتلوا ، أى لا تقولوا كفراهم ، ليجعل الله ذلك ، القول في

عاقبة أمرهم ، حسرة في قلوبهم ، أى لأنهم إذا ألقوا تلك الشبهة على المؤمنين لم يلتفتوا إليهم فيضيع سعيهم ويبتل كيدهم ، فتحصل الحسرة في قلوبهم ، وقيل : إن اجتهادهم تكثير الشبهات وإلقاء الضلالات يعنى قلوبهم فيقعون عند ذلك في الحسرة والخيبة وضيق الصدر ، وهو المراد بقوله تعالى ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاء ، وقوله تعالى ، إذا ضربوا ، مع ، قالوا ، حكاية الحال الماضية ، ومعناه : إنك تقدر نفسك كأنك موجود في ذلك الزمان الماضي ، أو تقدير ذلك الزمان كأنه موجود الآن ، وهذا كقولك : قالوا ذلك حين يضربون ، والمعنى حين ضربوا ، إلا أنك جئت بلفظ المضارع استحضاراً لصورة ضربهم في الأرض ، وقوله تعالى ، والله يحيي ويميت ، رد لقولهم أى هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامة والسفر ، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد ، والله بما تعملون بصير ، بالياء على الغيبة رداً على الذين كفروا وقرئ ، بناء الخطاب رداً على قوله ، ولا تكونوا ، وهو خطاب للمؤمنين ، وفيه تهديد لهم على أن يماثلوهم ، ولئن قتلتم ، اللام هي الموطئة لقسم محذوف ، في سبيل الله ، أى الجهاد ، أو متم ، أى أتاكم الموت في سبيل الله ، وجواب القسم قوله تعالى ، لمغفرة من الله ، وحذف جواب الشرط لسد جواب القسم مسده لكونه دالاً عليه ، ورحمة ، أى من الله فحذف صفتها لدلالة الأولى عليها ، ولا بد من حذف آخر مصحح للمعنى تقديره ، لمغفرة من الله لكم ورحمة منه لكم ، والمغفرة هي الرحمة فلم كررها ونكرها ؟ ، قيل : إنه إنما نكرها إيداناً بأن أدنى وأقل شيء خير من الدنيا وما فيها ، وهو المراد بقوله ، خير مما يجمعون ؛ أى من الدنيا ، وأما التكرير فغير مسلم ، لأن المغفرة مرتبة على الرحمة فيرحم ثم يغفر ، فإن قيل : كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيها يجمعون أصلاً ؟ فالجواب أن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيراً ، وأيضاً هذا ورد على حسب قولهم واعتقادهم أن تلك الأموال خيرات ، فقيل : المغفرة خير من هذه الأشياء التي يظنونها خيرات ، ولئن متم أو قتلتم ، على أى وجه اتفق هلاككم ، لآلى الله ، لا إلى غيره

نحشرون ، في الآخرة فيجازيكم ودمتم ، بكسر الميم وقرىء بالضم ، وقرأ حفص بن محشرون ، بياه الغيبة والباقون بتاء الخطاب ، وقد تقدم الموت على القتل في الأول والآخر ، وقد تقدم القتل على الموت في المتوسط ، فما الحكمة في ذلك ؟ وأجيب بأن الأول لمناسبة ما قبله من قوله ، إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى ، فرجع الموت لمن ضرب في الأرض والقتل لمن غزا ، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد ، فقدم الأهم الأشرف ، وأما الآخر فلأن الموت أغلب .

١٥٩ - فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ  
لَانْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ  
فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الْمُتَوَكِّلِينَ .

١٦٠ - إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ  
ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

آيتان كريمتان تتحدثان عن أخلاق الرسول العظيم من رحمة ولين ورفق بأصحابه ، ومن حرص على التعاون والشورى والاستماع لأصحابه ، ومن إيمان وتوكل على الله ؛ وأن هذه الأخلاق النبوية ، والشمايل المحمدية ، هي التي تجعل الرسول حريا بأن يعفو عن أخطاء المخطئين ، وأن يستغفر للمذنبين ، وأن يتجاوز عن المقصرين منهم ، بمن كانوا سببا في الهزيمة ، ومن قالوا وتحدثوا ووقعوا فيما وقعوا فيه حول هزيمة أحد ومعركتها الرهيبة .

هي الأخلاق المحمدية ، وهي المفاخر الإسلامية الجليلة ، التي صاغها القرآن الكريم عقود مدح لنبى الإسلام ، ورسول القرآن . . وعفا محمد وصفح عن المخطئين والمقصرين والمنافقين ، وترك لهم الحرية ، لم ينصب المشائق لهم ؛ ولم يقم المذابح في الطرقات للقضاء عليهم ، ولم يلق بهم في ظلمات

السجون ؛ إنما كان رحمة للمقصرين ، وسلاما للمخلصين ، ورؤوفا بالمؤمنين .  
ووضع القرآن الكريم بأصل الشورى الذى أشار به فى الآية الأولى  
من هاتين الآيتين ، مبدأ الديمقراطية الإسلامية ، ووضع أصل الحكم  
فى الإسلام ، وأنه يجب أن يبنى على الديمقراطية وعلى الشورى وعلى التعاون  
وعلى الإخاء ؛ ومن الشورى ينبع الحكم النيابى ، الذى هو اليوم أساس الدساتير  
الحديثة .. كل هذا ألزم به القرآن محمدا عليه السلام ، وصنعه الرسول وقضاه ،  
فى عهد الهمجية والوحشية والاستعباد ، وفى عصور الفوضى والظلام والوثنية .  
وعفا الرسول وصفح ، وجعل مبدأه طول حياته أن يستشير أصحابه فى كل  
شئ ، وأن يرجع إلى آرائهم فى السياسة وشئون المجتمع ، وفى أمور الاقتصاد ،  
وفى الحرب والسلام ، وفى كثير من المواقف والمشكلات .

فلتذكر أعداء الإسلام كيف كان رسول الإسلام يعامل أصحابه ،  
وليعرفوا كيف كان أخلاق صاحب الرسالة ، وحامل أعباء الدعوة الإسلامية .  
أين ، أين ضعاف القلوب ، عميان البصائر ، الذين صغرت نفوسهم وسفلت  
أخلاقهم ، بما دب إلى عروقهم من دماء غير طيبة ؛ من الذين يجلولهم الطعن  
فى الإسلام ورسول الإسلام ؟ أين ، أين أنصاف العلماء الذين يخسرون  
قومهم مفاخرهم التليدة المجيدة ، ولا يرون لهم من فضيلة فى هذه الحياة الدنيا ،  
حتى ولا التى يشهد لهم بها أهل أوروبا ؟ والذين يتقولون الأقاويل على محمد رسول  
الله ؟ أين ، أين الذين أغواهم الشيطان فصاروا لا يرون للإسلام أثرا فى الحضارة  
والعمران ، وإذا حدثناهم به ، وأتيناهم بالدليل الساطع ، يتلوه البرهان الناصح ،  
قالوا : هذا محال ، وبعيد الاحتمال ؟ أين ؟ أين أولئك المتحذلقون المتطعون  
الذين يقنعون بقشور العلم ، ويتقممون بفتات موائد الإفرنج ، فيخرجون  
على الإسلام ، وعلى العروبة ، بكل منكر وفكير . . . ويصفون الإسلام بأنه  
دين رجعى ؟ أين هؤلاء وهؤلاء لياتونا بمثل هذه المسائر أو بما يدانيها ، عن  
أى قائد من قواد الأمم الأخرى ، فى أى عصر من أعصار التاريخ ، منذ  
ظهور الإنسان إلى هذه الساعة التى نعيش فيها اليوم فى عصر الذرة ؟ يمينا بالله :

لو صدرت مثل هذه المآثر في أية أمة من الأمم القديمة لا اتخذت صاحبها  
إلهاً أو نصف إله ، أما المسلمون فقد اکتفوا بما جاء عن ربهم ، وهو أنه  
- أى النبي - بشر مثل كل الناس ، ولكن الله ميزه بالرسالة إلى جميع الناس .  
وأنه جعله خاتم الأنبياء والمرسلين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين .  
وفي الآية الثانية يذكر الله عز وجل أن نصر الله هو دعامة كل توفيق ،  
وأن من كان معه نصر الله لن يستطيع أحد خذلانه ، ومن خذله الله لن  
يضع له الناس النصر ، فإنه هو الناصر وهو المعين ..

قوله تعالى « فيما رحمة من الله ، أى فبسبب رحمة الله برسوله ، وتثبته  
له على الأخلاق السامية ، والآداب النبوية الجليلة .. » كنت لهم ، أى ما كان  
لينه صلوات الله عليه للمؤمنين والصحابة إلا برحمة من الله ، ومعنى الرحمة  
توفيقه للرفق بهم ، حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه .. « ولو كنت فظاً ، أى  
سيئ الخلق .. » غليظ القلب ، أى جافياً ، لانفضوا ، أى تفرقوا ، من  
حولك ، أى عنك ، وذلك لأن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول الكريم  
تكاليف الله تعالى وشريعته إلى الخلق ، وذلك لا يتم إلا بميل قلوبهم وسكون  
نفوسهم إلى صاحب الرسالة ، وإلى مقام الرسول الأعظم ، وهذا المقصود  
لا يتم إلا إذا كان رحماً بهم ، كريماً يتجاوز عن ذنوبهم ، ويعفو عن سيئاتهم ،  
ويخصهم بالبر والشفقة ، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن  
سوء الخلق ، وغلظ القلب ، ويكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء ، كثير القيام  
بإعانة الفقراء . وحمل القفال هذه الآية على معركة أحد ، قال : « فيما رحمة  
من الله كنت ، يوم أحد ، حين عادوا إليك بعد الانهزام ، ولو كنت فظاً  
غلظ القلب فأنحيت عليهم بالملازمة على ذلك الانهزام لانفضوا من حولك .  
هية منك ، وحيا ، بسبب ما كان منهم من الانهزام ، فكان ذلك مما يطمع  
العدو فيك وفيهم ، فاعف ، أى تجاوز عنهم ، أى ما أتوه ، واستغفر لهم .  
ذنوبهم حتى أشفعك فيهم ، فأغفر لهم ، واختلفوا في معنى قوله تعالى « وشاورهم  
في الأمر ، على وجوه أحدها : أن ذلك يقتضى شدة محبته لهم ، فلم يفعل .

ذلك لكان ذلك إهانة لهم ، فيحصل سوء الخلق والفضاظة ، وثانيها : أنه عليه الصلاة والسلام وإن كان أكل الناس عقلا إلا أن عقول الخلق متناهية في كمالها ، فقد يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال آخر ، لا سيما فيما يتعلق بأمور الدنيا ، قال عليه الصلاة والسلام : أتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم ، ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم ؛ وثالثها : قال الحسن وسفيان ابن عيينة : إنما أمر بذلك ليقترى به في غير المشاورة وتصير سنة ، ورابعها : أنه عليه الصلاة والسلام شاورهم في وقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج ، وكان ميله أن لا يخرج فلما خرج وقع ما وقع ، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك ، لكان ذلك يدل على أنه بقي في قلبه منهم بسبب مشاورتهم شيء ، فأمره الله تعالى بمشاورتهم بعد تلك الواقعة ، ليدل على أنه لم يبق في قلبه أثر من تلك الواقعة ، وخامسها : أمره بالمشاورة لا ليستفيد منهم رأياً ، ولكن ليعلم مقادير عقولهم ومحبتهم له .

وذكروا أيضا وجوها أخرى ، وفي هذا القدر كفاية ، وانفقوا على أن كل ما نزل فيه وحى من عند الله لا يجوز للرسول أن يشاور الأمة فيه ، لأن النص إذا جاء بطل الرأي « فإذا عزمت ، أي قطعت الأمر على إرضاء ما تريد بعد المشاورة » فتوكل على الله ، أي ثوبه لا بالمشاورة . فليس التوكل إهمال التدبير بالكلية ، بل بمراعاة الأسباب ، مع تفويض الأمر إلى الله تعالى ، « إن الله يحب المتوكلين » عليه فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح « إن ينصركم الله ، أي يعينكم على عدوكم كيوم بدر » فلا غالب لكم ، أي فلا أحد يغلبكم « وإن يخذلكم ، بترك نصركم كيوم أحد » فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، أي بعد خذلانه أي لا أحد ينصركم . وهذا تنبيه على المقتضى للتوكل ، وتحريض على ما يستحق به النصر من الله ، وتحذير عما يستجلب خذلانه « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أي فيخصونه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر سواه ؛ لأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه .

١٦١ - وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية ، فقال ابن عباس : نزلت في  
طفيفة حمراء فقدت يوم بدر ، فقال بعض المناققين : لعل رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أخذها ، وقال مقاتل : نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز  
وطلبوا الغنيمة ، وقالوا : نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من  
أخذ شيئاً فهو له ، وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر ، فقال لهم النبي صلى  
الله عليه وسلم : ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى ؟ فقالوا :  
تركنا بقية إخواننا وقوفاً ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : بل ظننتم أنا نغل في  
الغنيمة ولا نقسم لكم ، وقال محمد بن إسحاق بن بشار : هذا والوحي يقول :  
ما كان لني أن يكتم من الوحي رغبة أو رهبة . كان صلى الله عليه وسلم يقرأ  
القرآن وفيه سب دينهم وسب آلهتهم ، فسألوه أن يترك ذلك فنزلت ، وروى  
أنه صلى الله عليه وسلم غنم في بعض الغزوات وجمع الغنائم وتأخرت القسمة  
لبعض المواضع ، فجاء قوم وقالوا : لا تقسم غنائمنا ، فقال عليه الصلاة والسلام :  
لو كان لكم مثل أحد ذهباً ما حبست عليكم منه درهما ، أتحسبون أنى أغلکم  
مغتمكم ؟ فنزلت ، ومعنى قوله تعالى « وما كان لني أن يغل » أى وما صح لني  
أن يخون في الغنائم ، فإن مقام النبوة تنافى الخيانة « ومن يغلل يأت بما غل  
يوم القيامة » قال أكثر المفسرين : إن هذه الآية على ظاهرها ، قالوا وهو نظير  
قوله تعالى في مانع الزكاة « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم  
وجنوبهم وظهورهم » ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم ، لا ألفين أحدكم يجيئ  
على رقبته يوم القيامة بعير له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثغاء فينادى :  
يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك ، قال المحققون : وفائدته  
إذا جاء يوم القيامة وعلى رقبته ذلك الغلول ازدادت فضيخته ، وعن ابن عباس  
أنه قال : يمثل له ذلك الشيء في قعر جهنم ، ثم يقال له : انزل إليه نخذه ، فينزل

إليه؛ فإذا انتهى إليه حمله على ظهره ، فإذا بلغ موضعه وقع في النار، ثم يكلف أن ينزل إليه فيخرجه ، ففعل ذلك به ، وعن أبي هريرة : قتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد ، فقال الناس : هنيئا له الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا والذي نفسى بيده . إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم ثم لم يصبها القاسم تشتعل عليه نارا ، فلما سمع ذلك الناس ، جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شراك من النار أو شراك من نار ، وقال أبو مسلم : ليس المقصود من الآية ظاهرها ، بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى : إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض بأت بها الله ، فإنه ليس المقصود نفس هذا الظاهر ، بل المقصود إثبات أن الله تعالى لا يعزب عن علمه وعن حفظه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فكذا هاهنا ، فالمقصود تشديد الوعيد ، وتقرير أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الغلول ، ويقدره عليه يوم القيامة ويجازيه ، لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية . وعن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله صلوات الله عليه رجلا من أسد على الصدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي إلى ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا ، فيقول : هذا لكم وهذا أهدي إلى ؟ فهلا جلس في بيت أمه أو بيت أبيه ، فينظر أهدي إليه أم لا ، فوالذي نفسى بيده لا يأخذ منها أحد شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثغاء (١) ، ثم رفع يديه ، وقال : اللهم هل بلغت ؟ هل بلغت ؟ .

وقوله : ثم توفي كل نفس ما كسبت ، أي تعطى جزاء ما كسبت أي عملت ، والمراد : من غل في الغنيمة وغيرها ، فإذا كان كل كاسب جزيا بعمله ، فالذي يغل في الغنيمة مع عظم جرمه أولى بذلك : وهم لا يظلمون ، أي شيئا فلا ينقص من المطيع شيء من ثوابه ، ولا يزداد العاصي على عقوبته عقوبة .

(١) في رواية : تنغو ، والثغاء : صوت الشاة .



١٦٣ - أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مَنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ  
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

١٦٣ - هُوَ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

١٦٤ - لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ  
أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ  
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ :

ثلاث آيات كريمة تتحدث عن الرسول الكريم وأصحابه : من مؤمنين  
مخلصين ، ومن مؤمنين خالفوا أمره في أحد ، ومن منافقين متربصين للإسلام .  
وقوله عز وجل : « أفمن اتبع رضوان الله ، الهمة فيه للإنكار ، والفاء  
للعطف على محذوف ، والتقدير : أفمن اتقى فاتبع رضوان الله » كمن باء ، أى  
رجع « بسخط من الله ، بسبب المعاصي » وماواه جهنم وبئس المصير ، أى  
المرجع هى أى جهنم ، واختلف فى المراد من هذه الآية ، فقال الكلبي والضحاك :  
أفمن اتبع رضوان الله فى ترك الغلول كمن باء بسخط من الله فى فعل الغلول ؟  
وقال الزجاج : لما حمل المشركون على المسلمين ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم  
أصحابه إلى أن يحملوا على المشركين ، ففعله بعضهم وتركه آخرون ، فقوله « أفمن  
اتبع رضوان الله ، وهم الذين امثلوا أمره » كمن باء بسخط من الله ، وهم  
الذين لم يقبلوا قوله ، وقيل : « أفمن اتبع رضوان الله - وهم المهاجرون - كمن باء  
بسخط من الله - وهم المنافقون - وقيل : أفمن اتبع رضوان الله بالإيمان به والعمل  
بطاعته كمن باء بسخط من الله بالكفر به والاشتغال بمعصيته ؟ ، وكل واحد  
من هذه الوجوه صحيح ، ولكن لا يجوز قصر اللفظ عليه لأن اللفظ عام ،  
فيجب أن يتناول الكل ، وإن كانت الآية نزلت فى واقعة معينة ، لكن عموم  
اللفظ لا يبطل بخصوص السبب . هذا والفرق بين المصير والمرجع أن المصير  
يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع ، فإنه قد يوافق المبدأ . وقوله  
تعالى « هم درجات ، أى الفريقان درجات . ولا بد من تأويل فى الإخبار

بالدرجات عن دم؛ لأنها ليست إياهم؛ فيجوز أن يكون جعلوا نفس الدرجات مبالغة، والمعنى أنهم متفاوتون في الجزاء على حسبهم، كما أن الدرجات متفاوتة، فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة أي هم مثل الدرجات في التفاوت، ويجوز أن يكون على حذف مضاف أي ذو درجات، أي أصحاب منازل ورتب في الثواب والعقاب عند الله؛ فلن اتبع رضوان الله الثواب ولن باء بسخطه العقاب والله بصير بما يعملون، أي عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها لقد من الله على المؤمنين، أي أنعم على من آمن مع النبي صلى الله عليه وسلم، ووجه هذه المنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى ما يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه، لقوله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، فإن قيل: لم خصهم بالنعمة مع أن البعثة عامة؟ أجيب بأنهم هم المنتفعون بها، كقوله تعالى «هدى للمتقين»، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، أي من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة، ويكونوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به، وكانت بعثته منهم شرفا لهم، لا ملكا ولا أعجيبا وقرىء شاذا من أنفسهم، بفتح الفاء أي من أشرفهم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم، وقد خطب أبو طالب لما تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها، وقد حضر معها بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حفظة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتنا محجوجا وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، ولم أذكر في التفسير قراءة شاذة إلا هذه، لكونها في شرف الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم آياته، أي القرآن بعدما كانوا جاهلا لم يسمعوا الوحي «ويزكيهم»، أي يطهرهم من دنس الطباع وسوء العقائد والأعمال «ويعلمهم الكتاب»، أي القرآن «والحكمة»، أي السنة، بعد ما كانوا من أجهل الناس وأبعدهم من دراية العلوم، كما قال تعالى «وإن كانوا من قبل أي قبل بعثته صلى الله عليه وسلم «لنى ضلال مبين»، أي بين ظاهر.

١٦٥ أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَـصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

١٦٦ - وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

١٦٧ - وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا أَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ

يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ

فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

١٦٨ - الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا أَوْ اطَّاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ

فَادْرَوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

١٦٩ - وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ

عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .

١٧٠ - فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ

يَلْحَقُوا بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

ست آيات بليغة تتحدث عن هزيمة أحد ، وعن الشهداء ومنزلتهم عند

الله ، وعمما يجب على المسلم الكريم أن يكون عليه حين المحنة ، ووقت اشتداد

الخطوب ، وفي الأزمات والشدائد والأحوال . من صبر كريم ، وثبات

قوى ، ومن إيمان وتفويض وتوكل على الله ، رب الناس ، ورب النصر ،

ومقدر الأقدار ..

قوله تعالى « أو لما ، أي حين » أصابتكم مصيبة ، أي هزيمة كرهية أحد

وقتل سبعين منكم « قد أصبتم مثلها ، أي في بدر إذ قتلتم من المشركين سبعين

وأسرتم سبعين .. « قلم ، أي متعجبين مستغربين .. « أنى ، أي من أين لنا .

« هذا ، أى القتال والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم  
فينا ، والجملة الأخيرة فى موضع الاستفهام الإنكارى . . . قل ، لهم وهو من  
عند أنفسكم ، أى بما افترفته أنفسكم بمخالفتكم أمر الرسول ، وتركتم المركز  
الحربى الممتاز الذى وضعكم فيه رسول الله لحماية ظهر الجند الإسلامى ، فإن  
الوعد بالنصر كان مشروطا بالثبات فى مكانكم ، وإطاعتكم لأوامر قائدكم .

وقيل : هو من عند أنفسكم أى بسبب أخذكم الفداء من أسارى قريش بعد  
معركة بدر ، وبسبب ترككم للشركين حتى استعدوا لكم استعدادا عسكريا  
جديدا وهزموكم فى أحد . . . « إن الله على كل شىء قدير ، أى فيقدر على النصر  
وعلى منعه ، وعلى أن تهزموا أعداءكم تارة ، ويهزمكم أعداؤكم تارة أخرى .  
وقيل : معنى قوله تعالى « قد أصبتم مثلها ، هو هزيمة المؤمنين للشركين يوم  
بدر وهزيمتهم إياهم أيضا يوم أحد - أول الأمر ، والمراد بالمصيبة الهزيمة . .

« وما أصابكم يوم التقي الجمعان ، أى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم  
أحد ، من القتل والجراح والهزيمة « فيأذن الله ، أى فهو كائن بقضائه وإرادته  
« وليعلم المؤمنون ، معنى : وليعلم الله كذا ، أى يميز أو يظهر للناس ما كان فى  
عليه « وليعلم الذين نافقوا ، قال الواحدى : يقال : نافق الرجل فهو منافق إذا  
أظهر كلمة الإيمان وأضمر خلافها ، قيل : هو مشتق من نفاق اليربوع لأن  
جحر اليربوع لها بابان : القاصعاء : والنفاق ، فإن طلب من أيهما كان يخرج  
من الآخر ، فقيل للمنافق : إنه منافق ، وهو اسم إسلامى لأنه صنع لنفسه طريقين :  
إظهار الإسلام وإضمار الكفر ، فن أيهما طلب خرج من الآخر . . . وقوله تعالى  
« وقيل لهم ، عطف على نافقوا أى وليعلم الذين قيل لهم انصرفوا عن القتال  
وقالوا : لن نلقى أنفسنا فى القتل فرجعوا ، وهم عبد الله بن أبى وأصحابه ، وكانوا  
ثلاثمائة من الألف الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعالوا  
قاتلوا فى سبيل الله ، الكفار « أو ادفعوا ، عنا ، أى إن كان فى قلبكم حب  
الإيمان فقاتلوا للدين ، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفاعا عن أنفسكم وأهلكم ،  
وقال السدى وابن جرير : ادفعوا عنا العدو بتكثير موزادنا إن لم تقاتلوا

معنا ، لأن الكثرة أحد أسباب الهيبة ، وروى عن سهل بن سعد الساعدي  
وقد كف بصره : لو أمكنتي لبعث داري ولحقت بثر من ثغور المسلمين  
فكنت بينهم وبين عدوهم ، قيل : وكيف وقد ذهب بصرك ؟ قال لقوله تعالى  
« أو ادفعوا ، أراد أكثر سوادهم ، واختلفوا في القائل : يقال الأصم : إن  
الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى القتال ، وقيل أبو جابر الأنصاري  
قال لهم : ذكركم الله أن لا تأخذوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو ، قالوا لو نعلم  
أى نحسن ، قتالا لا تبعناكم ، فيه ، قال تعالى تكذبا لهم ، هم للكفر يومئذ ، أى  
يوم إذ قالوا : لو نعلم قتالا لا تبعناكم ، أقرب منهم للإيمان ، أى لا انقطع عنهم  
وارتدادهم وكلامهم ، فإن ذلك أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم ،  
وقيل : المعنى : هم لأهل الكفر أقرب منهم لأهل الإيمان . بما أظروه من  
خذلانهم للؤمنين ، وكانوا قبل أقرب إلى الإيمان من حيث الظاهر وفضلوا  
هنا على أنفسهم باعتبار حالين ووقتتين ولولا ذلك لم يجز ، يقولون بأفواههم  
ما ليس في قلوبهم ، أى يظهرون خلاف ما يضمرون ، لا نواطيء قلوبهم  
ألسنتهم بالإيمان ، فهم وإن كانوا يظهرون الإيمان باللسان لكنهم يضمرون في  
قلوبهم الكفر ، والله أعلم بما يكتبون ، أى عالم بما في ضمائرهم ، وبما يخلو  
به بعضهم إلى بعض ، فإنه يعلم ذلك مفصلا بعلم واحد وأتم تعلونه بحملا  
بأمارات ، الذين قالوا لإخوانهم ، أى لأجل إخوانهم من جنس المناقين  
المقتولين يوم أحد أو إخوانهم في النسب أو في سكنى الدار أو في عداوة النبي  
صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى « وقعدوا ، أى قالوا : قاعدون عن القتال  
« لو أطاعونا ، في القعود ، ما قتلوا ، كما لم تقتل ، واختلف في القائل ذلك  
فقال أكثر المفسرين : هو ابن أبي وأصحابه ، وقل الأصم : هذا لا يجوز  
لأن ابن أبي خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد في يوم أحد ، وهذا  
القول واقع بمن تخلف ، وفيه نظر ، لاحتمال أن المراد بالقعود : القعود عن  
القتال لا عن الخروج إلى القتال ، قل ، لهم « فادرأوا ، أى ادفعوا ، عن أنفسكم  
الموت إن كنتم صادقين ، في أن القعود ينجي من الموت ، لأنكم إن دفعتم

القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدرُوا على دفع سائر أسبابه ، وروى أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون مناقفا ، فإن قيل : ما وجه هذا الاستدلال ؛ فإن التحرز عن القتل ممكن ، وأما التحرز عن الموت فغير ممكن ، فالجواب أن الكل بقضاء الله وقدره ؛ فلا فرق بين الموت والقتل ، وفي قوله تعالى « فادرأوا عن أنفسكم الموت » استهزاء بهم ، أى إن كنتم رجالا دفاعين لأسباب الموت فادرأوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا .

ونزل في شهداء أحد - كما رواه الحاكم - وكانوا سبعين رجلا : أربعة من المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شامس وعبد الله بن جحش ، وسائرهم من الأنصار ، ولا تحسبن ، أى ولا تظنن والذين قتلوا في سبيل الله ، أى لأجل دينه ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأكل أحد دأواتا بل أحياء عند ربهم ، ليس المراد - بالعندية - القرب المكانى لاستحالة ، ولا بمعنى في قلبه وحكمه ؛ لعدم مناسبة المقام له ، بل بمعنى القرب تشرفا ورتبة ؛ قال البيضاوى : وقيل نزلت في شهداء بدر ، أى وكانوا أربعة عشر رجلا ؛ ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين ، وهو خطأ ، إنما نزل فيهم آية البقرة ويرزقون ، رزقا روحيا ، وقيل رزقا ماديا ، كما قال تعالى « فرحين بما آتاهم الله من فضله » وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة ، ويستبشرون ، أى يفرحون بالذين لم يلحقوا بهم ، من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد ، لعلمهم أنهم إذا استشهدوا وألحقوا بهم . ونالوا من الكرامة ما نالوا ، فلذلك يستبشرون ، من خلفهم ، أى الذين من خلفهم زمانا أو رتبة ، أن ، أى بأن ، لا خوف عليهم ، أى الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ولا هم يحزنون ، في الآخرة ، والمعنى أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمور الآخرة ، وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين ، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة ، لا يكفرون بخوف وقوع محذور . ولا يحزن فوات محبوب . وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم ، بعث ثلثين بعدهم على ازدياد الطاعة ، والجد في الجهاد ، والرغبة في نيل منازل

الشهداء . وإصابة فضلهم - كحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه ، لأن الله تعالى مدحهم على ذلك .

وأخرج الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، فلما وجدوا طيب ماكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم . قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا . وفي لفظ : قالوا من يبلغ إخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق لتلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم : فأنزل الله هؤلاء الآيات . وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم وصححه وغيرهما من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه ، قال : لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا جابر مالي أراك منكسرا ؟ ، فقلت يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالا ودينا فقال « ألا أبشرك بما لقي الله به أباك ؟ ، قلت بلى ، قال « ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب وأحيا أباك فكلمه كفاحاً وقال : يا عبدي تمن على أعطك . قال : يارب تحييني فأقتل فيك ثانية . قال الرب تعالى : قد سبق مني أنهم لا يرجعون . قال أي ربي فأبلغ من ورأى ، فأنزل الله هذه الآية ، ، قالوا ولا تنافي بين الروايتين لجواز وقوع الأمرين ونزول الآية فيهما معاً ، وأقول : إن الآية متصلة بما قبلها متممة له ، فإذا صح الخبران فهما من جملة وقائع غزوة أحد التي نزل فيها هذا السياق كله ، والمعنى : لا تحسبن يا محمد أو أيها السامع لقول المناققين ، الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه ، فيؤثرون الدنيا على الآخرة . « أطاعونا ماقتلوا ، أن من قتلوا في سبيل الله أموات قد فقدوا الحياة وصاروا عدما .

ويرجح الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار أن حياة الشهداء في الآخرة حياة غيبية ، لا تبحث عن حقيقتها ولا تزيد فيها على ما جاء به خبر الوحي شيئاً ، فلا نقول كما قال بعض متكلمي المعتزلة : إن المراد بقوله « بل أحياء » أنهم سيكونون أحياء في الآخرة ، فإن ظاهر الآية أنهم أحياء مذ قتلوا ، ولا تخصيص في قولهم

للشهداء ولا يتفق مع ما يأتي، ولا يقول من قال: إنهم أحياء بحسن الذكر وطيب الثناء، كما يقال: من خلف مثلك مامات، . ولا يقول من قال: إنهم أحياء بأجسادهم كحياتنا الدنيا، يأكلون ويشربون وينكحون في قبورهم كسائر أهل الدنيا، ولا يقول من يقول: إن أجسادهم ترفع إلى السماء، قال الإمام الرازي في القائلين بأنها حياة جسدية ما نصه: ، والقائلون بهذا القول اختلفوا فقال بعضهم: إنه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات وإلى قناديل تحت العرش، ويوصل أنواع السعادة والكرامات إليها. ومنهم من قال: يتركها في الأرض ويحييها ويوصل هذه السعادات إليها. ومن الناس من طعن فيه وقال: إنا نرى أجساد هؤلاء الشهداء قد تأكلها السباع، فأما أن يقال: إن الله يحييها حال كونها في بطون هذه السباع ويوصل الثواب إليها. أو يقال: إن تلك الأجزاء بعد انفصالها من بطون السباع يركبها الله ويؤلفها ويرد الحياة إليها ويوصل الثواب إليها، وكل ذلك مستبعد. ولأننا قد نرى الميت المقتول باقيا أياما إلى أن تنفسخ أعضاؤه وينفصل منه القبيح والصدید؛ فإن جوزنا كونها حية متعمة عاقلة عارفة لزم القول بالسفسطة. وقال محمد عبده: وتطرف جماعة فزعموا أن حياة الشهداء كحياتنا هذه في الدنيا، يأكلون أكلنا ويشربون شربنا ويتمتعون تمتعنا، وهو قول لا يصدر عن عاقل؛ لأن من الشهداء من يحرق بالنار ومن تأكله السباع أو الأسماك. وقال بعضهم: المراد أن أجسادهم لا تبلى ولم يزد على ذلك، ولكن هذا لم يثبت؛ على أن الجسد لا ثمره له إذا خرجت منه الروح. وجملة القول أن بعضهم يقول: إن هذه الحياة مجازية، وبعضهم يقول: إنها حقيقية، ومن هؤلاء من يقول: إنها دنيوية، ومنهم من يقول: إنها أخروية ولكن لها ميزة خاصة؛ ومنهم من يقول: إنها واسطة بين الحياتين، والمختار عدم البحث في كيفية هذه الحياة.

١٧١ - يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.



١٧٢ - الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ .

١٧٣ - الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

١٧٤ - فَأَتَقَلَّبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوْءٌ وَأَتَّبَعُوا

رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ .

١٧٥ - إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

خمس آيات كريمة في التنوية بفضل الذين صمموا على الوقوف في وجه  
للمشرك والمشركين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد ،  
ولم يرهبهم كثرة المشركين ، ولا استعدادهم للقتال ، ولم يثن من عزيمتهم أنهم  
هزموا في أحد وأثخنوا بالجراح . وقوله تعالى : « يستبشرون بنعمة من الله  
وفضل ، لما بين الله تعالى أن الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بين هنا  
أنهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعم ، ولذلك أعاد لفظ الاستبشار ،  
والاستبشار مزيد الفرح ، ومزيد السرور ، وقد سبق أن ذكر الله عز وجل  
فرحهم بما حصلوا عليه في الدنيا ، وهنا يذكر فرحهم بالنعم العظيمة التي ينالونها  
في الآخرة ، والفرق بين النعمة والفضل أن النعمة هي الثواب ، والفضل هو  
التفضل الزائد ، ولفظ « يستبشرون ، هنا تأكيد للفظ الأول ، وأن الله  
لا يضيع أجر المؤمنين ، لما ذكر إيصال الثواب العظيم إلى الشهداء بين أن  
ذلك غير مخصوص بهم ، بل كل مؤمن يستحق شيئاً من الأجر والثواب ،  
فإن الله تعالى يوصل ثوابه إليه ولا يضيعه ، وقوله تعالى « الذين استجابوا لله  
والرسول ، أي دعاه » من بعدما أصابهم القرح ، بأحد ، للذين أحسنوا منهم ،  
بطاعته واتباعه ، مخالفته ، وأجر عظيم ، هو الجنة ، وروى أن أبا سفيان وأصحابه

لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهبهم ويرهبهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان ، وقال : لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، وكان بأصحابه القرع ، فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، روى أنه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ثم إن المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى ، وذلك لكثرة الجراحات فيهم ، وكان فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة ، فربر رسول الله صلى الله عليه وسلم معبد الخزاعي بحمراء الأسد ، وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعبد يومئذ مشرك ، فقال يا محمد : والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله قد أعفاك فيهم ، ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء . وقد أجمعوا الرجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال : ما وراءك يا معبد؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط . قال : ويلك ما تقول؟ قال : أقول والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل ، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا ، فزات هذه الآية ، الذين ، بدل من الذين قبله أو نعت ، قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، أي انجموع ليستأصلوكم ، فاخشوهم ، روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر للعام القابل إن شئت ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مرة الظهران ، فألقى الله الرعب في قلبه فبدأ له أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمرا فقال : يا نعيم إني واعدت محمدا أن نلتقي بموسم بدر ، وإن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدال أن لا أخرج إليه : وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جرأة ولأن يكون

الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلي، فألحق بالمدينة فخطبهم وأعلمهم  
أنى فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عندى عشرة من الإبل أضعتها فى يد سهل  
ابن عمرو ويضمنها، فقال له نعيم: يا أبا يزيد أتضمن لى ذلك وأطلق إلى محمد  
وأثبطه؟ فقال: نعم، فخرج نعيم حتى أتى إلى المدينة فوجد الناس يتجهزون  
لميعاد أبي سفيان، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: واعدنا أبو سفيان بموسم بدر  
الصغرى أن نقتل بها، فقال: الراى رأيتم، أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت  
منكم أحد إلا شريداً، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، والله  
لا يفلت منكم أحد إلا شريداً، فكره بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
وسلم الخروج، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده  
لأخرجن ولو وحدى ولو لم يخرج معى أحد، فخرج فى سبعين راكباً وهم  
يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولم يلتفتوا إلى ذلك القول، كما قال تعالى:  
«فزادهم» ذلك القول، إيماناً، أى تصديقاً بالله وبقينا، وقالوا حسبنا الله،  
أى كافينا أمرهم، ونعم الوكيل، أى المفوض إليه هو، وساروا حتى وافوا  
بدرأ الصغرى، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون: جمعوا  
لكم يريدون أن يرهبوا المسلمين، فيقول المسلمون: حسبنا الله ونعم الوكيل،  
وهذه هى الكلمة التى قالها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه حين ألقى فى النار،  
وواصلوا السير حتى بلغوا بدرأ، وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون  
إليها فى كل عام ثمانية أيام، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ينتظر  
أبا سفيان ثمان ليال، ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحداً من  
المشركين، ووافوا السوق وكان معهم تجارات فباعوها وربحوا فى تجارتهم،  
وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، كما قال تعالى: «فانقلبوا، أى انصرفوا  
بنعمة من الله، أى بعافية لم يلقوا عدواً، وفضل، أى تجارة وربح، وهو  
ما أصابوا فى السوق ولم يمسنهم سوء، أى لم يصيبهم أذى ولا مكروه، ورجع  
أبو سفيان إلى مكة، فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق، قالوا: إنما خرجتم  
لتشربوا السويق، هذا والناس الأول المشيطون، والآخرون أبو سفيان

وأصحابه ، فإن قيل المشبط هو أبو نعيم فكيف قيل الناس ؟ أجيب بأنه من جنس الناس ، كما قيل : فلان يركب الخيل - وماله إلا فرس واحد ، ولأنه حين قال ذلك لم يخجل من ناس من أهل المدينة يثبطون مثل تثيطه ، بل قيل : إنهم كانوا جماعة ؛ إذ مر بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة ، فجعل لم حمل بعير من زيبب إن ثبطوهم ؛ فإن قيل : كيف زادهم ذلك إيماناً ؟ أجيب بأنهم لما سمعوا ذلك وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيمان والإيقان بتناصر الحجج ، ولأن خروجهم على أثر ما سمعوا من تثيط إلى وجه العدو طاعة عظيمة ، والطاعات تزيد الإيمان ؛ فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قلنا : يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار ، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزدد إيماناً ، وعنه رضي الله تعالى عنه : لو وزن إيمان أبي بكر رضي الله تعالى عنه بإيمان هذه الأمة لرجح به . والمعنى : فزادهم قول الناس لهم إيماناً بالله وثقة به ، من حيث خشوه ولم يخشوا الناس الذين خولوا منهم بأنهم جمعوا لهم الجموع واعتمدوا على نصره ومعونته وإن قل عددهم وضعف جلدتهم ، فإنه هو العزيز القوي وذلك من شأن المؤمنين كما جاء في الآية الثانية من الآيتين التاليتين . وكان من قوة إيمانهم وزيادته أن أقدموا وهم عدد قليل قد أثنخوا بالجراح على محاربة الجيش الكبير ، فالزيادة كانت - كما يقول الشيخ رشيد رضا - في الإذعان النفسي ، والشعور القلبي ، وتبعها الزيادة في العمل ، بعد ذلك القول الدال على ما انطوت عليه النفس من اليقين بوعد الله ووعيده ، والشعور بعزته وسلطانه ، ولولا ذلك لم يكن لهم حول ولا قوة على تلك الاستجابة ، والإقدام على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان ، فن يقول : إن الإيمان النفسي لا يزيد ولا ينقص ، فقد نظر إلى الاصطلاحات اللفظية لا إلى نفسه في إدراكها وشعورها وقوتها في الإذعان وضعفها . قالوا : إن التصديق لا يعتد به ولا يكون إيماناً صحيحاً إلا إذا وصل

إلى درجة اليقين ، فإذا نزل عن مرتبة اليقين كان ظنا أو شكاً . وليس الظن إيماناً يعتد به والشك كفر ضريح . ونقول : إن الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً ولا يعد إيماناً صحيحاً هو ما لوحظ فيه جواز وقوع الطرف المخالف ، أي ما لوحظ فيه طرفان متقابلان . أحدهما : أن هذا الأمر ثابت ، وثانيهما : أنه يحتمل احتمالاً ضعيفاً أن لا يكون ثابتاً ، فإن جزم الذهن بأنه ثابت فلم يتصور الطرف المخالف . وهو عدم الثبوت ، كان جزمه هذا إيماناً وإن لم يكن ناشئاً عن برهان مؤلف من المقدمات اليقينية في عرف علماء المنطق ، على طريقتهم أو غير طريقتهم . ولا ملاحظاً فيه استحالة الطرف المخالف . وأكثر المؤمنين بالله ورسوله والمؤمنين بالجبوت والطاغوت في هذه المرتبة من الإيمان ، ويصح أن يطلق على أهلها لفظ «الموقنين» . ولو كان الإيمان لا يصح إلا ببرهان منطقي على إثبات قضاياها واستحالة ضدها ، لما تصور أن يرتد أحد عن الإسلام بعد دخوله فيه ، لأن اليقين بهذا المعنى لا يمكن الرجوع عنه وإن أمكن مكابرتة ومجاحدته باللسان ، ولذلك قال الأستاذ الإمام : «الرجوع عن الحق بعد اليقين فيه كاليقين في العلم ، كلاهما قليل في الناس ، يعني بذلك اليقين - المنطقي الذي تنتهي مقدماته إلى البديهيات . ولكن الردة ثابتة تقلاً ووقوعاً .

هذا واليقين مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضاً ، وحصرها بعضهم في ثلاث : علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين . فالارتقاء من درجة إلى أخرى زيادة في نفس اليقين . ويروى عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، وهذا القول مبنى على أن اليقين يقبل الزيادة في نفسه ، ومن أيقن بأن فلاناً طبيب ماهر لأنه رآه ينجح في معالجة بعض المرضى يضعف يقينه إذا رآه خاب في معالجة آخرين ، ويزداد إذا رآه ينجح آونة بعد أخرى ، ولا سيما في معالجة الأمراض الباطنية التي يعسر تشخيصها . ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذي يحرك فيها الخوف والرجاء ، وغيرهما من وجدانات الدين التي يترتب عليها ترك المنكر المنهى عنه وفعل المعروف المأمور به ،

ولو لا ذلك لم يكن للدين فائدة في إصلاح حال البشر . وهل يقول عاقل : إن الإذعان والخوف والرجاء من الأمور التي لا تقبل الزيادة والنقصان ؟ أما أنه لو كان إذعان جميع المؤمنين في درجة واحدة لتساووا في الأعمال ، ولكنهم متفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً كما هو ثابت بالمشاهدة ، ثبت أنهم متفاوتون في منشأهم من النفس وهو الإذعان ، الذي يقوى ويضعف بالتبع للإيمان ، وهذا عين قول الزيادة والنقصان . ومن هنا نفهم معنى إدخال السلف الصالح الأعمال في مفهوم الإيمان ، فإن كل اعتقاد له أثر في النفس يتبعه عمل من الأعمال ، فهي سلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات يحرك بعضها بعضاً ، والإمام الغزالي يعبر عنها بالعلم والحال والعمل ، فيقول : إن العلم بأن كذا يرضى الله تعالى أو كذا يسخطه مثلاً يحدث في النفس حالاً يترتب عليها فعل ما يرضيه ويقتضى مشيئته ، وترك ما يسخطه ويقتضى عقوبته ، ويقول : إن ترتب بعضها على بعض واجب ، وعبارته : إن العلم يوجب الحال والحال يوجب العمل : فارجع إليه في كتاب التوبة وغيره من كتب المجلد الرابع من الأحياء . ، وأما زيادة الإيمان بزيادة متعلقاته وهي الوسائل التي يؤمن بها المؤمن التي يعبر عنها بشعب الإيمان فهي ظاهرة لا تحتاج في بيانها إلى شرح طويل . فإن هذه المسائل لا يمكن أن تتلقى إلا بالتدريج ؛ فكلما تلقى المؤمن مسألة منها ازداد إيماناً . وليس هذا خاصاً بالكفر الذي يدخل في الإسلام ؛ فإن الناشئ بين المؤمنين مثله في ذلك . وليست المسائل التي تزيد الإنسان معرفتها إيماناً محصورة في النصوص التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإن القرآن هدانا إلى التفكير والنظر في ملكوت السموات والأرض لزداد إيماناً ونعتبر ونستفيد : وذلك يفتح لنا أبواباً من العلم بالله وسنته لانهاية لها ؛ فكل ما نهتدى إليه في بحثنا ونظرنا من أسرار الكائنات وسنن الله تعالى في المخلوقات فإننا نزداد به علماً بالله وإيماناً بقدرته وحكمته البالغة ، وقد قال سبحانه لأقوى الناس إيماناً وأوسعهم علماً بسنته : **وقل رب زدني علماً** . وكذلك آيات القرآن تزيد من يتلقاها إيماناً كلما تلقى شيئاً منها ، وقد يتدبرها المؤمن بعد العلم بها بأيام أو سنين ، فيفهم منها ما لم يكن يفهم فيزداد إيماناً ، قال تعالى

« وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . »

وفوله تعالى : « واتبعوا رضوان الله ، أي الذي هو مناط الفوز بخير الدارين ، بجرأتهم وبطولتهم وتصميمهم على الجهاد في سبيل الله ، وعلى الخروج في سبيل نشر الدين ، وإعزاز كلمة الإسلام والمسلمين . » والله ذو فضل عظيم ، أي قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للبادرة إلى الجهاد . والكفاح في سبيل الدين ، والاستبسال من أجل الوقوف في وجه أعداء الإسلام ، وفي هذا الأسلوب تحسر المتخلف ، وتخطئة لرأيه حتى حرم نفسه مفازوا به .

« وإنما ذاكم ، أي المثبط وأبو سفيان ، الشيطان يخوف أوليائه ، أي من الذين فعدوا عن الخروج ، أو يخوفكم أوليائه ، وهم أبو سفيان وأصحابه ، ويدل على ذلك التوجيه الأخير قوله تعالى « فلا تخافوهم وخافون ، أي في مخالفة أمرى ، جاهدوا مع رسولكم الأمين محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . » إن كنتم مؤمنين ، أي حقاً ، فإن الإيمان يقتضى إثارة خوف الله على خوف الناس ، وقراءة أبي عمرو بإثبات ياء « وخافوني ، وصلاً وحذفها وقفاً ، وقراءة الباقي بحذفها وصلها ووقفاً .

قيل : إن المراد بالشيطان في هذه الآية شيطان الإنس الذي غش المسلمين وخوفهم ليخذلهم ، واختلف في تعيينه : فقيل : هو أبو سفيان ؛ فإنه أراد بعد أحد أن يكر ليستأصل المسلمين ، وأرسل إليهم ليخوفهم في بدر الثانية أو الصغرى ، وقيل : هو نعيم بن مسعود الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين عن الخروج إلى بدر الموعد ، وقيل هو وفد عبد القيس ، وقيل : بل المراد به شيطان الجن الذي يوسوس في صدور الناس ، والمعنى على الأول : ليس ذلك الذي قال لكم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، أو من أوعز إليه بأن يقول ذلك ، أو من وسوس به ، إلا الشيطان يخوفكم أوليائه ، وهم مشركو مكة ، ويوهمكم أنهم

جمع كثير أولو بأس شديد ، وأن من مصلحتكم ان تقعدوا عن لقاءهم ونجبنوا عن مدافعتهم . والمعنى على الثاني : أن الشيطان يخوف أوليائه ، ولا سلطان له على أولياء الله المؤمنين ، فهو عاجز عن تخويفهم . وفي التفسير الكبير للرازي : أنه يخوف أولياءه المنافقين ، فيسول لهم القعود عن قتال المشركين ، ويزين لهم خذلان المسلمين ، وإذا صح هذا من جهة المعنى ، فإن الإشارة فيه ليست جلية كجلائها في الوجه الأول ولا الثاني أيضا ، ولا يظهر عليه قوله . وفي الآية - على ما يقول الإمام محمد عبده كما ذكر الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار - التنبيه إلى الموازنة بين أولياء الشيطان من مشركي مكة وغيرهم ، وبين ولي المؤمنين القادر على كل شيء ، كأنه يقول : عليكم أن توازنوا بين قوتي وقوتهم ونصرتي ونصرتهم ، فأنا الذي وعدتكم النصر ، وأنا وليكم ونصيركم ما أطعتموني وأطعتم رسولي ، وفي هذا المقام شبهة تعرض لبعضهم ، يقولون : إن تكليف عدم الخوف من تكليف ما لا يستطيع ولا يدخل في الوسع ، فإن الإنسان إذا علم أن العدد الكثير ذا العدد العظيمة يريد أن يوائمه وينزل به العذاب بأن رآه أو سمع باستعداده من الثقات فإنه لا يستطيع أن لا يخافه ، فكان الظاهر أن يؤمروا بإكراه النفس على المقاومة والمدافعة مع الخوف ، لأن ينهوا عن الخوف . والجواب : أن هذه الشبهة حجة الجبناء فهي لا تطوف إلا في خيال الجبان ، فإن إعمال النفس من الخوف والحزن والفرح يترامى للإنسان أنها اضطرارية ، وأن آثارها كائنة لا محالة مهما حدث سببها ، والحقيقة أن ذلك اختياري من وجهين :

١ - أن هذه الأمور تأتي بالعادة والمزاولة ، ولذلك تختلف باختلاف الشعوب والأجيال ؛ فمن اعتاد الإحجام عند الحاجة إلى الدفاع يصير جبانا والعادات خاضعة للاختيار بالتربية والتمرين ، ففي استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف ويعود نفسه الاستهانة بها .

٢ - أن هذه الأمور إذا حدثت بأسبابها . فالإنسان مخنار في الإسهال لها والاسترسال معها حتى يتمكن أثرها في النفس وتجسم صورتها في الخيال ،



ومختار في ضد ذلك ، وهو مغالبتها والتعمل في صرفها وشغل النفس بما يضادها ويذهب بأثرها . أو يتبدل به أثراً آخر منافضاً له . فهذا الأمر الاختياري هو مناط التكليف ، كأنه يقول : إذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله على كل شيء وكونه بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وتذكروا وعده بنصركم وإظهار دينكم على الدين كله ، وأن الحق يدمغ الباطل فإذا هو زاهق ، وتذكروا قوله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، ثم خذوا أهبتكم وتوكلوا على ربكم ، فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً في قلوبكم ، وقوله تعالى : إن كنتم مؤمنين ، يفيد وجوب توثيق الإيمان بالله في القلب قبل كل شيء ، لأن تلك الخواطر والهواجس التي تحدث الخوف من أولياء الشيطان لا يمحوها من لوح القلب إلا الإيمان الصحيح الثابت ، وفي قوله : إن كنتم ، إشارة إلى أن إيمان من يرجع الخوف من أولياء الشيطان على الخوف من الله تعالى مشكوك فيه . أقول : فليزن كل مؤمن نفسه بهذه الآية ، ويقارن بين عمله وعمل الصحابة الكرام وبين إيمانهم ، لكيلا يكون من المغرورين . ويقول الشيخ رشيد رضا : إن من تدبر هذه الآية حق التدبر علم أن المؤمن الصادق لا يكون جباناً ، فالشجاعة وصف ثابت للمؤمنين ، إذا شاركهم فيه غيرهم فإنه لا يدرى فيه مداهم ولا يبلغ شأوهم . ومن بحث عن علل الأشياء يرى أن علة الجبن هي الخوف من الموت والحرص على الحياة ، وكل من الخوف والحرص مما لا يتسع له قلب المؤمن كقلب غيره . قال تعالى في سياق الكلام على اليهود : ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يودأ أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، ولا يزال العالم كله يشهد أن الجيش الإسلامي أشجع جيوش الملل كلها ، هذا مع ما منى به المسلمون من ضعف الإيمان والجهل بالإسلام .

١٧٦ - وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ الْأَلَّا بِجَعَلْ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

١٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ أَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

١٧٨ -- وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما تُعَلِّي لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنْفُسِهِمْ

إِنَّمَا تُعَلِّي لَهُمْ لِيُزْدَادُوا إِيمَانًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

١٧٩ - مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ

الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَذَابِقُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

في هذه الآيات الأربع تسليّة للرسول ، وتمييز له ، وتخفيف من آلامه ، وتهوين له من شأن خصوم الإسلام من الكافرين والمشركين ، ومن الكاذبين للسلين ورسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه أجمعين ، من المنافقين وأشباه المنافقين .

وفي الآية الأخيرة منها تهديد للمنافقين ، وتحذير لهم ، وتأكيدهم كذلك بأن الله فاضح نفاقهم ، ومظهر مكنون صدورهم ، ومبدي ما يخفونه من كيدهم ومكرهم ، ليميز الخبيث من الطيب ، وليظهر المسلم بحق من المسلم نفاقا وخداعا .

« ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، أي يقعون فيه وقوعا سريعا حرصا عليه ، وهم المنافقون من المتخلفين ، أو قوم ارتدوا عن الإسلام ، أي لا تهتم لكفرهم » إنهم لن يضرُوا الله شيئا ، بفعلهم ، وإنما يضرُونَ به أنفسهم « يريد الله ألا يجعل لهم حظا ، أي نصيبا في الآخرة ، أي الجنة ، فذلك خذلهم ، وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر » ولهم ، مع حرمان الثواب « عذاب عظيم ، في النار » إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ، أي

أخذوه بدله ، لن يضروا الله ، بكفرهم ، شيئا ولم عذاب أليم ، أى مؤلم ،  
وكرر ذلك للتأكيد أو هو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نفاق من المخلفين  
أو ارتدوا من الأعراب .

ونزل فى مشركى مكة كما قال مقاتل ، أو فى قريظة كما قاله عطاء ، ولا يحسن  
الذين كفروا أنما نملى ، أى نمهل ، لم ، بتطويل الأعمال ، خير لأنفسهم إنما نملى لهم  
ليزدادوا إثما ، بكثرة المعاصى ، ولهم عذاب مهين ، أى ذو إهانة ، روى أنه  
صلى الله عليه وسلم سئل : أى الناس خير؟ قال : من طال عمره وحسن عمله ،  
قيل : فأى الناس شر؟ قال : من طال عمره وساء عمله ، ما كان الله ليذر ، أى  
ليترك ، المؤمنين على ما أتم عليه ، أى الناس من اختلاط المسلم بغيره ، حتى  
يميز ، أى يفصل ، الخبيث ، أى المنافق ، من الطيب ، واختلف فى سبب نزول  
هذه الآية ، فقال الكلبى : قالت قريش : يا محمد تزعم أن من خالفك فهو فى  
النار والله عليه غضبان ، وأن من اتبعك على دينك فهو فى الجنة والله عنه  
راض ، فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن ، فنزلت ، وقال السدى : قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرضت على أمتى فى صورتها فى الطين كما  
عرضت على آدم ، وأعلنت من يؤمن ومن يكفر ، فبلغ ذلك المنافقين ، فقالوا  
استهزاء : زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر بمن لم يخلق بعد ، ونحن معه  
وما يعرفنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على المنبر وحمد  
الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما بال أقوام طعنوا فى على ، لا تسألونى عن شىء  
فما بينكم وبين الساعة إلا نياتكم به ، فقام عبد الله بن حذافة السهمى ، فقال : من  
أنا يا رسول الله؟ قال : حذافة ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه ، فقال يا رسول  
الله : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا وبالقرآن إماما وبك نبيا ، فاعف عنا ، عفا  
الله تعالى عنك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فهل أتم منتهون؟ ثم نزل عن  
المنبر ، فنزلت ، فإن قيل : لمن الخطاب فى «أتم» ، أجيب بأنه للصدقين جميعا  
من أهل النفاق والإخلاص ، كأنه قيل : ما كان الله ليذر الخالصين منكم على  
(٧ - تفسير القرآن لخفاجى ٤)

الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض ، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعا ، حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم ، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يدعن لها إلا الخالص المخلصين منكم ، كمثل الأموال والأنفس في سبيل الله ، فيختبر بها بواطنكم ويستدل بها على عقائدكم ، ففعل ذلك يوم أحد حيث أظهروا النفاق وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي ، أي يختار ويصطفى « من رسله من يشاء ، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها « فأمنوا بالله ورسله ، أي بصفة الإخلاص أو بأن تعلموا أن الله وحده مطلع على الغيب ويعلموهم عبادا مجتبيين لا يعلمون إلا ما عليهم الله تعالى ، ولا يقولون إلا ما يوحى إليهم . روى أن الكفرة قالوا : إن كان محمد صادقا فليخبرنا بمن يؤمن ومن يكفر ، فنزلت الآية « وإن تؤمنوا ، حق الإيمان « وتتقوا ، النفاق « فلکم أجر عظيم ، أي لا يقادر قدره والمعنى : إن أنتم آمنتم بما جاءوا به من خبر الغيب وقرنتم بالإيمان تقوى الله تعالى بترك المنهيات وفعل المأمورات بقدر الاستطاعة ، فلکم أجر عظيم لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه . واقتران التقوى ههنا مع الإيمان وترتيب الأجر عليهما معا ، هو الموافق للآي الكثيرة في الذكر الحكيم ، وقد ذهب وهم بعض الناس إلى أن الآية تدل على أن من اجتباهم الله من رسله يعلمون الغيب كله ، واستثنى بعضهم علم الساعة لكثرة ماورد من الآيات التي تنفي عنها عن نبينا صلى الله عليه وسلم .

١٨٠ — وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

١٨١ — لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أَغْنِيَاءَ سَنَّكَتِبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ  
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

١٨٢ - ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

١٨٣ - الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا إِلَّا نُوْثِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى  
يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ  
قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن  
كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

١٨٤ - فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ  
وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ .

١٨٥ - كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا  
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

هذه الآيات الست فيها إنذار شديد للذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله ،  
ويمنعون حقوق الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل في أموالهم ، وفيها  
وعيد ما بعده من وعيد لهُرْ لاء الطائفة من اليهود الذين يظنون أن الله فقير إلى  
إحسانهم ، وأنه محتاج لفضل أموالهم الذي يدخلون به ، ويمنعون حق الفقير  
واليتيم والمسكين فيه ، والذين كفروا بالرسول ، وكفر أجدادهم بالرسول من  
قبل . . ثم ينذر الله عز وجل عباده بأنهم لا بد لهم أن يلاقوا الموت ، وأن  
يحاسبوا على ما قدموا ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . والذين يكون حظهم  
الجنة والبعد عن النار هم الفائزون برضوان الله ونعيمه المقيم .

ويقول الإمام محمد عبده : إن هذا كلام جديد مستقل لا يتعلق بواقعة أحد

لاعلى سبيل القصد ولا الاستطراد . لقد جاء في سياق القصة آيات في شئونه الكافرين في أنفسهم وما يليق بهم من الخزي والعقوبة ونحو ذلك تذكر للنسبة ثم يعود الكلام إلى ما يتعلق بالواقعة ، وقد انتهى ذلك بالآيات التي قبل هذه الآيات ، وأما هذه وما بعدها إلى آخر السورة فهي في ضروب من الإرشاد ، وذلك لا يمنع أن يكون بينها وبين ما قبلها تناسب ، بل التناسب فيها ظاهر . وأقول : إن الوجه في وصل هذه الآيات بما قبلها هو أن الكلام قبلها كان في واقعة أحد وما كان فيها من شأن المناقنين ، وكان الكلام قبلها في حال اليهود ، وقبلها في حال النصارى مع الإسلام ، بمناسبة الكلام في أول السورة في التوحيد والكتاب العزيز واختلاف الناس فيه ؛ فلما انتهى ما أراد الله بيانه في هذا السياق ، ومنه أنه أيد دينه ، وأعز حربه حتى إنه جعل خطاهم في الحرب مفيدا لهم ، عاد إلى بيان حال اليهود وإقامة الحججة عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن الآية الأولى من هذه الآيات نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم ونبوته . فالبخل على هذا هو البخل بالعلم وبيان الحق وروى عن الصادق وابن مسعود والشعبي والسدي وغيرهم أنها نزلت في مانعي الزكاة . وقال الإمام محمد عبده : أكثر المفسرين على أن المراد بما آتاهم الله من فضله المال وأن البخل به هو البخل بالصدقة المفروضة فيه وعدم التصريح بذلك من ضروب إيجاز القرآن ، فكثيرا ما يترك التصريح بالقول لأنه مفهوم من السياق والقرائن دالة عليه ، واللبس مأمون . فلا يخطر ببال أحد أن الوعيد هو على البخل بجميع ما يملك الإنسان من فضل ربه عليه ، فإن الله أباح لنا الطيبات والزينة في نص كتابه ، والعقل يحزم أيضاً بأن الله لا يكلف الناس بذل ما يكسبون ، وأن يقولوا جاثعين عراة بائسين . وذهب آخرون إلى أن ذلك هو العلم ، وأن الكلام في اليهود الذين أوتوا صفات النبي صلى الله عليه وسلم فكتموها . والأولى أن تبقى على عمومها فإن المال من فضل الله ، وكذلك العلم والجاه ، والناس مطالبون بشكر ذلك . والبخل على الناس به كفر لا شكر ، قال : والحكمة في ترك النص على أن البخل المذموم هنا هو البخل بما يجب بذله مما يتفضل الله به على المكلف هي

أن في العموم من التأثير في النفس ما ليس للتخصيص ، وهذه السورة متأخرة في النزول ، وكانت أكثر الأحكام إذا أنزلت مقررة ، فإذا طرق سمع المؤمن هذا القول تذكّر فضل الله عليه ، وأن عليه فيه حقاً للناس ، وأن هذا الخطاب يذكر به سواء منه : ما هو معلوم معين وما ليس بمعلوم ولا معين ، بل هو موكل إلى اجتهاده الذي يتبع عاطفة الإيمان . وإنما نفي أولاً كونه خيراً ثم أثبت كونه شراً ، مع أن الثاني هو الظاهر الذي لا يمارى فيه ، لأن المانع للحق إنما يمنعه لأنه يحسب أن في منعه خيراً له ، لما في بقاء المال في اليد مثلاً من الانتفاع به بالتمتع باللذات ودفع الغوائل والآفات ، وتوهم التمكن من قضاء الحاجات ، فإن قيل : إن التحديد كان أوضح وأنى للإيهام ، قلنا : إن القرآن كتاب هداية ووعظ ، يخاطب الأرواح ليجذبها إلى الخير بالعبارة التي هي أحسن تأثيراً ، لا ككتب الفقه وغيره من كتب الفنون التي تتحرى فيها التعريفات الجامعة المانعة . وكتاب هذا شأنه لا يجري على السنن الذي لا يليق إلا بضعفاء العقول الذين فسدت فطرهم بالتعاليم الفاسدة ، وإن مثل هذه العبارة المطلقة التي تخطر في البال بذل كل ما في اليد ، وتكاد توجه لولا الدلائل الأخرى ، تحدث في النفس أريحية للبدل تدفعها إلى بذل الواجب وزيادة عليه . وأقول : إن هذه العبارة الأخيرة مبنية على القول بأن المراد بما يبخل به هو المال ، فإذا جرينا على القول الآخر المختار ، وهو أنه يعم المال والعلم والجاه ، وكل فضل من الله على العبد يمكنه أن ينفع به الناس يمكننا أن نجعلها من قبيل المثال ، ونقول إن التحديد في بيان ما يجب بذله للناس من الجاه والعلم متعذر ، إذا فرضنا أن ما يجب تحديده بذله في المال متيسر ، وبهذا كانت الآية شاملة لما لا يتأتى تفصيله إلا بصحف كثيرة وكان الجواب أظهر ، والإيجاز أبلغ في الإعجاز وأكبر . قوله تعالى « ولا يحسبن ، أي لا يظنن . . . الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله ، أي من مال و غنى و ثروة . . . هو ، أي بخلمهم » خيراً لهم ، في الدنيا أو الآخرة « بل هو ، أي بخلمهم » شر لهم ، أي لأنه يؤدي بهم إلى العذاب الأليم ،

والعقاب المهين . وقد اختلف المفسرون في المراد بهذا البخل ، فقال أكثرهم :  
المراد به منع الواجب ، واستدلوا بأدلة عديدة :

منها : أن الآية دالة على الوعيد الشديد ، وذلك لا يليق إلا بالواجب .

ومنها : أن الله تعالى ذم البخل ، والإنفاق في غير الواجب ، مما هو على

سبيل التبرع والصدقة والإحسان لا يذم على تركه .

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم « وأى داء أدوأ من البخل ، وتارك

التطوع لا يليق به هذا الوصف .

هذا والإنفاق الواجب على أقسام : إنفاق الرجل على نفسه وعلى أقاربه

الذين تلزمه نفقتهم ، والزكاة ، والمال الذي تحتاج إليه الدولة في تقوية

الاستعداد لدفع الأعداء عن الوطن الإسلامي حماية لدماء المسلمين وأعراضهم

وأموالهم ، والمال الذي يدفع به ما يسد رمق المضطر « سيطوقون » أى

سوف يطوقون . . . « ما يخلوا به يوم القيامة » ، اختلف في معنى هذا الوعيد :

فقال ابن عباس وابن مسعود : يجعل ما منعه من الزكاة حية يطوقها في عنقه

يوم القيامة ، تنشه من فرقه إلى قدمه وتقر رأسه ، وتقول : أنا مالك . وعن

أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أتاه

الله ما لا فلم يؤد زكاته مثل له ما له يوم القيامة شجاعا أقرع يطوقه يوم القيامة

ثم يأخذ بشدقيه ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا « ولا تحسبن الذين

يبيخلون ، الآية » ، وعن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفسى بيده ، أو الذى لا إله غيره ، ما من رجل تكون له إبل أو بقرة

أو غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمه ، تطؤه

بأخفافها وتنطحه بقرونها ، كلما جازت عليه أخراها ردت عليه أولها حتى

يقضى بين الناس ؛ وقال مجاهد : معنى « سيطوقون » سيكلفون أن يأتوا بما يخلوا

به يوم القيامة أى يؤمرون بأداء ما منعوا فلا يمكنهم الإتيان به ، فيكون

ذلك توبيخا .



وقيل : إن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، وأراد بالبخل كتمان العلم كما في سورة النساء ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، ، ومعنى قوله على هذا (سيطوقون) أى يحملون وزره وإثمه كقوله تعالى ، يحملون أوزارهم على ظهورهم ، وقوله ، وته ميراث السموات والأرض ، فى معناه وجهان :

أحدهما : أن له ما فيها مما يتوارثه أهلها من مال وغيره ، فهو الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم ، فإلهم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله ، ونحوه قوله تعالى ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، .

والثانى - وبه قال الأكثرون : أن معناه أنه يفنى أهل السموات والأرض ويفنى الأملاك ولا مالك لها إلا الله ، فخرى هذا مجرى الوراثة ، قال ابن الأنبارى : يقال : ورث فلان علم فلان إذا انفرد به بعد أن كان مشاركا فيه ، وقال تعالى : « وورث سليمان داود ، لأنه انفرد بذلك بعد أن كان داود مشاركا له فيه » والله بما تعملون ، من المنع والإعطاء ، خير ، فيجازيكم به .

وقوله تعالى ، لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، قال الحسن ومجاهد : لما نزل قوله تعالى ، ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، قالت اليهود : إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء ، وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة حبي بن أحطب ؛ وقال عكرمة والسدى ومقاتل ومحمد بن إسحاق : كتب النبي صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام ، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا ، فدخل أبو بكر ذات يوم مدراسهم ، فوجد أناسا كثيرين من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فنحاص بن عازوراء) وكان من علمائهم ، ومعه حبر آخر يقال له (أشيع) ، فقال أبو بكر لفنحاص : اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة ، فأمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة

ويضاعف لك الثواب ، فقال فنحاص : يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض من أموالنا ، وما يستقرض إلا الفقير من الغنى ، فإن كان ما تقول حقا ، فإن الله إذا لفقر ونحن أغنياء ، وإنه ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا ، يعنى فى قوله « فيضاعفه له أضعافا كثيرة » فغضب أبو بكر رضى الله تعالى عنه وضرب وجهه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد انظر ما صنع بنى صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما زعم أن الله فقير وهم أغنياء فغضبت لله فضربت وجهه ، فجحد ذلك فنحاص ، فأنزل الله عز وجل رداً على فنحاص وتصديقا لأبي بكر رضى الله تعالى عنه ، ولقد سمع الله ، الآية . وهذا لا يدل على أن غيره لم يقل ذلك ؛ لأن الآية دالة على أن القائل جماعة لقوله تعالى « الذين قالوا . . سنكتب » أى نأمر بكتابة « ما قالوا » من الإفك والفرية فى صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ونحوه وإنا له كاتبون ، أو سنحفظه فى علمنا لانهم له لأنه كلمة عظيمة ، إذ هو كفر بالله واستهزاء بالله والرسول ، ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء ، كما قال تعالى « وقتلهم ، أى وسنكتب قتلهم ، الأنبياء بغير حق ، وفى قرنه به تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول ، ونقول ، أى الله لهم فى الآخرة على لسان الملائكة « ذوقوا عذاب الحريق ، أى النار ، وهى بمعنى المحرق كما يقال : عذاب أليم أى مؤلم ، ويقال لهم إذا ألقوا فى النار « ذلك ، أى العذاب ، بما قدمت أيديكم ، من الاقتراء وقتل الأنبياء وغير ذلك من المعاصى ، وعبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهم « وأن الله ليس بظلام ، أى بنى ظلم وللعبيد ، فيعذبهم بغير ذنب . وظلام للمبالغة المقتضية للتكثير فهو أخص من ظالم ، ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم ، والجواب عن هذا أنه لما قوبل بالعبيد وهم كثيرون ناسب أن يقابل الكثير بالكثير ، وبأنه إذا نفي الظلم المكثير نفي القليل ؛

لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم ، فإذا ترك كثير مع زيادة نفعه فى زمن  
يجوز عليه النفع والضرر كان لقليله مع قلة نفعه أشد تركا ، وبأن ظلام للنسب  
لما قدرته فى الآية الكريمة ، أى لا ينسب إليه ظلم أبدا . وقوله تعالى « الذين ،  
نعت للذين قبله ، وقالوا ، لمحمد صلى الله عليه وسلم : تزعم أن الله بعثك بالحق رسولا  
وأنزل عليك كتابا وأن تؤمن بك وقالوا إن الله ، قد عهد إلينا ، أى أمرنا  
وأوصانا فى كتبه ، ألا تؤمن لرسول ، أى لا تصدق رسولا بأنه جاء من عند  
الله ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، أى حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التى  
كانت لأنبياء بنى إسرائيل ، فىكون دليلا على صدقه ، والقربان : هو كل ما يتقرب  
به العبد إلى الله تعالى من نسيسة وعمل صالح ، وكانوا إذا قربوا قربانا وغنموا  
غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لادخان لها ولها دوى شديد ، فتأكل ذلك  
القربان وتأكل الغنيمة ، ومعنى أكلمها أن تحيل ذلك إلى طبعها بالإحراق ، فىكون  
ذلك علامة القبول ، وإذا لم يتقبل بقى على حاله ، وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم ،  
لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات  
فى ذلك سواء ، وقال السدى : هذا الشرط جاء فى التوراة ولكنه مع شرط ،  
وهو أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل : من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه  
حتى يأتىكم بقربان تأكله النار حتى يأتىكم المسيح ومحمد ، فإذا أتياكم فأمنوا بهما  
فإنهما يأتيان بغير قربان ، قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم « قل ، لهم يا محمد  
« قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ، أى المعجزات « وبالذى قلتم ، من القربان  
كركريا ويحيى فقتلتموهن ، فلم تقتلتموهن ، والخطاب لمن كانوا فى زمن نبينا ،  
وإن كان الفعل لأجدادهم لرضائهم به « إن كنتم صادقين ، فى أنكم تؤمنون  
بالرسل عند الإتيان بذلك ، ثم قال الله تعالى تسلية لنبىه صلى الله عليه وسلم  
من تكذيب قومه واليهود « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا  
بالبينات ، أى المعجزات « والزبر ، أى الصحف ، كصحف إبراهيم « والكتاب ،  
أى التوراة والإنجيل « المنير ، أى الواضح ، فاصبر كما صبروا ، وقوله تعالى « كل  
نفس ذائقة الموت ، زيادة تأكيد فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ومبالغة فى

إزالة الحزن عن قلبه ، فإن من علم أن عاقبته الموت زالت عن قلبه الغموم والأحزان ،  
« وإنما توفون أجوركم ، أى جزاء أعمالكم » يوم القيامة ، إن خيرا نقيرا وإن شرا  
فسر « فمن زحزح ، أى أبعد » عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، أى بالنجاة ونيل  
المراد والفوز بالظفر والنظر إلى وجه الله تعالى الكريم « وما الحياة الدنيا ، أى  
العيش فيها » إلا متاع الغرور ، أى الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى ، روى أن الله  
تعالى يقول : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر  
على قلب بشر ، اقرأوا إن شئتم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما  
كانوا يعملون ، وإن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ،  
واقرأوا إن شئتم « وظل مدود ، ، ولموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما  
فيها ، واقرأوا إن شئتم « فمن زحزح عن النار ، الآية ، وروى : من أحب أن  
يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر  
ويأتى الناس ما يجب أن يؤتى إليه . أى يصنع معهم ما يجب أن يصنعوه  
معه ، ووجه اتصال هذه الآية الأخيرة بما قبلها هو أن فى التى قبلها تسليية للرسول ،  
عن تكذيب اليهود وغيرهم له ببيان طبيعة الناس فى تكذيب الأنبياء السابقين ،  
وصبر أولئك على المجاهدة والمعاندة والكفر . وفى هذه تأكيد للتسليية ، كما  
قال الإمام الرازى : من حيث إن الموت هو الغاية وبه تذهب الأحزان ، ومن  
حيث إن بعده دارا يجازى فيها كل بما يستحق ، وقال الأستاذ الإمام : إنها  
تسليية أخرى ، كأنه يقول : لا تضجر ولا تسأم لما ترى من معاندة الكافرين  
فإن هذا منته ، وكل ماله نهاية فلا بد من الوصول إليه ، فالذى يصير إليه  
هؤلاء المعاندون قريب فيجاوزن على أعمالهم ، ولا تنتظر أن يوفوا جزاء  
عملهم السىء كله فى هذه الدار ، كما أن أجرك على عملك لا توفاه فى هذه الحياة ،  
فحسبك ما أصبت من الجزاء الحسن ، وحسبهم ما أصيبوا وما يصابون به من الجزاء  
السىء فى الدنيا . واعلم أنه لا يوفى أحد جزاءه فى هذه الدار لأن توفية الأجور  
إنما تكون فى الآخرة . وقال : ويصح وصلها بما قبلها من قوله تعالى « ولا تحسبن  
الذين يبخلون ، الخ أى إن أولئك البخلاء الذين يمنعون الحقوق وأولئك المتجربين

على الله والظالمين لرسوله ، والذين عاندوا خاتم النبيين ؛ كل أولئك سيموتون كما يموت غيرهم ويوفون أجورهم يوم القيامة ؛ وكذلك لا يحسن أحد من المؤمنين الذين يقاومون هؤلاء ويلقون منهم في سبيل الإيمان ما يلقون أنهم يوفون أجورهم في الدنيا . كلا إنهم إنما يوفون أجورهم يوم القيامة . وأقول : إن الكلام هنا هو تصريح بما في ضمن الآية السابقة من النسبية للنبي عليه الصلاة والسلام ولمن اتبعه ، والتفات إلى خطابهم ، فإن توفية الأجور متبادرة في الخير ، فهذه الآية تمهيد لما بعدها ليسهل على المسلمين وقع إنبائهم بما يبتلون به .

وأما القربان الذي ذكر في هذه الآيات فقد قال المفسرون : إنهم أرادوا شيئاً كان شائعاً عندهم ، وهو أن يذبح القربان من النعم أو غيرها فيوضع في مكان معين فتأق نار بيضاء من السماء لها دوى فتأخذه أو تحرقه . وروى ابن جرير عن ابن عباس أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة ، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلته . أى أكلت ما تصدق به . هذا ما أورده . وردوه بأن هذا القربان إنما كان يوجب الإيمان لأنه معجزة لا لذاته ، إذ هو كغيره من المعجزات . وذكر الشيخ رشيد رضا أن القربان في عبادة بني إسرائيل كان على قسمين : دموى وغير دموى ، فالقربان الدموى كانت تكون من الحيوانات الطاهرة : كالبقر والغنم والحمام ، وغير الدموى هي باكورات المواسم والخمر والزيت والدقيق ، والقربان عندهم أنواع : منها المحرقات والتقدمات وذبائح السلامة وذبائح الخطيئة وذبائح الإثم . وكانوا يحرقون المحرقات بأيديهم . وقد جاء في الفصل الأول من سفر اللاويين في ذلك ما نصه :

« ودعا الرب موسى . وكلمه من خيمة الاجتماع قائلاً : كلم بني إسرائيل وقل لهم : إذا قرب إنسان منكم قرباناً للرب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرايينكم ، إن كان قربانه من البقر فذكر أصحياً يقرب إلى باب خيمة الاجتماع يقدمه للرضا عنه أمام الرب ، ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عنه

للتكفير عنه ، ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هرون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذي لدى باب خيمة الاجتماع ، ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطعها ، ويجعل بنو هرون الكهنة نارا على المذبح ويرتبون حطباً على النار ، ويترتب بنو هرون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح ، وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على المذبح محرقة وقود رائحة سرور للرب .

ثم ذكر تفصيل قربان الغنم بصنفيه : الضأن والمعز ، والطير وهو صنفان أيضاً : الحمام واليمام بنحو ما تقدم ، كما بين بقية أنواع القرابين . فمن هنا تعلم أنهم كانوا يوقدون النار بأيديهم ويحرقون بها القرابين المحرقات ، واسكن اليهود كانوا يلقون إلى المسلمين أخباراً من خرافاتهم أو مخترعاتهم ، ليودعوها كتبهم ، ويمزجوها بدينهم ، ولذلك نجد في كتب قومنا من الإسرائيليات الخرافية ما لا أصل له في العهد القديم ، ولا يزال يوجد فينا من يقدر كل ما روى عن أوائلنا في التفسير وغيره ، ويرفعه عن النقد والتحجيص ، ولا يتم تمحيص ذلك إلا لمن اطلع على كتب بني إسرائيل .

وأعني ما في هذه الآيات هو هذا التصوير الغريب للبخل وجزائه في الآخرة ، ولعل هذا ورد على سبيل التمثيل للبالغه والتهديد . وفي تصوير أخلاق البخل وأخلاق الكريم ، وأثرها في حياة هذين الصنفين من الناس ورد الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأعمى وأقرع ، بدأ الله عز وجل أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، قد قدرني الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه فأعطى لو نأحسنا وجلداً حسناً فقال : أي المال أحب إليك؟ قال : الإبل ، فأعطى ناقة عشراء فقال يبارك لك فيها ، وأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك؟ فقال : شعر حسن ويذهب عني هذا قد قدرني الناس ، قال : فمسحه فذهب وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأى المال أحب إليك؟ قال : البقر قال : فأعطاه بقرة حاملاً وقال : يبارك لك فيها ، وأتى الأعمى

فقال: أى شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس، قل: فمسحه فرد الله إليه بصره قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاها شاة والداً فأنج هذا ن وولد هذا؛ فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيبته فقال: رجل مسكين تقطعت بى الجبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأتى أعرفك، ألم تكن أبرص يقدرك الناس، فقيراً فأعطاك الله. فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع فى صورته وهيبته فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه. هذا فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى فى صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بى الجبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصرى، وفقيراً فقد أغنانى، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتكم، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبك.

وبذلك ينتهى الربع الخامس من هذا الجزء، وقد صور الله عز وجل فيه فضل المخلصين من أصحاب رسول الله، والمصممين على الجهاد فى سبيله، والزائدين عن حمى الإسلام ببسالة وقوة وبطولة وتضحية. دون أن ترهبهم قوة أعداء الإسلام، أو تنال منهم ومن روحهم المعنوية تهديد الأعداء والخصوم والكائدين للإسلام وحزبه كما اشتمل على تهديد قوى الكافرين والمنافقين، وعلى تحذير البخلاء الذين يدخلون بأموالهم فلا ينفقونها فى سبيل الله، وفى آخر هذا الربع تصوير جليل لليهود وكفرهم برسالة محمد، كما كفر آباؤهم من قبل بالرسول والنبين، وقتلوا فريقاً منهم بالإثم والطغيان. ويحتوى هذا الربع فى ختامه على تقرير الجزاء على العمل فى الآخرة بعد الموت والبعث، وأن السعيد هو

من ظفر برضاء الله يوم الحساب وهو من أدخل الجنة وزحزح من النار ،  
وأولئك هم الفائزون الناجون المستحقون للنعيم المقيم .

١٨٦ - لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى

كَبِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

١٨٧ - وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ

وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا

قَلِيلًا فَبُذِّسَ مَا يَشْتَرُونَ .

١٨٨ - لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا

بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ .

ثلاث آيات كريمة تنطق أولها بوجوب الصبر على أذى أهل الكتاب  
والمشركين ، وتجب للمسلمين التضحية في سبيل رسالتهم السامية ، وهدفهم النبيل .  
وتتحدث الثانية عن نقض أهل الكتاب للعهود والمواثيق التي أخذها الله  
عليهم ، وكتبتهم لما في كتبهم من وجوب الإيمان بمحمد ورسالته ، وتصور  
الثالثة فرح هؤلاء بما أتوه من نبيذ كتاب الله والاتجار بآياته ، وحبهم لأن يحمدا  
بما لم يفعلوا ، ومصيرهم في الآخرة وما سوف ينالهم من عذاب الله .

وقوله تعالى « لتبلون في أموالكم وأنفسكم » قال الرازي : اعلم أنه تعالى لما

سلى الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « كل نفس ذائقة الموت » زاد في تسليته  
بهذه الآية؛ فبين أن الكفار بعد أن آذوا الرسول والمسلمين يوم أحد فسيؤذونهم  
أيضاً في المستقبل بكل طريق يمكنهم من الإيذاء بالنفس والإيذاء بالمال .  
والغرض من هذا الإعلام أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع ، وذلك



لأن الإنسان إذا لم يعلم نزول البلاء عليه ، فإذا نزل البلاء شق ذلك عليه ، أما إذا كان عالماً بأنه سينزل ، فإذا أنزل لم يعظم وقعه عليه ، وعبارة الكشاف :  
خو طب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على ما سيلقون من الأذى والشدائد  
والصبر عليها ، حتى إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه  
الشدّة بغتة فينكرها وتشتمز منها نفسه .

ويصح اتصال هذه الآية - كما قال الإمام محمد عبده - بما قبلها من قوله تعالى  
« ولا تحسبن الذين يبخلون ، الآيات ، فإن فيها ذكر البخل بالمال وذكر حال  
اليهود ، وهذه تذكر البلاء بالمال وما سيلقى المؤمنون من أولئك اليهود  
وغيرهم ، ويصح أن يكون على ما قاله بعضهم متصلاً بما هو قبل ذلك من أول  
واقعة أحد إلى هنا ، كأنه يقول : إن ما وقع من الابتلاء في الأنفس والأموال  
والطعن في تلك الواقعة ليس آخر الابتلاء ، بل لا بد أن تبلوا بعد ذلك بكل  
هذه الضروب منه ، وتجري فيكم سنته تعالى في خلقه ، فلا تظنوا أنكم جالستم  
على عرش العزة واعتصمتم بالمنعة وأمتتم حوادث الكون ، فإنه لا بد أن يعاملكم  
الله تعالى كما يعامل الأمم ، معاملة المختبر المتبلى ، لا يعلم ما لم يكن يعلم من أمركم  
فهو علام الغيوب ، بل ليميز الخبيث من الطيب من بعد ، كما ماز الكثيرين في  
واقعة أحد . والابتلاء في الأموال يفسر بفرض الصدقات وبالبدل في سبيل  
الله - وهو كل ما يوصل إلى الخير - وبالجوائح والآفات ، وهذا الجمع أولى بما  
ذهب إليه بعضهم من تخصيصه بالأول وبعضهم من تخصيصه بالثاني . والابتلاء في  
الأنفس يكون بتكليف بذلها في سبيل الله وبموت من يحب الإنسان من الأهل  
والأصدقاء ، والابتلاء بالتكليف هو أهم الابتلاءين وذلك أن الله تعالى لم  
يكفل للمسلمين الحفظ والنصر والسيادة لأهلهم مسلمون ، وإنما يكلفهم الجرى  
على سنته تعالى كخيرهم ، فلا بد لهم من الاستعداد للمدافعة دائماً ، وذلك يقتضى  
بذل المال والنفس ، ومن هنا تعلم خطأ الذين يفسرون الابتلاء بالمال والأمر  
بيذله والجهاد به ، كل ذلك بالزكاة ، وما الزكاة إلا نوع من أنواع الحقوق التي  
جعلها الله في المال ، وهي كثيرة تشمل كل ما به صلاح الأمة ورفع شأنها من

الأعمال وكل ما يدفع عنها الأعداء ويرد عنها المكاره ، ومن ذلك الابتلاء في المدافعة عن الحق سواء كان بالمال أو بالنفس ، فهو يوطن نفوسهم على الأخذ بالاحتياط في الأمور العامة والاستعانة عليها بالمال وتحمل المكاره ، ويحذرهم من الشره والطمع في المال، حتى إذا طمعوا أو قصروا في الاحتياط كما وقع لهم في أحد علموا أنهم ما أصيبوا إلا بما كسبت أيديهم أو قصرت فيه هممهم فلا يتعللون ، ولا يقولون : كيف أصبنا ونحن مسلمون ؟ وقدم ذكر المال لأنه هو الوسيلة التي يكون بها الاستعداد لبذل النفس ، فبذل المال يحتاج إليه قبل بذل النفس ، أو لأن الإنسان كثيرا ما يبذل نفسه دفاعا عن ماله ، فالذين قالوا : إن المال شقيق الروح لاحظوا الغالب ، ومن غير الغالب أن يقدم الإنسان ماله على نفسه ، علمنا أن فائدة الابتلاء هي تمييز الخبيث من الطيب ، وأما الإخبار به ففائدته التعريف بالسنن الإلهية وتهيئة المؤمن لها وحمله على الاستعداد لمقاومتها فإن من تحدث له النعمة فجأة على غير استعداد ولا سعى ترجى هي من ورائه تدهشه وتبطره ، وربما تهيج عصبه فيقع في داء أو يموت فجأة ، وكذلك من تقع به المصيبة فجأة على غير استعداد، يعظم عليه الأمر ويحيط به الغم حتى يقتله في بعض الأحيان . أما المستعد فإنه يكون ضليعا قويا .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، أي اليهود والنصارى ومن الذين أشركوا ، أي مشركي العرب ، أذى كثيرا ، وذلك أنهم كانوا يقولون : عزير ابن الله والمسيح ابن الله وثالث ثلاثة ، وكانوا يطعنون في النبي صلى الله عليه وسلم بكل ما يقدرون عليه ، وهجاه كعب بن الأشرف ، وكانوا يجرضون الناس على مخالفته صلى الله عليه وسلم ، ويجمعون الجيوش لمحاربهه ويثبطون المسلمين عن نصرته « وإن تصبروا ، على ذلك « وتتقوا ، الله » فإن ذلك من عزم الأمور ، أي من صواب التدبير والرشد الذي ينبغي لكل عاقل أن يقدم عليه . واختلف في سبب نزول هذه الآية : فقال ابن جريج والكلبي ومقاتل : نزلت في أبي بكر وفتحاص ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر إلى فتحاص اليهودي يستمده وكتب إليه كتابا : لاتفتان

على بشيء حتى ترجع إلى ، فجاء أبو بكر رضي الله تعالى عنه وهو متوشح بالسيف ، فأعطاه الكتاب فلما قرأه قال : أحتاج ربك إلى أن نمده ؟ فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف ، فتذكر أبو بكر قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وكف عنه فنزلت ، وقال الزهري : نزلت في كعب بن الأشرف ، فإنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعره ، ويسب المسلمين ، ويحرض المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه في شعره ، ويتغزل بنساء المسلمين . وفي الآية تأويلان : أحدهما : المراد بالمصابرة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على الابتلاء في النفس والمال ، وتحمل الأذى ، وترك المعارضة والمقاتلة ، وذلك أنه أقرب إلى دخول المخالف في الدين ، كقوله تعالى « نقول لا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى » ، وقال تعالى « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » ، وقال تعالى : « وإذا مروا باللغو مروا كراماً » ، وقال تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم » ، وقال تعالى « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » ، قال الواحدى : هذا قبل نزول آية السيف ، وقال القفال : والذي عندي أن هذا ليس بمنسوخ ؛ والظاهر أنها نزلت عقب قصة أحد ، والمعنى أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول عليه الصلاة والسلام من طريق الأقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم في كثير من الأحوال ، والأمر بالقتال لا ينافي الأمر بالمصابرة ، والتأويل الثاني : أن المراد الصبر على مجاهدة الكفار ومنابتهم والإنكار عليهم ، فالصبر عبارة عن احتمال المكروه ، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي .

أما الآية الثانية ، وهي « وإذا أخذ الله الخ » ، فوجه الاتصال بينها وبين ما قبلها ، هو أن الآيات التي قبلها كانت في أهل الكتاب ، وقد تقدم أنه تعالى ذكر أحوال النصارى منهم وحاجهم في أول السورة ، ثم ذكر بعض أحوال اليهود قبل قصة أحد ، ثم عاد إلى بيان بعض شؤونهم بعدها فكان منه ما في هذه الآية وهو كتمان ما أمروا ببيانه واستبدال منفعة حقيرة به لم يفصل بينه وبين

ما قبله فيهم إلا بآيتين قد عرفت حكمة وضعهما في موضعهما . وقال الرازي :  
إعلم أن في كيفية النظم وجهين :

١ - أنه تعالى لما حكى عن اليهود شبهها طاعنة في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأجاب عنها أتبعه بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أوجب في التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته ، والمراد منه التعجب من حالهم ، كأنه قيل : كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صحة نبوته .

٢ - أنه تعالى لما أوجب في الآية المتقدمة على محمد صلى الله عليه وسلم احتمال الأذى من أهل الكتاب ، وكان من جملة إيدائهم للرسول صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يكتمون ما في التوراة والإنجيل من الدلائل على نبوته فكانوا يحرفونها ويذكرون لها تأويلات فاسدة ، فيبين أن هذا من تلك الجملة التي يجب فيها الصبر ، وقد علمت ما هو المراد بالأذى في تفسير الآية السابقة .

ويروى الإمام محمد عبده : أن وجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها هو أن ما ذكر في الآية السابقة من البلاء الذي يصاب به المؤمنون إنما يصابون به لا خذم بالحق ودعوتهم إليه ومحافظتهم في الشدائد عليه ، فناسب بعد ذكر البلاء الذي أخبر الله به المؤمنين ووطن عليه نفوسهم ليثبتوا ويصبروا أن يذكر لهم مثل الذين خلوا من قبلهم ، إذ أخذ عليهم الميثاق ببيان الحق ، فكان من أمرهم ما استحقوا به الوعيد المذكور في الآية . فهو يذكر المؤمنين بذلك ، كأنه يقول لهم : إنكم إذا كنتم ما أنزل عليكم يكون وعيدكم كوعيدهم .

وقوله تعالى « وإذ ، أي اذكر وقت ذلك ، والمراد ذكر ذلك نفسه » أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ، أي العهد عليهم في التوراة على علمائهم « لتبيننه » أي الكتاب « للناس ولا تكتمونه » أي بكنتم تبليغه للناس أو بتحريفه « فنبذوه » أي طرحوا الميثاق « وراء ظهورهم » أي لم يعملوا به ولم يلتفتوا إليه

« واشتروا به ، أى أخذوا بدله » ثمنا قليلا ، من حطام الدنيا وأعراضها من سفلتهم برياستهم فى العلم ، فكتموه خوف فوتها عليهم ؛ وقوله تعالى « فبئس ما يشترون ، أى يشترونه ، قال قتادة رضى الله تعالى عنه : هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه ، وإياكم وكتبان العلم فانه هلكة . وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثكم بشىء... ثم تلا هذه الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ، وقال أبو الحسن بن عماره رضى الله تعالى عنه : أتيت الزهرى بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابة فقلت : إن رأيت أن تحدثنى ، فقال : أما علمت أنى تركت الحديث؟ فقلت : إما أن تحدثنى وإما أن أحدثك ، فقال : حدثنى ، فقلت : حدثنى الحكم بن عيينة عن يحيى بن الجزار قال : سمعت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول : ما أخذ الله على أهل الجمل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ، قال : فحدثنى أربعين حديثا ، لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، أى فعلوا من إضلال الناس ، ويجبون أن يحمدوا ، بما أتوا من علم التوراة « أو » بما لم يفعلوا ، من التمسك بالحق وهم على ضلال وهذا أيضا فى اليهود ، أى يجبون أن يحمدوا بأنهم أهل البر والصدق والتقوى ، ولا شك أن الإنسان يتأذى بمشاهدة مثل هذه الأحوال ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر عليها ، روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شىء مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه ، وأروه أنهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا ، فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وسلاه بما أنزل من وعيدهم ، أى لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ، ويجبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب ؛ وقيل : هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة فى التخلف واستحمدوا به ، وقيل : هم المنافقون ؛ فإنهم يفرحون بمناقضتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذين لم يفعلوه على الحقيقة ، ويجوز أن

يكون شاملا لكل من يأتي بحسنة ، فيفرح بها فرح إعجاب ، ويجب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد بما ليس فيه .

وروى الشيخان وغيرهما عن طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن مروان قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لعذبن ، فقال ابن عباس : ما لكم وهذه ، إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أرووه أنهم قد أخبروه بما سألهم عنه . واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه . وأخرج الشيخان أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري : أن رجلاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم بخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن زيد بن أسلم أن رافع بن خديج وزيد بن ثابت كانا عند مروان ، فقال مروان : يارافع في أي شيء أنزلت هذه الآية ، لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، قال رافع : أنزلت في ناس من المنافقين كانوا إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم اعتذروا وقالوا : ما حبسنا عنكم إلا شغل فلوددنا لو كنا معكم . فأنزل الله فيهم هذه الآية ، وكان مروان أنكرك ذلك فجزع رافع من ذلك ، فقال لزيد بن ثابت : أنشدك الله هل تعلم ما أقول ؟ قال : نعم . قال الحافظ ابن حجر : يجمع بين هذا وبين قول ابن عباس : بأنه يمكن أن تكون نزلت في الفريقين معاً ، قال : وحكى الفراء أنها نزلت في قول اليهود : نحن اليهود نحن أهل الكتاب الأول والصلاة والطاعة ، ومع ذلك لا يقرون بمحمد . ولا مانع أن تكون نزلت في كل ذلك . وما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس في ذلك أنه قال : هم أهل الكتاب ، أنزل عليهم الكتاب فحكوا بغير الحق ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فرحوا بأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل الله ، وهم يزعمون أنهم يعبدون الله ويصلون ويطيعون الله . وروى

عن الضحاك أنهم فرحوا بما أتوا من تكذيب النبي والكفر به ، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا وهو قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ونحن أهل الصلاة والصيام وهذا وجه وجيه ، وهو الذي اختاره ابن جرير ، وبمثل هذا العموم يوجه نزولها في المنافقين . ويقول الإمام محمد عبده : كان الكلام في أهل الكتاب لتحذير المسلمين من مثل فعلهم في سياق الحض على الاستمسك بعروة الحق وحفظه والدعوة إليه ، إذ أخذ على أولئك الميثاق فقصروا فيه ، وتركوا العمل بالكتاب وتبينه للناس واشتروا به ثمنا قليلا ، فاستحقوا العقاب من الله تعالى بعد هذا بين في هذه الآية حالا آخر من أحوال أولئك الغابرين ليحذر المؤمنون منه ، لأنهم عرضة له ، وهو أنهم كانوا يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب ، ويرون لأنفسهم شرفا فيه وفضلا بأنهم أئمة يقتدى بهم ، وهذا فرح بالباطل ، وكانوا يحبون أن يحمدا بأنهم حفاظ للكتاب ومفسروه وعلماؤه ومبينوه والمقيمون له ، وهم لم يفعلوا شيئا من ذلك بل فعلوا تقيضه ، إذ حولوه عن الهداية إلى ما يوافق أهواء الحكام وأهواء سائر الناس ، يطلبون بذلك حمدهم - بين الله هذه الحال في أسلوب عجيب بين فيه حكما آخر ، وهو أن هؤلاء الفرحين المحبين للمحمدة الباطلة قد اشتبه أمرهم على الناس ، فهم يحسبون أنهم أولياء الله وأنصار دينه وعلماؤه كتابه ، وأنهم أبعد الناس عن عذابه وأقربهم من رضوانه فيبين الله كذب هذا الحسبان ونهى عنه وسجل عليهم العذاب . ويقول الشيخ رشيد رضا : إن هذه الآية على عمومها مبينة لشيء من الثمن الذي استبدلوه بكتاب الله وكونه بشئ الثمن ، وهو أمران :

١ - فرحهم بما أتوه من الأعمال فرح غرور وخيلاء ونخر ، على أن منه نبذ كتاب الله بترك العمل به وعدم تبيينه على وجهه : إما بتحريفه عن مواضعه ليوافق أهواء الحكام ، أو أهواء الناس ، وإما بالسكوت عنه والأخذ بكلام العلماء السابقين تقليدا بغير حجة ، إلا ادعاء أنهم كانوا أعلم بالكتاب ، وأنهم إن خالفوا بعض نصوصه فلا بد أن يكون عندهم دليل أوجب عليهم ذلك .

٢ - حب المدح والثناء بالباطل، فإنهم يتبعون أهواء الحكام والناس في الدين، ويحبون أن يحمداً بأنهم يبينون الحق لوجه الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، فإن الحاكم أو غير الحاكم إذا احتاج إلى عمل يرضى به هو أو شهوته بما يحظره عليه الدين فلجأ إلى العالم فعلمه حيلة شرعية يسلم بها من نقد الناقدين وذم المتدينين، فلا شك أنه يحمداً ذلك العالم ويطريه بأنه العالم التقى المحقق، لا مكافأة له فقط، بل يرى من مصلحته أن يعتقد الناس العلم والصلاح في مفتيه ليأخذوا كلامه بالقبول، وقوله تعالى: «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب»، أي لا تظن يا محمد أو أيها المخاطب أنهم بمنجاة من العذاب الدنيوي، أي متلبسون بالفوز والنجاة منه، وهو العذاب الذي يصيب الأمم التي فسدت أخلاقها وساءت أعمالها وكأبرت الحق والعدل، وألفت الفساد والظلم، وهو على قسمين:

١ - عذاب هو أثر طبيعي اجتماعي للحال التي يكون عليها المبطلون بحسب سنة الله في الاجتماع البشري، وهو خذلان أهل الباطل والإفساد وانكسارهم وذهاب استقلالهم بنصر أهل الحق والعدل عليهم وتمكينهم من رقابهم وديارهم وأموالهم، ليحل الإصلاح محل الإفساد والعدل مكان الظلم «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد».

٢ - وعذاب لا يكون أثراً طبيعياً بل يسمى سخطاً سماوياً، كالزلازل والخسوف والظوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التي نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بهم وكذبوهم وآذوهم، فكان الله يوفق بين أسباب ذلك العذاب المعتادة وأقدارها، فيزلها بالقوم عند اشتداد عتوهم وإيذائهم لرسوله فيكونون من الهالكين.

وقوله تعالى: «ولهم عذاب أليم»، أي في الآخرة، فإن فساد أخلاقهم وفرحهم وبطورهم وصغارهم الذي زين لهم حب الحمد الكاذب بالباطل جعل أرواحهم مظلمة دنسة، فهي التي تهبط بهم إلى الهاوية حيث يلاقون ذلك العذاب المؤلم.



وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله تعالى « فلا تحسبنهم » تأكيد لقوله « ولا تحسبن الذين » كما هو معهود في الكلام العربي من إعادة الفعل إذا طال الفصل بينه وبين معموله . قال الزجاج : إن العرب إذا أطالت القصة تعيد « حسبت » وما أشبهها إعلاما بأن الذي جرى متصل بالاول . فتقول : لا تظنن زيدا إذا جاءك وكلبك بكذا وكذا فلا تظنه صادقا ، فيفيد لا تظنن توكيدا وتوضيحا ، والفاء زائدة . ويرى الإمام محمد عبده أن جملة قوله تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » فيها حذف ، والتقدير : لا تحسبنهم مطيعين لربهم أو عاملين بهدأيته ، وقوله « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » جملة أخرى مرتبة على الجملة الأولى وهي منها بسبب .

١٨٩ - وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضِ وَ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ .

١٩٠ - اِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضِ وَ اخْتِلَافِ الْاَيْلِ وَ النَّهَارِ  
لآيٰتٍ لِّاُولِي الْاَلْبَابِ .

١٩١ - الَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللّٰهَ قِيَمًا وَّمَعُوْدًا وَّ عَلٰى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ  
فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطْلًا  
سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

١٩٢ - رَبَّنَا اِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ اَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ  
مِنْ اَنْصَارٍ .

١٩٣ - رَبَّنَا اِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْاِيْمٰنِ اَنْ اٰمِنُوْا بِرَبِّكُمْ  
فَاٰمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا  
مَعَ الْاَبْرَارِ .

١٩٤ - رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ .

١٩٥ - فَأَسْتَجِيبَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعَ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مَّنْ  
ذَكَرَ أَوْ أَتَىٰ بِمَعْزُومٍ مِّنْ بَعْضِ مَا الَّذِينَ هَاجَرُوا  
وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا  
لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَانَهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

سبع آيات رائعات جامعات فيها تمجيد لله وقدرته ، وتوحيده بخلقه وسلطانه  
وعظمته ، وتصوير لإخلاص المؤمنين لذاته ، وتطلعهم إلى وجهه ، وتضرعهم  
لمقامه الكريم ، وفيها إنابة عن كامل قدرة الله في السماء والأرض وما بينهما ،  
وهو القادر الحكيم ، والعلی العظيم ، والمالك المهيمن العزيز الكبير .

وأولى هذه الآيات قد عطفت على ما قبلها لاتصالها بالآيات التي قبلها ،  
فالواو فيها عاطفة للجملة المستقلة على مثلها . كأنه يقول : لا تحزنوا أيها  
المؤمنون ولا تضعفوا واصبروا وانقوا ولا تخورن عزائمكم ، وبينوا الحق  
ولا تكتموا منه شيئاً ، ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، ولا تفرحوا بما  
عملتم ، ولا تحبوا أن تحمدوا بما لم تفعلوا ؛ فإن الله تعالى يكفيكم ما أهمكم ويفنيكم  
عن هذه المنكرات التي نهيتم عنها ، فإن ملك السموات والأرض كله له ، يعطى  
منه ما يشاء وهو على كل شيء قدير ، لا يعز عليه نصركم على الذين يؤذونكم  
بأيديهم وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين ، وإليه ترجع الأمور ، لأنه  
هو الذي يديرها بحكمته وسننه في خلقه . وفي هذا التذييل حجة على كون الخير  
في اتباع ما أرشد إليه تعالى ، وتسوية للنبي ﷺ وللمؤمنين ، ووعد لهم  
بالنصر ، وفيه تعريض بدم أولئك المخالفين الذين سبق وصفهم في الآيات  
التي قبل هذه الآية ، وهو أنهم لا يؤمنون بالله تعالى إيماناً صحيحاً يظهر أثره

في أخلاقهم وأعمالهم ، وإلا لما تركوا العمل بكتابه وآثروا عليه ما يستفيدونه .  
من حطام الدنيا ، فإن هذا لا يكون إلا من عدم الثقة بوعده تعالى والخوف  
من وعيده واليقين بقدرته وتدييره .

والآية الثانية وما بعدها جاءت بعد أفاعيل أهل الكتاب وغيرهم مع  
المؤمنين ، فهي تدل على أن أولئك المجاهدين لو كانوا يتفكرون في خلق السموات  
والأرض اكفوا من غرورهم ، ولعلموا أنه يليق بحكمته تعالى أن يرسل  
إلى الناس رسولا من أنفسهم ، ولكنه جعل الآية مطلقة موجهة إلى أولى  
الآليات ، ليطلق النظر لكل عاقل . وقال الرازي : اعلم أن المقصود من هذا  
الكتاب الكريم : جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق ، إلى  
الاستغراق في معرفة الحق ، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب  
عن شبهات المبطلين ، عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والألوهية  
والكبرياء ، والجلال ، فذكر هذه الآية . ويقول الشيخ رشيد رضا في ذلك :  
وقد بينا في وجه اتصال هذه السورة بما قبلها عند الابتداء بتفسيرها أن كلا  
منهما مفتحة بذكر الكتاب وشئون الناس فيه . ومختمة بالثناء على الله عز وجل  
ودعائه . وقد ذكرنا سببا لنزول هذه الآية على عدم تعلقها بالحوادث . فقد  
أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود ،  
فقالوا : بم جاءكم موسى من الآيات ؟ فقالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين ،  
وأثو النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص  
ويحيي الموتى ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا  
ذهبا ، فدعا ربه فنزلت آية : « إن في خلق السموات ، الخ .. »

وقوله تعالى : « والله ملك السموات والأرض ، أي فهو يملك أمرهما  
وما فيهما من خزائن المطر والرزق والنبات وغير ذلك » والله على كل شيء قدير ،  
ومنه تعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين « إن في خلق السموات والأرض ،  
وما فيهما من العجائب - والسموات : ما علاك بما تراه فوقك ، والأرض : ما تعيش  
عليه ، والخلق : التقدير والترتيب واختلاف الليل والنهار ، أي بالجمي »

والذهاب والزيادة والنقصان ، آيات ، أى دلالات واضحة على قدرته تعالى وباهر حكمته ، لاولى الألباب ، أى لذوى العقول الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ، ولا ينظرون إليها غافلين عما فيها من عجائب الخلق - أيها المؤمن : املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلها في جملة هذه العجائب ، متفكراً في قدرة مقدرها ، متدبراً حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر ، وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : قلت لعائشة رضى الله تعالى عنها : أخبريني بأعجب ما رأيت من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وأطالت ثم قالت : كل أمره عجب : أتاني في ليلة فدخل في لحافى حتى التصق جلده بجملدى ، ثم قال : يا عائشة هل لك أن تأذنى الليلة في عبادة ربى ؟ فقلت : يا رسول الله إني لأحب قربك وأجيب هواك فقد أذنت لك ، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ، ثم قام يصلى فقرا من القرآن وجعل يبكى ، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكى ، ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة العداة فرآه يبكى ، فقال يا رسول الله : أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال يا بلال : أفلا أكون عبداً شكوراً ، ثم قال : وما لى لأبكي وقد أنزل الله على فى هذه الليلة ، إن فى خلق السموات والأرض ، ثم قال : وبلى لمن قراها ولم يتفكر فيها ، وروى : «ويل لمن لا كفا بين فكيه ولم يتأملها ، وعن على رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول : إن فى خلق السموات والأرض ، .. الخ .

وفى خلق السماء وما فيها من كواكب ونجوم وسدم ، وفى خلق الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال ورمال ، ومدن عامرة وصحارى مقفرة ، ومن معادن ومنافع ، ومن زرع ونبات ، وأشجار وغابات ، ومن أراض شاسعة ، وأقطار مترامية الأطراف . فى ذلك كله دلائل واضحة على قدرته وعظمته وكامل تدييره فى خلقه - إن فى اختلاف الليل والنهار بتعاقبهما على الأرض ، ينبىء هذا عقب ذلك ، وينبىء ذلك عقب هذا ، وفى اختلافهما بالزيادة والنقصان

والحجىء والذهاب ؛ فى كل ذلك عبرة وعظة بالغة لذوى العقول الذين يجب عليهم أن يتفكروا فى خلق السموات والأرض ودلائل هذا الخلق على وجود الله وقدرته ، ولذلك قال الله تعالى عقب ذلك « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، أى مضطجعين ، أى يذكرونه دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين ، لأن الإنسان قل أن يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث ، وروى الطبرانى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال : من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله ، وعن ابن عباس رضى الله عنه : هذا فى الصلاة يصلى قائما فإن لم يستطع فقاعدا فإن لم يستطع فعلى جنب ، وعن عمران بن حصين قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة المريض فقال : يصلى قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جنب ، والمعنى يذكرونه قياما وقعودا ومضطجعين ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، وما أبدع فيهما ، ليدلهم ذلك على قدرة الله تعالى ، ويعرفون أن لهما مدبرا حكما ، قال بعض العلماء : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث فى القلب الخشية ، كما يحدث الماء للزرع والنبات ، وما جللت القلوب بمثل الأحزان ، ولا استنارت بمثل الفكرة ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم : لا تفضلوني على يونس بن متى أى تفضيلا يودى إلى تنقيصه ، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا عبادة كالتفكير ، أى لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق ، وهذا الحديث رواه البيهقى وغيره وضعفوه ، وقال صلى الله عليه وسلم : بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال : أشهد أن لك ربا ومخالقا ، اللهم اغفر لى ، فنظر الله إليه فغفر له .

وقوله تعالى « ربنا ما خلقت هذا باطلا ، على إرادة القول أى يتفكرون قائلين ذلك ، وهذا إشارة إلى الخلق بمعنى المخلوق من السموات والأرض ، لأنهما فى معنى المخلوق ، والمعنى : ما خلقتة عبثا من غير حكمة ، بل خلقتة لحكم عظيمة ، من جملتها : أن يكون مبدأ لوجود الإنسان ، وسببا لمعاشه ، ودليلا يدل على معرفة الله ويحث على طاعته ، لينال الحياة الأبدية والسعادة

السرمدية « سبحانك ، أى تنزيها لك عن العبث ، وهو معترض بين قوله « ربنا »  
وبين قوله « فقنا عذاب النار ، أى للإخلال بالنظر فى خلق السموات والأرض  
والقيام بما يقتضيه ، وقال أبو البقاء : ودخلت الفاء لمعنى الجزاء ، والتقدير :  
إذا نزهناك أو وحدناك فقنا عذاب النار ، وقيل : لاجابة لهذا التقدير إذ  
التسبب فيها ظاهر ، فقد تسبب عن قولهم « سبحانك » طلبهم وقاية النار .

هذا وقد يتفكر المرء فى عجائب السموات والأرض وأسرارها فيهما من  
الإتقان والإبداع والمنافع الدالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والنعم السابغة  
والقدرة التامة ، وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم الذى خلق ذلك فى  
أبداع نظام ، وكمن ناظر إلى صنعة بديعة لا يخطر فى باله صانعها اشتغالا بها  
عنه ، فالذين يشتغلون بعلم ما فى السموات والأرض هم غافلون عن خالقهما  
ذاهلون عن ذكره ، يتمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة  
من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل ، والفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون  
فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد فى الدنيا والآخرة لا تكمل  
فائدته إلا بالفكر ، فيأطوبى لمن جمع بين الأمرين ، واستمتع بهاتين اللذتين ،  
فكان من الذين أوتوا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ونجوا من عذاب  
النار فى الآخرة ، فتلك النعمة التى لا تفضلها نعمة ، واللذة التى لا تعلوها لذة ،  
لأنها هى التى يهون معها كل كرب ، ويسلس كل صعب ، وتعظم كل نعمة ،  
وتنضاد كل نقمة ، تلك اللذة التى تتجلى مع الذكر فى كل شىء فيكون فى  
عين ناظره جميلاً ، وفى كل صوت فيكون فى سمع سامعه مطرباً ، وإذا تفكر  
الذاكر فى تقصيره من حيث هو إنسان ، عن شكر المنعم عليه بكل شىء  
يتمتع به ، وعن القيام بما يصل إليه استعداده من معرفته . استولى عليه سلطان  
الجلال ، فتعلو همته فى طلب الكمال ، فينطلق لسانه بالحمد والثناء ، والشكر  
والدعاء ، والتنزيه الكامل لله رب العالمين . . .

ومعنى « ربنا ما خلقت هذا باطلا ، الخ : هذا حكاية لقول هؤلاء الذين  
يجمعون بين تفكيرهم وذكر الله عز وجل ، ويستنبطون من اقترانهما الدلائل

على حكمة الله وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأكوان التي تربط الإنسان بربه حق الربط وقد أكتفى بحكاية مناجاتهم لربهم عن بيان نتائج ذكرهم وفكرهم، فطلى هذه وذكر تلك من إيجاز القرآن البديع، وفيه تعليم المؤمنين كيف يخاطبون الله تعالى عند ما يهتدون إلى شيء من معاني إحسانه وكرمه وبدائع خلقه، كأنه يقول: هذا هو شأن المؤمن الذاكر المتفكر، يتوجه إلى الله في هذه الأحوال، يمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال، وكون هذا ضرباً من ضروب التعليم والإرشاد، لا يمنع أن بعض المؤمنين قد نظروا وذكروا وفكروا ثم قالوا هذا أو ما يؤدي معناه، فذكر الله حالهم وابتهاهم، ولم يذكر قصتهم وأسماءهم، لأجل أن يكونوا قدوة لنا في عملهم وأسوة في سيرتهم.

وأما معنى كون هذا الخلق لا يكون باطلاً، فهو أن هذا الإبداع في الخلق، والإتيان للصنع، لا يمكن أن يكون من العبث والباطل، ولا يمكن أن يفعله الحكيم العليم لهذه الحياة الفانية فقط، كما أن الإنسان الذي أوتي العقل الذي يفهم هذه الحكم، ودقائق هذا الصنع، وكلما ازداد تفكيراً، ازداد علماً، حتى أنه لا حد يعرف لفهمه وعلمه؛ لا يمكن أن يكون وجد ليعيش قليلاً ثم يذهب سدى، ويتلاشى فيكون باطلاً، بل لا بد أن يكون باستعداده الذي لا نهاية له قد خلق ليحيا حياة لا نهاية لها، وهي الحياة الآخرة التي يرى كل عامل فيها جزاء عمله، ولهذا وصل الثناء بهذا الدعاء، ومعناه: جنبنا السيئات، ووفقنا للأعمال الصالحات، حتى يكون ذلك وقاية لنا من عذاب النار، وهذه هي نتيجة فسر المؤمن.

«ربنا إنك من تدخل النار، أي للخلود فيها» فقد أخزيتته، أي أهنته وما للظالمين، أي للكافرين «من أنصار»، أي ليس لهم أنصار أي أنصار و«من» للتأكيد «ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي، أي يدعو الناس للإيمان» إليه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن العظيم «أن، أي بأن» آمنوا بربكم فآمنوا، به. وفائدة الجمع بين منادياً وينادى أنه ذكر المبدأ مطلقاً ثم عقيدا بالإيمان تفخيماً لشأن المنادى، لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادى

للإيمان ، نحو قولك : مررت بهاد يهدى للإسلام . وذلك أن المنادى إذا أطلق  
ذهب الوهم إلى مناد للحرب ، أو لإغاثة المكروب أو نحو ذلك . وكذا  
الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك ، فإذا  
قلت : ينادى للإيمان ويهدى للإسلام ، فقد رفعت من شأن المنادى والهادى  
ونفخته ، ويقال دعاه لكذا وإلى كذا « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، أى الكبائر  
منها » وكفر عنا سيئاتنا ، أى الصغائر منها ، أو يكون ذلك من باب التعميم  
والاستيعاب كقوله « الرحمن الرحيم » ، ولأن الإلحاح والمبالغة فى الدعاء  
أمر مطلوب « وتوفنا مع الأبرار » أى مخصوصين بصحبتهم معدودين فى  
جملتهم ، وهم الأنبياء والصالحون ، وفيه تذييه على أنهم محبوبون لقاء الله ، ومن أحب  
لقاء الله أحب الله لقاءه - رواه الشيخان « ربنا وآتنا ، أى أعطنا » ما وعدتنا ،  
به « على ، السنة « رسلك ، من الرحمة والفضل . . . وسؤالهم ذلك وإن كان  
وعده تعالى لا يخلف - هو سؤال أن يجعلهم من مستحقيه ، لأنهم لم يتيقنوا  
استحقاقهم لتلك الكرامة ، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها ، وتكرير « ربنا ،  
مبالغة فى التضرع « ولا تخزنا ، أى ولا تعذبنا ولا تفضحنا ولا تهنا « يوم  
القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، أى الموعد ، أى الوعد نفسه ، وعن ابن عباس :  
الميعاد : البعث بعد الموت « فاستجاب لهم ربهم ، أى دعاهم ، وهو أخص من  
أجاب ، لأنه يفيد حصول جميع المطلوب « أنى ، أى بأنى « لا أضيع عمل  
عامل منكم ، وقوله تعالى « من ذكر أو أنسى بعضهم من بعض ، أى يجمع  
ذكركم وأنثاكم أصل واحد ، فكل واحد منكم من الآخر ، أى الذكور من  
الإناث والإناث من الذكور ، وقيل : المراد وصلة الإسلام . وروى أن أم  
سلمة قالت : يا رسول الله ، أسمع الله يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر  
النساء ، فنزلت .

فقد بين الله تعالى علة هذه المساواة بقوله « بعضهم من بعض » ، فالرجل  
مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل ، فلا فرق بينهما فى البشرية  
ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال ، أى وما تترتب عليه الأعمال ويترتب هو



عليها من العلوم والأخلاق . وفيه وجه آخر - على ما يرى الشيخ رشيد رضا - وهو أن كلا منهما صنو وزوج وشقيق للآخر، وفي معنى ذلك حديث « النساء شقائق الرجال » قالوا : أي مثلهم في الطباع والأخلاق كأنهم مشتقات منهم ، أو لأنهم معهم من أصل واحد . ووجه ثالث : أنه بمعنى حديث : « سلمان منا » وحديث « ليس منا من دعا إلى عصبية » فمضى « منا » أي على طريقتنا وما نحن عليه لا فرق بيننا وبينه . وهذه الآية ترفع قدر النساء المسلمات في أنفسهن وعند الرجال المسلمين . ومن علم أن جميع الأمم كانت تهضم حق المرأة قبل الإسلام وتعدّها كالبهيمة المسخرة لمصلحة الرجال وشهوته ، وعلم أن بعض الأديان فضلت الرجل على المرأة بمجرد كونه ذكرا وكونها أنثى ، وبعض الناس عد المرأة غير أهل للتكاليف الدينية ، وزعموا أنها ليس لها روح خالدة . من علم هذا قدر هذا الإصلاح الإسلامي لعقائد الأمم ومعاملاتها حق قدره ، وتبين له أن ما تدعيه أوروبا من السبق إلى الاعتراف بكرامة المرأة ومساواتها للرجل باطل . ولا تزال شرائعهم وتقاليدهم الدينية والمدنية تميز الرجل على المرأة .

ويقول الإمام محمد عبده : إنه لم يكتف بربط الجزاء بالعمل حتى بين أن العمل هو الذي يستحقون به ما طلبوا : من تكفير السيئات ودخول الجنة فقال « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم » ، ذكر الإخراج من الديار بعد الهجرة من باب التفصيل بعد الإجمال ، فالهجرة إنما كانت وتكون بالإخراج من الديار ، وتستتبع ما ذكر في قوله « وأوذوا في سبيلهم وقتلوا وقتلوا » أي في سبيل الله ودينه الحق . .

وقوله تعالى « لا كفرن عنهم سيئاتهم » أي أغفرها لهم وأصفح عن ذنوبهم « ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار » أي يتمتعون بما فيها من مناظر بديعة ، وحياة شريفة ، ومشاهد عجيبة .

وهكذا يذكر الله تعالى صفات المؤمنين لينبئنا إلى أن نرجع إلى أنفسنا

وتمتحنها بهذه الأعمال والصفات ، فإن رأيناها تحتل الإيداء في سبيل الله حتى القتل فلنبشرها بالصدق منها والرضوان منه تعالى ، وإلا فعلينا أن نسعى لتحصيل هذه المرتبة التي لا ينجى عنده غيرها . وإنما كلف الله المؤمنين الصادقين الموقنين المخلصين هذا التكليف الشاق ، لأن قيام الحق مرتبط به وإنما سعادتهم ، من حيث هم ، مؤمنون بقيام الحق وتأيدته ، والحق في كل زمان ومكان محتاج إلى أهله لينصروه على أهل الباطل الذين يقاومونه . والحق والباطل يتصارعان دائماً ، ولكل منهما حزب ينصره ، فيجب على أنصار الحق أن لا يفشلوا ولا ينهزموا ، بل عليهم أن يثبتوا ويصبروا ، حتى تكون كلمته العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى .

وهذه الصفات تجتمع وتفترق - كما يقول الشيخ رشيد رضا - فمن المهاجرين من ترك وطنه مختاراً ولم يخرج منه إخراجاً ، بل من الصحابة من هاجر مستخفياً لئلا يمنعه المشركون . ولكن قد يقال : إنهم إذا لم يكونوا أمرهم بالهجرة أمراً . وأخرجوهم من ديارهم قسراً . فإنهم قد ضيقوا عليهم المسالك . حتى ألقوا بهم إلى ذلك . ومنهم من أودى ولم يخرج المشركون ولا مكنوه من الخروج .

وقوله تعالى «ثواباً من عند الله» معناه : لا كفرن عنهم سيئاتهم وأدخلنهم الجنات ، أثيبهم بذلك ثواباً من النوع العالى الكريم الذى عند الله لا يقدر عليه غيره ، والثواب : اسم من مادة ثاب يشوب ثوباً أى رجوع ، يقال : تفرق عنه أصحابه ثم تابوا إليه ، والمجاز : تاب إليه عقله وحلمه - إذا كان خرج عن مقتضى العقل والحلم بنحو غضب شديد ثم سكت عنه غضبه ؛ ومنه : جعل البيت الحرام مثابة للناس ، فإنهم يعودون إليه بعد مفارقتة ، ولذلك قال الراغب : الثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثواباً تصوراً أنه هو هو ، ألا ترى كيف جعل الله تعالى الجزاء نفس الفعل في قوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ولم يقل جزاءه ، والثواب يقال في الخير والشر ، لكن الأكثر المتعارف في الخير ، وعلى هذا قوله عز وجل : « ثواباً

من عند الله والله عنده حسن الثواب ، ولفظ الثواب والمثوبة حيث وقع وما في معناه من ذكر الجزاء بالعبارات التي تدل على أنه عين العمل ، كل ذلك يؤيد أن الجزاء أثر طبيعي للعمل - كما يقول الشيخ رشيد رضا - أي أن للأعمال تأثيرا في نفس العامل تزكيتها ، فتكون بها منعمة في الآخرة ، أو تدنسها ، فتكون معذبة فيها بحسب سنة الله تعالى .

وقال الإمام الرازي : « في الآية تنبيه على أن استجابة الدعاء مشروطة بهذه الأمور ، أي العمل الصالح مع الهجرة واحتمال الإخراج من الوطن والإيذاء في سبيل الحق والخير والقتل والقتال فيه ؛ فلما كان حصول هذا الشرط عزيزا كان الشخص المحاب الدعاء عزيزا ، . وليس المراد أنه لا يضيع نفس العمل ؛ لأن العمل كلما وجد تلاشى وفنى ؛ بل المراد أنه لا يضيع ثواب العمل ، والإضاعة عبارة عن ترك الإثابة ، فقوله ، لا أضيع ، نفي للنفي فيكون إثباتا ، فيصير المعنى : إني أوصل ثواب جميع أعمالكم إليكم ؛ فالآية دالة على أن أحدا من المؤمنين لا يبقى في النار مخلدا ، والدليل عليه أنه بإيمانه استحق ثوابا وبمعصيته استحق عقابا ؛ فلا بد من وصولها إليه بحكم هذه الآية ، والجمع بينهما محال . فإما أن يقدم الثواب ثم ينقله إلى العقاب وهو باطل بالإجماع ، أو يقدم العقاب ثم ينقله إلى الثواب وهو المطلوب .

ثم إنه تعالى وعد من فعل هذا بأمور ثلاثة :

- ١ - نحو السيئات وغفران الذنوب وهو قوله ، لا كفر عنهم سيئاتهم ، وذلك هو الذي طلبوه بقولهم « فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » .
- ٢ - إعطاء الثواب العظيم وهو قوله ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وهو الذي طلبوه بقولهم « وآتانا ما وعدتنا على رسلك » .
- ٣ - أن يكون هذا الثواب ثوابا عظيما مقرونا بالتعظيم والإجلال وهو قوله « من عند الله » وهو الذي قالوه « ولا تخزنا يوم القيامة » لأنه سبحانه هو العظيم الذي لا نهاية لعظمته ، وإذا قال السلطان العظيم لعبده : إني أخلع عليك خلعة من عندي - دل ذلك على كون تلك الخلعة في نهاية الشرف .

« والله عنده حسن الثواب ، هذا تأكيد لما قبله من أن الثواب من عند الله  
ليبين أن هذا الجزاء بمحض الفضل والكرم الإلهي ، وإن كان جزاء على عمل .

١٩٦ - لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ .

١٩٧ - مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

١٩٨ - أَلَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ  
خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .

١٩٩ - وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ  
إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِبَيِّنَاتِ  
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ .

٢٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا  
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يقول الرازي : اعلم أنه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب العظيم وكانوا في  
الدنيا في نهاية الفقر والشدة ، والكفار كانوا في النعم - ذكر الله تعالى في هذه  
الآية ما يسليهم ويصبرهم على تلك الشدة . ويقول الإمام محمد عبده كما في تفسير  
المنار : كان الكلام في أولى الألباب المؤمنين ، وقد علمنا أن الله تعالى يستجيب  
لهم بالأعمال ، فالعبرة بالعمل ، ومنه المهاجرة وتحمل الإيذاء في سبيل الله  
وبذل النفس في القتال حتى يقتلوا ، وبذلك يستحقون ثواب الله تعالى ، ثم  
ذكر حال الكافرين للمقابلة وربط الكلام بما قبله بالنهي عن الاغترار بما هم  
فيه من نعم وتمتع ، كآية يقول : على المؤمن أن يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب

الذى وعدته فهو النعيم الحقيقي الباقي . وهذا الذى فيه الكافرون متاع قليل فلا تطلبوه ولا تحفلوا به ، يسهل بهذا على المسلمين ما كلفوه من تحمل الإيذاء والعناء فى إقامة الحق .

إن هذه الآيات الخمس فيها موازنة بين الكافرين والمتقين ، بين مصير هؤلاء وأولئك فى الآخرة .. وفيها رسم للمنهج المثالى لأهل الكتاب الذين يريدون النجاة فى الدنيا وفى الآخرة عند الله ، وهو أن يؤمنوا بالله وبرسالات الأنبياء من قبل ومن بعد ؛ فيؤمنوا برسالة رسوله ، وبرسالة محمد عليه السلام خاتمة الرسالات .. وفيها دعوة للمؤمنين ليصبروا على آلام الجهاد ، ويتحملوا مسئوليات الكفاح من أجل الإسلام ونشره فى الآفاق ..

ثم فى صدرها كذلك تسليية للرسول وللمؤمنين ، حتى لا يأسوا من فضل الله وهم يجاهدون أعداء الله ، وحتى يصمدوا فى كفاحهم فى سبيل نشر الإسلام فى الأرض .

ويروى فى سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات الخمس أنه لما كان المشركون فى رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون ، قال بعض المؤمنين : إن أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد ، فنزل قوله تعالى : « لا يفرئك قلب ، أى تصرف » الذين كفروا فى البلاد ، للتجارات وأنواع المكاسب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، وقوله تعالى « متاع قليل ، أى ذلك القلب متاع قليل يتمتعون به فى الدنيا يسيرا ويفنى ، فهو قليل فى جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة ، أو فى جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب » قال صلى الله عليه وسلم : ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر به يرجع - رواه مسلم ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : جئت لزيارة رسول الله فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء ، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف ، فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت فقال : ما يبكيك ؟ فقلت يا رسول الله : إن كسرى وقبصر فيما فيه وأنت رسول الله ، فقال : أما ترى أن تكون لهم الدنيا

ولنا الآخرة ؟ ثم ما واهم ، أى مصيرهم « جهنم وبئس المهاد ، أى الفراش هى  
« لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين ، أى  
مقدرين الخلود « فيها نزلا من عند الله ، النزل : ما يعد للضيف « وما ، أى  
والذى « عند الله ، من الثواب لكثرة ودوامه « خير الأبرار ، بما يتقلب فيه  
الكفار من متاع الدنيا لقلته وسرعة زواله .

واختلف فى سبب نزول قوله تعالى « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن  
بالله ، فقال جابر وابن عباس وأنس : نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ، وذلك  
أنه لما مات نعاه جبريل صلى الله عليه وسلم للنبي صلى الله عليه وسلم فى اليوم  
الذى مات فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : اخرجوا فاصلوا  
على أخ لكم مات بغير أرضكم ، فقالوا : ومن هو ؟ قال : النجاشى ، فخرج  
إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه وكبر  
أربع تكبيرات واستغفر له ، فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على عالج  
حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه ، فأنزل الله هذه الآية ؛ وقال عطاء :  
نزلت فى أربعين رجلا من أهل فجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من  
الروم ، كانوا على دين عيسى فأمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن جريج :  
نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقال مجاهد : نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب  
ومن المفسرين من يقول : إن المراد بالذين كفروا فى صدر هذه الآيات : أهل  
الكتاب « وما أنزل إليكم ، أى القرآن « وما أنزل إليهم ، أى التوراة والإنجيل ،  
وقوله تعالى « خاشعين ، أى متواضعين ، لله « لا يشتركون ، أى لا يستبدلون  
« بآيات الله ، التى عندهم فى التوراة والإنجيل من نعت النبي صلى الله عليه وسلم  
« ثمنا قليلا ، من الدنيا ، بأن يكتموها خوفا على الرياسة كما فعل غيرهم من اليهود :  
« أولئك لهم أجرهم ، أى ثواب أعمالهم « عند ربهم ، وهو ما يختص بهم من  
الأجر وهو ما وعدوه ، وقوله تعالى « أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، وفى  
قوله تعالى « يؤتكم كفلين من رحمته ، ، « إن الله سريع الحساب » لنفوذ علمه  
فى كل شئ . فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر بحساب الخلق ، قيل :

يحاسب الناس يوم القيامة في قدر نصف نهار من أيام الدنيا ، يأبىها الذين آمنوا  
اصبروا ، على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ومن المعاصي ، وصابروا ،  
أى وغالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الحرب ، فلا يكونوا أشد صبرا  
منكم ، ورابطوا ، أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين  
للغزو ، وقال الله تعالى « ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وروى  
أنه صلى الله عليه وسلم قال : من رباط يوم ما وليته فى سبيل الله كان كعدل صيام  
شهر وقيامه لا يفطر ولا ينتقل عن صلاته إلا لحاجة ، وروى أنه صلى الله  
عليه وسلم قال : من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة ، واتقوا الله ، فى جميع  
الأحوال ، لعلمكم تفاجون ، أى تفوزون بالجنة وتنجون من النار ، وقال بعض  
العلماء : اصبروا على البأساء والضراء ورابطوا فى دار الأعداء واتقوا إله  
الأرض والسماء ، لعلمكم تفاجون فى دار البقاء .

فى هذه الآيات الخمس نهى الله عز وجل عباده المؤمنين ورسوله الكريم  
عن أن تفتنهم أحوال الكافرين ، أو تغرهم أموال الجاحدين ، وما هم فيه من  
نعيم ، وما عليه المؤمنون من فقر وشقاء ، وبيناهم عن الإخلاق إلى الراحة  
أو ترك الجهاد فى سبيل الإسلام .

وحاصل معنى النهى عن الغرور : أن تقلب الذين كفروا فى البلاد آمنين  
معتزين بما لهم ، لا ينبغى أن يكون سببا لغرور المؤمن بحالهم وتوهمه أن هذا شيء  
يدوم لهم ، فإن هذا من إبقاء الأشياء على ظاهرها من غير بحث عن أسبابها  
وعلاها . والغوص على بواطنها ودخالها . كما يطوى الثوب على غره وكما ينظر  
الغر إلى ظواهر الأشياء دون بواطنها . ومن اكتته حالهم الاجتماعية علم أن  
تقلبهم فى البلاد وتمتعهم بالأمن والنعمة فيها ليس قائما على أساس متين . ولا  
مرفوعا على ركن ركين . وإنما هو من قبيل حركة الاستمرار لمحرك من الباطل  
سابق لم يكن له معارض ، فإذا عارضه ما عليه المؤمنون من الحق لا يلبث أن  
يزول بالنسبة إلى مجموعهم ، وأما من يموت من أفرادهم على فراش نعيمه ولم

ينسأله في أجله إلى أن يظهر أمر المؤمنين فما يستقبله من عذاب الآخرة أعظم مما ناله من نعيم الدنيا .

ثم بين الله عز وجل مصير المؤمنين وما يلقونه من النعيم في الآخرة . وبعد أن بين الله جل جلاله حال المؤمنين وما أعد لهم من الثواب . وذكر حال الكافرين وما أعد لهم من العقاب ، ذكر فريقاً من أهل الكتاب ، يهتدون بهذا القرآن ، وكانوا مهتدين من قبله بما عندهم من هدى الأنبياء ، وذكر من وصفهم الخشوع لله ، وما كل من يدعى الإيمان بالكتاب خاشع لله . وهذا الخشوع هو روح الدين ، وهو السائق لهم إلى الإيمان بالنبى الجديد ، وهو الذى حال بينهم وبين أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . وهذا الثمن يعم المال والجاه ، فإن منه التمتع بما كانوا فيه من ذلك ، وإن كان صعباً على الإنسان أن يترك ما ألفه ، وخص هؤلاء بالذكر على كونهم من المؤمنين الذين وعدوا بما تقدم ذكره فى مقابلة الكافرين ، لأجل القدوة بهم فى صبرهم على الحق فى الدين السابق والدين اللاحق ، وذكر إيمانهم بصيغة التأكيد لأن أهل الكتاب - بغرورهم بكتابهم وتوهمهم الاستغناء بما عندهم عن غيره كانوا أبعد الناس عن الإيمان ، وكان من الغرابة بعد ذلك العناد ومكابرة النبى صلى الله عليه وسلم وحسده على النبوة ، والتشدد فى إيدائه أن يؤمن بعضهم إيماناً صحيحاً كاملاً . ولهذا كان المؤمنون منهم قليلين ، وكانوا من خيارهم علماً وفضلاً وبصيرة . وإنا نرى علماءنا الأذكياء فى هذا العصر قلما يرجعون عن عقيدة أو رأى فى الدين جروا عليه وتلقوه عن مشايخهم وقرأوه فى كتبهم ، وإن كان باطلاً وخطأً ظاهراً ١١ .

وقد وصفهم الله عز وجل بخمس صفات على ما ذكر صاحب تفسير المنارة :

١ - الإيمان بالله - يعنى الإيمان الصحيح الذى لا تشوبه نزغات الشرك ولا يفارقه الإذعان الباعث على العمل ، لا كمن قال فيهم « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » ، ولا من قال فيهم « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

٢ - الإيمان بما أنزل إلى المسلمين وهو ما أوحاه الله إلى نبيهم محمد صلى



الله عليه وسلم ، وقدمه على ما بعده لأنه العمدة الذى عليه العمل وله الهيمنة ،  
والحكم الفصل فى الخلاف لثبوته باليقين ، وعدم طرؤه الضياع عليه والتحريف .

٣ - ما أنزل إليهم وهو ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائهم . ولا ينافى ذلك  
ضياع ونسيان بعضه ، وطرؤه التحريف بالترجمة والنقل بالمعنى على البعض  
الآخر ، فإن المراد هو الإيمان به إجمالاً واتباع ما أرشد إليه القرآن فيه تفصيلاً ،  
والقرآن هو العمدة ، ولا يعتد بإيمان من خالفه بعد العلم به .

٤ - الخشوع ، وهو ثمرة الإيمان الصحيح الذى يعين على اتباع ما يقتضيه  
الإيمان من العمل ، فالخشوع أثر خشية الله تعالى فى القلب تفيض على الجوارح  
والمشاعر ، فيخشع البصر بالسكون والانكسار ، ويخشع الصوت بالخافتة  
والتهدج ، كما يخشع غيرهما .

٥ - عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات الله ، كما هو فاش فى أصحاب  
الإيمان التقليدى الجفنى من علماء ملتهم ، ويقع مثله من أمثالهم فى سائر الملل ،  
وقد تقدم بيانه فى هذه السورة وما قبلها .

ثم أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ،  
وجعلها كلها سبب الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة . . . ويكثر الله عز وجل  
من الوصية بالتقوى . ومع ذلك نرى الناس قد انصرفوا عنها بته ، حتى صار  
التقى عند الناس هو السفية الذى لا يعقل مصلحته ولا مصلحة الناس ، ولا شيء  
أشأم على التقوى من فهمها بهذا المعنى . والتقوى أن تقى نفسك من الله ، أى من  
غضبه وسخطه وعقوبته ، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يرضيه  
وما يسخطه ، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى ، وعرف سنة نبيه  
صلى الله عليه وسلم وسيرة سلف الأمة الصالح ، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله .  
فن صبر وصابر ورابط لأجل حماية الحق وأهله ونشر دعوته ، واتقى ربه فى  
سائر شؤونه ، فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى .  
والفلاح هو الفوز والظفر بالبغية المقصودة من العمل ، وقد يكون ذلك

خاصا بالدنيا كما في قوله تعالى حكاية عن فرعون « وقد أفلح اليوم من استعلى ،  
وقد يكون خاصا بالآخرة كقوله حكاية عن أهل الكهف « ولن تفلحوا  
إذن أبدا ، ويكون مشتركا بين الدارين - وعندى أن أكثر وعد القرآن  
للمؤمنين من هذا النوع . وإرادة الفلاح الدنيوى من الآية التى نفسرها  
ظاهرة ؛ فإن الصبر ومصابرة الأعداء والمرابطة والتموى كلها من أسباب الفوز  
على الأعداء فى الدنيا ، كما أنها مع حسن النية وقصد إقامة الحق والعدل - الذى  
هو شأن المؤمن - من أسباب سعادة الآخرة . وهذه الأعمال كلها اختيارية  
داخلة فى مقدور الإنسان ، ولذلك أمر بها . فعمله إذا هو سبب فلاحه .

وبذلك ينتهى الربع السادس من هذا الجزء الكريم ؛ وهو كله فى تعويد  
الرسول والمؤمنين من أصحابه على تحمل ألم الكفاح فى سبيل الله ونشر  
الإسلام ، وفى تقوية عزائمهم ليتحملوا مشاق تبليغ رسالة السماء .. وفيه تصوير  
لأحوال أهل الكتاب الذين خانوا عهد الله ، وحرّفوا الكتب المقدسة عن  
مواضعها ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله .. وفيه تمجيد لله . وتعظيم لقدرته  
وسلطانه ، ورسم لأخلاق المؤمنين وصفاتهم الفاضلة ، وموازنة بين الكافرين  
والمؤمنين ، وإشادة بطائفة من أهل الكتاب آمنوا برسالة نبيهم ، وآمنوا  
معها برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

وفى هذا الربع أيضا أمر للمؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة فى سبيل  
الله ، وبيان أنها سبب الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .  
إن هذا الربع هو نتيجة هذه السورة وخاتمها ، وهو جماع كل ما فيها من  
بلاغة وروعة تصوير ، وعظمة تمثيل ، وفصاحة تعبير .

\* \* \*

وهذا هو ختام سورة آل عمران ، هذه السورة التى سميت باسم غريب  
هو « آل عمران » ، كما سميت السورة السابقة باسم « سورة البقرة » ، وهذا

نهج جديد في البلاغة لم يألفه العرب من قبل ، أن تسمى قطعة كبيرة من البلاغة باسم ، وأن يختار لها اسم عجيب ، كاسم « البقرة » ، أو « آل عمران » .

وفي رأيي - كما سبق أن أشرت إليه في إيجاز في آخر الجزء الثالث من هذا التفسير - أن البقرة جعلت رمزا للسورة لتدل على أنها موجهة إلى اليهود أهل الكتاب من أتباع شريعة موسى عليه السلام ؛ ولذلك كثر فيها حجاج اليهود ونقاش الله عز وجل لهم ، وجداله إياهم ، ودعوته لهم للإيمان بمحمد ورسالته ، ولترك مقاومة الإسلام . . فإن جاء فيها ذكر النصارى فعرضا وعلى سبيل الاستطراد لا على سبيل القصد والأصالة ، وليست كل السورة في شأن اليهود ودعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، بل فيها تنظيمات اجتماعية جديدة متحضرة للمجتمع الإسلامي والأسرة المسلمة ، وفيها كثير من شؤون العبادات والمعاملات في الإسلام وغير ذلك ؛ ولكن لما كان ما فيها من حوار مع اليهود ، وجدل لهم ، أغرب شيء اشتملت عليه ؛ وكان ذلك هو الذي يلي مطالع هذه السورة بعد ذكر القرآن ، وزيادة المؤمنين به إيمانا ، وزيادة الكافرين به كفرا وبهتاننا ومرضا في قلوبهم ، وبعد ذكر بدء خلق الكون وخلق السموات والأرض ، وخلق آدم ؛ كان ذلك كله أكبر دليل على أن خطاب اليهود وجدالهم - كان مقصودا قصده في هذه السورة ، وما ورد أثناء ذلك وقبله وبعده ، مما لا يتصل بهذا ، وإنما ورد استطرادا وتبعاً وضمناً ، ولأن المقام استدعاه أو استلزمه ؛ لذلك سميت هذه السورة باسم « بقرة بنى إسرائيل » ، التي ورد ذكرها في سورة البقرة ، وجعلت هذه التسمية رمزا لدلالة السورة على أنها موجهة إلى اليهود لدعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه .

والأمر في « آل عمران » ، غير ذلك ؛ فقد كانت السورة أو أهم شيء فيها ، في خطاب النصارى أتباع عيسى عليه السلام ، وفي دعوة اليهود إلى الإيمان برسالة عيسى عليه السلام في عصر عيسى ، ثم دعوة أتباع عيسى إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم في عصر البعثة المحمدية الكريمة ، مع إيمانهم

برسالة نبيهم الكريم .. وما ورد في «سورة آل عمران» من غير ذلك فعلى سبيل التبع ، ولأن المقام استدعاها وتبعها ، والكلام انساق إليها .. ولذلك كثر في «سورة آل عمران» خطاب أهل الكتاب ، وإن كان فيها كذلك توجيه الخطاب إلى المؤمنين ، ولكن في مواضع العبرة والعظة ، التي يستدعيها المقام .

فسورة «آل عمران» - كما قلنا - هي في خطاب أتباع عيسى وأمة على سبيل القصد ، وإن كان فيها خطاب لليهود ، لأن أتباع عيسى عليه السلام من اليهود ، ورسالته كانت لهم ؛ وإن كان فيها كذلك خطاب للمؤمنين ، وحديث عن انتصاراتهم وهزائمهم وحفز لهم على مواصلة الكفاح ، ولكن كان كل ذلك وارداً في مواضع العبرة والعظة التي يقتضيها الحال .

ولما كان الخطاب في «آل عمران» موجهاً إلى أتباع عيسى ، ناسب أن تسمى باسم يشير إلى ذلك ، وهو «آل عمران» ، وعمران والد مريم أم المسيح عليهما السلام ، وقد اشتملت السورة على قصة مولد عيسى ، وعلى بعثته عيسى ودعوته لقومه إلى رسالته المقدسة .

وفي سورة «آل عمران» نداء كثير لأهل الكتاب «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون» ، وما شابه ذلك . وفي هذا النداء إشعار بأن المنادين هم أهل الوحي السماوي والشرائع الإلهية السابقة ؛ وإيماء إلى أن هؤلاء حريون بأن يؤمنوا برسالة محمد عليه السلام ، فهذه الرسالة هي شبيهة بالرسالات التي نزلت على أنبياء أهل الكتاب من قبل ، وهم حريون كذلك بأن يؤمنوا برسالة محمد عليه السلام ، لأن في كتبهم المقدسة دعوة إلى الإيمان بخاتمة الرسالات ، ولأن في القرآن كثيراً من العقائد والتشريعات التي تشبه ما في التوراة والإنجيل . وكذلك كان هذا النداء «يا أهل الكتاب» مشعراً بأن من هدبتهم الشرائع

السموية التي نزلت من قبل على أنبيائهم ، جدير بهم أن يكونوا قد بلغوا مبلغ النضج والعقل الكامل ، بما يؤهلهم لفهم رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، والعمل بها ، والإيمان بمقتضاها ..

وفي آل عمران كذلك نداءات كثيرة للمؤمنين ، فيها الكثير من التوجيهات لهم ، ومن التشريعات اللازمة لجماعتهم .

وتشترك سورتا البقرة وآل عمران في افتتاحهما بتمجيد القرآن وهداياته العامة للناس كافة ، وبالحديث عن إنزاله ومعجزته الخالدة ، وتقسيم الناس حيال هدايته إلى طوائف ثلاث : مؤمنين وكافرين ومنافقين . وآخر البقرة وآخر آل عمران متشابهان في الدعوة إلى الإيمان برسالات الرسل وبرسالة محمد عليه السلام .

وإذا نظرنا إلى السور الثلاث التي يفتح بها المصحف الشريف وهي : الحمد والبقرة وآل عمران ، نجد أنها تختلف في الموضوع اختلافاً ظاهراً .

أما سورة الحمد أو فاتحة الكتاب فهي مكية ، وقد نزلت بعد البعثة المحمدية للدعوة إلى التوحيد ، ولاتخاذ شعار إسلامي للجماعة الإسلامية المؤمنة ، يكون مظهر أعواماً للمسلمين في صلواتهم وفي معاملاتهم . وكان نزولها بمكة بعد سورة المدثر ، وهو قول أكثر العلماء ، وقيل : إنها نزلت بالمدينة وهو قول مجاهد ، وقيل : إنها نزلت مرتين : مرة بمكة وأخرى بالمدينة للتنبيه على فضلها ، والصحيح أنها نزلت بعد المدثر ، فهي خامس سورة من سور القرآن في النزول .

وأما سورة البقرة فهي أول سورة نزلت فيما بين الهجرة وغزوة بدر بالمدينة ، وقد عالجت شئون المجتمع الإسلامي الجديد ، وحلت مشكلاته ، وكان هذا المجتمع الإسلامي يصطدم باليهود ، ومن أجل ذلك اشتملت السورة على كثير من الحوار معهم ، وكان سبب تسمية هذه السورة بالبقرة أنه قتل في بني إسرائيل في عهد موسى قتييل ، ولم يعرف قاتله ، واختلف القوم في تعيين

من بنو القاتل ، ورفع القوم الأمر إلى موسى ليعين القاتل فأمرهم بلسان الوحي أن يذبحوا بقرة ثم يضربوا القاتل ببعضها فتعود إليه الحياة ، ويتكلم مخبرا عن اسم قاتله ، واستهزأت بنو إسرائيل بموسى ، وأخذوا يسألون عن صفة البقرة تعنتا ، وموسى يلح عليهم في البيان ، وأخيرا عثروا عليها وذبحوها وما كادوا يفعلون ، ثم ضربوه ببعضها فقام وحدث عن قاتله .

وفتوى موسى لبني إسرائيل - حين اختلفوا في تعيين القاتل في جريمة قتل حدثت فيهم - بأن يذبحوا بقرة ويضربوا القاتل ببعضها فيحييه الله ويحدث عن قاتله ؛ لم تكن جزافا ، فذبح البقرة في مثل هذه الجريمة شرعية معروفة عند بني إسرائيل ، ففي الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التثنية ، وهو أحد أسفار العهد القديم ما نصه<sup>(١)</sup> : « إذا وجد قاتل في الأرض التي يعطيك الرب إهلك لتملكها ، واقعا في الحقل ، لا يعلم من قتله ، يخرج شيوخك وقضااتك ، ويقسون إلى المدن التي حول القاتل ، فالمدينة القربى من القاتل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرق عليها ، لم تجر بالنير ، وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان ، لم يحرق فيه ولم يزرع ، ويكسرون عنق العجلة في الوادى ، ثم يتقدم الكهنة بنو لاوى ، لأنه إياهم اختار الرب إهلك ليخدموه ، ويباركوا باسم الرب ، وحسب قلوبهم تكون كل خصومة وكل ضربة ، ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريين من القاتل أيديهم ، على العجلة المكسورة العنق في الوادى ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم ، وأعيننا لم تبصر ، اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يارب ، ولا تجعل دم برىء في وسط شعبك إسرائيل ، فيغفر لهم الدم ، .

وسورة البقرة تهدف إلى توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حوله الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، ولذلك كثر في هذه السورة تذكير بني إسرائيل بنعم الله على أسلافهم ، وبما قابل به أسلافهم هذه النعم

(١) ص ٢١١ الكتاب المقدس - بالعربية - لمر جمعية التوراة البريطانية والأجنبية .

من جحود وكفر وطمغيان . ومن قوله تعالى « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ، وإياي فارهبون ، وذلك في أوائل السورة إلى آخر الآية الكريمة « ليس البر » ، وقف على حجاج بنى إسرائيل وجداهم ودعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد صلوات الله عليه . وما بعد ذلك هو في التشريع الإسلامي الجديد الذي تطلبت حياة المسلمين الجديدة في المدينة عقب الهجرة ، سواء في العبادات أو المعاملات أو العادات ، فقد ذكر فيها شريعة القصاص والصيام والوصية والاعتكاف والنهي عن أكل أموال الناس بالباطل والحج والعمرة ، وتشريع القتال للدفاع عن النفس والعقيدة الإسلامية ، وتحريم الخمر والميسر ؛ وذكرت شئون الحيض والطلاق والعدة والخلع والرضاع والأيمان وكفارة الخنث فيها ، وشئون الربا والبيع والوثائق المالية وسوى ذلك من شئون .

وفي البقرة طلب الله من المؤمنين توحيد الاتجاه إلى القبلة في الصلاة والدعاء وسواهما ؛ وذلك على اختلاف أقطار المسلمين . وتباين آفاقهم ، فأمرهم الله عز وجل بأن يتجهوا إلى مكان واحد ، إلى البيت الحرام ، الذي جعل قبلة المسلمين في الصلاة وسواها ، وقد تناولت آيات البقرة جدال اليهود وتفنيدهم في شأن القبلة ، والرد على ما خاضوا فيه من أحاديث إثر أمر المسلمين بتغيير قبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة والبيت الحرام .

وأما سورة آل عمران فقد جاءت ثالث سورة في القرآن الكريم : بعد سورة الفاتحة وسورة البقرة ، وذلك وفق ترتيب المصحف الشريف ، وقد ذكر فيها عمران ، مرتين في آيتين متتاليتين : آية « إن الله اصطفى ، الخ ، وآية « إذ قالت امرأة عمران ، الخ »

وهكذا نجد البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أمر بنو إسرائيل بذبحها ، وسورة المائدة سميت بذلك لقصة المائدة التي طلب الجواريون إنزالها من السماء على عيسى عليه السلام ، وسورة النساء سميت

بذلك لما فيها من تنظيم لأحوال الأسرة المسلمة ، ولأمور المرأة في شريعة الإسلام .

وسورة آل عمران مدنية ، وقد نزلت بعد مدة من حياة المسلمين فيها ، وورد فيها ذكر لغزوة بدر الكبرى ؛ وأحد ، وحمراء الأسد ، وبدر الصغرى أو بدر الأخيرة . وكانت هذه المعركة في شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة ، وقد نزلت ، آل عمران ، بعد سورة الأنفال ، التي ورد فيها ذكر غزوة بدر ، ونزلت بعدها سورة الأحزاب ، وموقعة الأحزاب وقعت في السنة الخامسة للهجرة .

وهذه السورة تبتدىء كسورة البقرة بتمجيد شأن القرآن الكريم وتزيه الله تعالى وتمجيد المؤمنين برسالة الإسلام ، ويان مصير الكافرين بهذه الرسالة السماوية التي هي خاتمة الرسالات ، ثم اشتملت على قصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى ، واشتملت على حجاج النصارى وأهل الكتاب ، واشتملت على قصة غزوة بدر وأحد ، وورد فيها تسليية للرسول على هزيمة أحد ، وحفز له وللمؤمنين على مواصلة الكفاح في سبيل الله ورسالته الحكيمة ، التي نزلت على محمد صلوات الله وسلامه عليه والتي هي خاتمة رسالات السماء .

وقد ختمت السورة بصفات عباد الله المؤمنين ، ثم ختمت آخرها بالأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ، وهي خلال لازمة للكافرين في سبيل المبادئ والمثل العالية ، وعليها يتوقف نجاحهم في تبليغ رسالة السماء المقدسة دين الإسلام الكريم .

وفي هذه السورة ، آل عمران ، نداء للمؤمنين برسالة محمد بترك طاعة فريق من أهل الكتاب يحقدون على الإسلام ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ونداء لهم بالتقوى والاعتصام بحبل الله وذكر نعمة الله عليهم . إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم ، ونداء لهم بعدم اتخاذ بطانة من دونهم لا يألونهم خيالا ، ونداء لهم بترك الربا وطاعة الله وبالمسارعة إلى مغفرة من الله ورحمة ، ونداء لهم بالصبر في الشدائد والخطوب ، وبالمصابرة وهي المغالبة في الصبر بأن



لا يصبروا في أنفسهم فقط ، بل بأن يغالبوا أعداءهم في الصبر ؛ وبالمرابطة .  
والرباط هو اللزوم والثبات ، وأصله من الربط بمعنى الشد ، وهو عز بمة يعزمها  
المؤمن بالشئ فيربط الله بها على قلبه ، فلا يتحول ولا يتزلزل ، وكل أمر  
حرص الإنسان على الزومه أو التزامه فقد رابط عليه وارتبط به ، يريد الله  
عز وجل حث المؤمنين بأن يكونوا ذوي عزائم قوية . ومن المادة: الرباط الذي  
يكون في الثغور ، ورباط الخيل أى ربطها للحرب والجهاد وتخصيصها بذلك ،  
والرباط الذى هو انتظار الصلاة بعد الصلاة وغير ذلك ، كما ناداهم أمرا لهم  
بالتقوى ، والتقوى هى جماع كل خير ، ومصدر كل فوز في الدنيا والآخرة ،  
وسر كل فلاح في الأولى والعقبى ، وإلى الله عاقبة الأمور .

(٤)

سورة النساء

## تمهيد

سورة النساء مدنية ، وهي السورة الرابعة من كتاب الله العظيم ، وقد يطلق عليها اسم « سورة النساء الكبرى » ، فصلا بينها وبين سورة الطلاق التي اشتملت على كثير من أمور النساء ، والتي كانت تسمى باسم سورة النساء الصغرى .

وشئون الأسرة الإسلامية وتكوين البيت ، وأمور النساء والأزواج ، قد ذكرت في القرآن الكريم في سور كثيرة ، منها هذه السورة ، وسورة البقرة ، وسورة المائدة ، وسورة النور ، والأحزاب ، والمجادلة ، والمنتحنة ، والطلاق ، والتحريم ؛ وذلك كله عناية باللينة الأولى للمجتمع الإسلامي الجديد .

والإسلام يكرم المرأة ، ويرفع منزلتها في الحياة والمجتمع ، ويسويها بالرجل في الحقوق والواجبات ، ويجعل لها شخصية معنوية مستقلة عن الرجل ، وقد حرر الإسلام وكتابه الكريم المرأة من إفسار الرجل ، وجعل لها كل مال للرجل من الحقوق والواجبات . وإذا علمت أن العرب كانت تبالغ في حجاب المرأة وإبعادها عن المجتمع ، وكانت لا تذكر اسمها على الألسنة ؛ علمت مدى عظمة الإسلام وكتابه الحكيم ، حين سمي هذه السورة بهذا الاسم ، « سورة النساء » ، وحين تناول شؤون المرأة في هذه السورة تناولا واضحا مفصلا طويلا .

وقد بدأ الله عز وجل هذه السورة الشريفة بخطاب الناس كافة ، يأمرهم بتقوى الله وطاعته ، ويذكرهم بأن أصلهم جميعا واحد ، مهما اختلفت شعوبهم وأجناسهم وأقطارهم .

والأمر بتقوى الله هنا معلل أو كالمعلل بأن الله مصدر الخلق ، ومصدر الوجود كافة ، وفي ذلك تذكير للناس بأولى النعم وأهمها ، وهي نعمة الخلق ؛ وتذكير لهم بالرحم التي انتظمت الناس جميعا ، ومن ثم يجب أن يعتبر الناس جميعا أسرة واحدة ، أصلهم واحد ، كما أن ربهم واحد ، ولذلك يجب أن

( ١٠ - تفسير القرآن لخناجي ٤ )

تسود بينهم روح التعاون والمحبة ، وأن يعيشوا شعوباً متفاهمين متآخين متصافين ، وما أجدر الناس أن يبعدوا من بينهم الخصومات والخلافات وشبح الحروب ، وأن يسودهم الوئام والسلام ، وأن يعيشوا إخواناً في الله وفي الإنسانية .

إن شر ما تمنى به الحياة هي هذه الحروب الحديثة المدمرة التي لا طاقة للإنسانية باحتمالها ، وخاصة بعد الكشف عن القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات وسواها من وسائل الدمار .

وإذا كان الناس من أصل واحد ، وربهم واحد ، فلم لا يعودون أسرة دولية واحدة ، يسودها الحب والإخاء والسلام ، وتبادل أمم الأرض التجارات والمصالح على قدم المساواة ؟ ولم لا ينتهي عهد الاستعمار والتفرقة العنصرية ، ويصير الناس جميعاً إخوة متحابين ؟ .

وفي هذه السورة الشريفة تنظيم كامل لشئون الأسرة ، وخوض في شئون كثيرة تمس عقيدة الإسلام وشرائعه في العبادات ، والمعاملات ، وتصل بالمجتمع الإسلامي وتنظيمه تنظيمًا تاماً سليماً .

وقد افتتحت هذه السورة بعد الأمر بالتقوى بأحكام البتamy والبيوت والأموال ، ومنها الميراث ومحرمات النكاح وحقوق الرجال على النساء والنساء على الرجال . ثم ذكر فيها كثير من أحكام القتال . وجاء فيها بين أحكام البيوت وأحكام القتال حجاج لأهل الكتاب ، وفي أثناء أحكام القتال وآدابه ورد فيها شيء عن المنافقين ، ثم كانت أواخرها في حاجة أهل الكتاب إلا ثلاث آيات هن خاتمها ، وكل ذلك من شئون الإسلام بعد الهجرة .

وهذه السورة تتصل بالسورة التي قبلها بسبب متين ، فقد افتتحت هذه السورة بمثل ما اختتمت به تلك من الأمر بالتقوى وهو ما يسمى في البديع : تشابه الأطراف . وفي روح المعاني أن هذا أكد وجوه المناسبات في ترتيب السور . ومن وجوه مشابقتها للسورة قبلها : حاجة أهل الكتاب : اليهود والنصارى

جميعاً في كل منهما . ومنها : ذكر شيء عن المنافقين في كل منهما وكونه في سياق الكلام عن القتال . ومنها : ذكر أحكام القتال في كل منهما . ومنها : أن في النساء شيئاً يتعلق بغزوة أحد التي فصلت وقائعها وحكمها وأحكامها في آل عمران ، وهو قوله تعالى في هذه السورة « فما لحكم في المنافقين ففتين » الخ . وكذا ذكر شيء يتعلق بغزوة ( حمراء الأسد ) التي كانت بعد « أحد » ، وذلك قوله تعالى في هذه السورة « ولا تنهوا في ابتغاء القوم » .

وسورة النساء مائة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية .

وإذا أردنا أن نحدد تاريخ نزول هذه السورة الكريمة ، فإننا نعلم أن « سورة النساء » مدنية ، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها : « ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله » وقد بنى الرسول صلوات الله عليه بعائشة في المدينة في السنة الأولى من الهجرة ، ويروى عنها : « أعرس بي رسول الله على رأس مائة أشهر ، أي بعد الهجرة ؛ وقيل في السنة الثانية .. وذلك ما عدا آية « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ، الخ ، فقد نزلت بمكة عام الفتح .

هذا ما ذكر صاحب تفسير المنار ، ويبدو أنه خطأ واضح ، إذ أن المراد بذلك ليس نزولها كلها بل بعض أحكامها ، أو أنها قد بدأت نزولها بعد بناء الرسول بها ، واستمرت آياتها تنزل بعد ذلك حتى كملت بعد الهجرة بسنوات ، أو أن نزول هذه السورة : عائشة عند رسول الله لا يحمل على الفور بل على التراخي ، أي نزلت بعد بناء الرسول صلى الله عليه وسلم بها بفترة طويلة . وذلك لأن هذه السورة نزلت بعد سورة الممتحنة ، وقد نزلت سورة الممتحنة عقب صلح الحديبية ، الذي حدث في السنة السادسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة النساء فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ  
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا  
اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

هذا الخطاب الإلهي الموجه إلى البشرية ، وإلى الناس كافة ، قد افتتحت  
به هذه السورة الكريمة ، وقد ورد خطاب الناس في مطلع سورة الحج أيضا  
« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، « فهنا وهناك خطاب  
موجه إلى الناس كافة ، لأمرهم بتقوى الله وحثهم عليها ، وإرشادهم إليها ،  
والتقوى هي مصدر كل خير وسعادة للناس ، وهي تشتمل على الإيمان وزيادة ،  
ففيها إيمان وعمل وإخلاص لله في العمل ؛ وقد علل هنا الأمر بتقوى الله بأنه  
هو الذي خلق الناس كافة من أصل واحد ، ولا شك أن الخلق إذا بدأ  
بنفس واحدة ، ثم تكاثر إلى ذكر وأنثى ، ثم تكاثر إلى ما لا يحصى من الذكور  
والإناث ؛ لا شك أنه معجزة ضخمة عظيمة تذهل العقول والألباب ، وتدعو  
إلى الإعجاب والتقدير ، ومن ثم جعل الأمر بالتقوى هنا وهناك معلولا ليكون  
الله تعالى هو الذي خلق الخلق والموت والحياة والبعث والنشور .. كما أمر الله  
تعالى بصلة الأرحام ، وجعل صلتها معادلة لتقواه وطاعته ، وبصلة الأرحام  
تستقيم أحوال المجتمع ، وتنظم شئونه انتظاما كاملا .

« بسم الله ، إله الكون والحياة ، الرحمن ، الذي عم عباده بالإينعام «الرحيم»  
الذي خص أهل ولايته بدار السلام والنعيم « يا أيها الناس ، خطاب يعم  
المكلفين من أولاد آدم من الذكور والإناث الموجودين منهم في زمن نبينا  
صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم ؛ وقيل : يختص بالعرب منهم لقوله  
تعالى « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، . إذ المناشدة بالله وبالرحم عاقدة

مختصة بهم ، فيقولون : أنشدك بالله وبالرحم ، وأجيب بأن خصوص آخر الآية لا يمنع عموم أولها . « اتقوا ربكم ، أي عذابه بأن تطيعوه ، الذي خلقكم من نفس واحدة » ، أي فرعكم من أصل واحد ، وهو نفس آدم أيكم .

وقوله تعالى « وخلق منها زوجها ، أي خلقكم من شخص واحد هو آدم ، وخلق منها أمكم حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى ؛ فهو معطوف على « خلقكم » ، أو معطوف على محذوف ، كأنه قيل : من نفس واحدة أنشأها . وابتدأها وخلق منها زوجها ، وإنما حذف لدلالة المعنى عليه . والمعنى : شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها ، وهي أنه أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء ، وهو تقرير لخلقكم من نفس واحدة ، وقوله تعالى « وبث منها ، أي من آدم وحواء رجالا كثيرا ونساء ، أي كثيرا ، بيان لكيفية تولدهم منها ، والمعنى : وبث أي نشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة ، واكتنى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها ، إذ الحكمة تقتضى أن يكن أكثر ، إذ للرجل أن يزيد في عصمته على واحدة بخلاف المرأة ، ولا تكرر في الآية ؛ لأن « خلقكم من نفس واحدة » مغازير لخلق حواء منها « واتقوا الله الذي تساءلون ، أي تساءلون به ، فيما بينكم ، حيث يقول بعضكم لبعض : أسألك بالله وأنشدك بالله ؛ فإن قيل : الذي يقتضيه نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها ، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة - على التفصيل الذي ذكره - هو جب للتقوى وداعيا إليها ؟ أجيب بأن ذلك يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على ذلك كان قادرا على كل شيء ، ومن المقديرات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقوا القادر عليه ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم ، فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها ، « و ، اتقوا ، الأرحام » أي بأن تصلوها ولا تقطعوها ، وكانوا يتناشدون بالرحم ، وقد نبه سبحانه وتعالى - إذ قرن الأرحام باسمه - على أن صلتها منه بمكان ، وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال : الرحم

معلقة بالعرش تقول : ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله . « إن الله كان عليكم رقيبا ، أي حافظا لأعمالكم فيجازيكم بها ، أي لم يزل متصفا بذلك . ويقول الإمام محمد عبده في قوله تعالى « خلقكم من نفس واحدة » ، هذا تمهيد لما يأتي من أحكام اليتامى ونحوها ، كأنه يقول : يا أيها الناس خافوا الله واتقوا الاعتداء على ما وضعه لكم من حدود الأعمال ، واعلموا أنكم أقرباء يجمعكم نسب واحد وترجعون إلى أصل واحد ، فعليكم أن تعطفوا على الضعيف كاليتيم الذي فقد والده وتحافظوا على حقوقه . وليس المراد بالنفس الواحدة - عنده - آدم بالنص ولا بالظاهر ، فمن المفسرين من يقول : إن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش ؛ فإذا صح هذا هنا جاز أن يفهم منه بنو قريش وأن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان ، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان . وإذا قلنا : إن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أي لجميع الأمم ، فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده ؛ فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم ، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبا يحملون النفس على ما يعتقدون .

وحاصل معنى الآية : أن الله تعالى يقول : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي أنشأكم ورباكم بنعمه ، اتقوه في أنفسكم ولا تتعدوا حدوده فيما شرعه من الحقوق والآداب لكم لإصلاح شأنكم ؛ فإنه خلقكم من نفس واحدة ، فكنتم جنسا واحدا تقوم مصلحته بتعاون أفرادهم واتحادهم وحفظ بعضهم حقوق بعض . فتقواه عز وجل فيها شكر لربوبيته وفيها ترقية لوحدتكم الإنسانية وعروج للكمال فيها . واتقوا الله في أمره ونهيه في حقوق الرحم التي هي أخص من حقوق الإنسانية بأن تصلوا الأرحام التي أمركم بوصولها ، وتحذروا ما نهاكم عنه من قطعها .. اتقوه في ذلك لما في تقواه من الخير لكم الذي يذكركم به تساؤلكم فيما بينكم باسمه الكريم وحقه على عباده وسلطانه الأعلى على قلوبهم ، وبحقوق الرحم ، وما في هذا التساؤل من الاستعفاف والإيلاف ، فلا تفرطوا



في هاتين الرابطين بينكم : رابطة الايمان بالله وتعظيم اسمه ، ورباطة وشيخة  
الرحم ، فإنكم إذا فرطتم في ذلك أفسدتم فطرتكم فتنفسد البيوت والعشائر ،  
والشعوب والقبائل .. ومعنى « إن الله كان عليكم رقيبا ، أى مشرفا على أعمالكم  
ومناشئها من نفوسكم وتأثيرها في أحوالكم ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، فهو  
يشرع لكم من الأحكام ما يصلح شأنكم ويعدكم به للسعادة في الدنيا والآخرة .  
وه الرقيب ، وصف بمعنى الراقب ، من رقبه إذا أشرف عليه من مكان عال ،  
ومنه المرقب ، وهو المكان الذى يشرف منه الإنسان على مادونه . وأطلق  
بمعنى الحفظ لأنه من لوازمه ، وبه فسرناه هنا مجاهد . وقال الأستاذ الإمام :  
إن الله تعالى ذكرنا هنا بمراقبته لنا لتنبهنا إلى الإخلاص ، يعنى أن من تذكر  
أن الله مشرف عليه مراقب لأعماله كان جديرا بأن يتقيه ويلتزم حدوده .

٢ - وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا  
تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

« وآتوا اليتامى ، أى بعد البلوغ والرشد ، أموالهم ، ، وسموا يتامى بعد  
البلوغ مع أن اليتيم فى عرف الشرع صغير لأب له ، على معنى أنهم كانوا يتامى ،  
وإن كان اليتيم فى اللغة الانفراد ، ومنه الدرّة اليتيمة ، وقيل : اليتيم فى الإنسان  
من قبل الآباء وفى الحيوان من قبل الأمهات وفى الطير من قبلهما ، والخطاب  
للأولياء والأوصياء ، روى أن رجلا كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما  
بلغ اليتيم طلب المال من عمه فمنعه ، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه  
الآية ، فلما سمعها العم قال : أطعنا الله وأطعنا الرسول ، فعوذ بالله من الحوب  
الكبير فدفع إليه ماله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ومن يوق شح نفسه  
ويطع ربه هكذا فإنه يحل داره أى جنته ، فلما قبض الفتى ماله أنفقه فى سبيل الله  
فقال صلوات الله عليه : ثبت الأجر وبقى الوزر ، فقالوا : يا رسول الله قد  
عرفنا أنه ثبت الأجر فكيف بى الوزر وهو ينفق فى سبيل الله ؟ فقال : ثبت الأجر  
للغلام وبقى الوزر على والده ، أى لعله كان لا يخرج زكاته ، ولا تبدلوا الخبيث ،

أى الحرام ، بالطيب ، أى الحلال أى تأخذه ببدله كما تفعلوا فى أخذ الجيد من مال اليتيم وجعل الردىء من مالكم مكانه ، ، ومعنى تبدل هذا بذاك أى أخذت هذا وتركت ذلك ، وكذا استبدلت لأن معنى : بدلت هذا بذاك - أخذت ذلك وأعطيت هذا ، قال تعالى : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان ، فى التبدل ما دخلته الباء متروك وما تعدى إليه الفعل بنفسه مأخوذ ، وفى التبدل بالعكس ، « ولا تأكلوا أموالهم إلى ، أى مع « أموالكم ، كقوله تعالى « من أنصارى إلى الله ، أى مع الله أى لا تنفقوهما معاً ولا تسورا بينهما ، وأكلكم مالكم حلال لكم ، وأكلكم أموالهم حرام عليكم ، فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الأقل من أجرتم ونفقتكم ، فإن قيل : قد حرم الله عليكم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالكم ، فلم ورد النهى عن أكله معها ؟ فالجواب بأنهم كانوا يفعلون كذلك فأنكر عليهم فعلهم ، وسمع لهم ليكون أجزر لهم وإنه ، أى أكلها كان حوباً ، أى ذنباً كبيراً ، أى عظيماً

٣ - وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَتَلْتُمْ وَرُبَّعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أُذُنِي أَلَّا تَعْمَلُوا .  
٤ - وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا .

هاتان الآيتان الكريمتان فى شريعة الزواج ، وفى إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام إلى أربع بشرط العدل بينهم ، وفى فريضة المهر فى الزواج ، ووجوب أدائها للزوجة إلا إذا تنازلت عنه عن طيب نفس ورضا كاملين .  
أما الآية الأولى فلها مغزى دينى واجتماعى جليل ، ولها صدق عميق فى نفوس المسلمين فى كل عصر وجيل ، وهى من الآيات التى يدور حول موضوعها البحث كثيراً .

وعن عائشة رضی الله عنها أنها سألتها عروة عن قول الله عز وجل ، وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى ، فقالت يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه ماله وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سننهن في الصداق ، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية ، فأنزل الله عز وجل ، ويستفتونك في النساء ، الآية ، قالت عائشة : وقول الله عز وجل في آية أخرى ، وترغبون أن تنكحوهن ، رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال ، قالت : فنهوا أن ينكحوا عن رغبا في ماله وجماله من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

ولما نزلت الآية السابقة في اليتامى ، وعرف المسلمون جزاء أكل أموالهم من الإثم والذنب الكبير ، خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك العدل في حقوق اليتامى ، وأخذوا يتخرجون من ولايتهم ، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست ولا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهن فنزل قوله تعالى ، وإن خفتن ، أي خشيتن ، أن لا تقسطوا ، أي تعدلوا في اليتامى ، فتخرجتم من أمرهم ، فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء وقللوا عدد الزوجات ، فأنكحوا ، أي تزوجوا . وقوله تعالى : وما طاب ، أي حل ، لكم من النساء ، أي لأن منهن ما حرم كاللآتي في آية التحريم ، مثنى وثلاث ورباع ، أي تزوجوا اثنتين أو ثلاثا أو أربعا ، لأن من تخرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متخرج ولا تاب ؛ لأنه إنما وجب أن يتخرج من الذنب ويتاب عنه لقبحه ، والقبح قائم في كل ذنب ، وإنما عبر عنهما بـ (ما) ومن يعقل إنما يعبر عنه بـ (من) ذاهبا إلى الصفة ، لأنه إنما يفرق بين من وما في الذوات لا في الصفات ، أو أجراهن مجرى غير العقلاء بعنا على الشفقة بهن والعطف عليهن ، وقيل : كانوا لا يتخرجون من الزنا وهم

يتخرجون من ولاية اليتامى ، فقيل : خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا ، فانكحوا ما حل لكم من النساء ، وقيل : كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال فيتزوجها ضنا بها فر بما يجتمع عنده ممنه عدد ، ولا يقدر على القيام بحقوقهن ، فإن قيل : إن الذى أطلق فى الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع ، فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع ؛ حتى أن بعض الرافضة قال : إن للشخص أن يتزوج بثمانية عشر ؛ فالجواب بأن الخطاب للجمع ، فوجب التكرير ليصيب كل رجل يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له ، كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم : درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، ولو أفردت لم يكن له معنى ، فإن قيل : لم جاء العطف بالواو دون (أو) حتى قال بعض الرافضة : إن له أن يتزوج بتسعة ؟ أجيب بأنه لو عطف بأو لذهب معنى تجويز أنواع الجمع بين أنواع العدد التى دلت عليه الواو ، فإن خفتم ألا تعدلوا ، بين هذه الأعداد أيضا ، أى إن خفتم الجور فى القسم والنفقة ، فواحدة ، أى فانكحوا واحدة وذروا الجمع ، أو ما ملكت أيمانكم ، أى اقتصروا على ذلك سواء بين الواحدة من الأزواج والعدد من السرارى ، لخفة مؤونتهن وعدم وجوب القسم بينهن . وهذا فى حق الحر ، أما من فيه رق فلا يتزوج أكثر من اثنتين بإجماع الصحابة . وقد يعرض للحر عوارض لا يزداد فيها على واحدة لجنون أو سفه ، ذلك ، أى النكاح فقط ، أو الواحدة ، أدنى ، أى أقرب إلى ، أن لا تعدلوا ، أى تجوروا يقال : عال الحاكم فى حكمه ، إذا جار . وروى أن أعرابيا حكم عليه حاكم فقال له : أتعدل على ؟ . وقد ورد عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن لا تعدلوا : أن لا تجوروا ، وحكى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه فسر أن لا تعدلوا : بأن لا تكثروا عيالكم ، قال البغوى : يقال من كثرة العيال : أعال يعيل إعالة إذا كثرت عياله ، وقال الزمخشرى : ووجهه أن يجعل من قولك : عال الرجل عياله يعولهم . كقولك : ما نهم يمونهم ، إذا أنفق عليهم ، لأن من كثر عياله

لزمه أن يعولهم ، ثم قال : وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين تحقيق بالحمل على الصحة والسداد ؛ فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : لا تظن بكلمة خرجت من فمك - أو فى أخيك - سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملاً ، وكان الشافعى رحمه الله أعلا كعباً وأطول باعاً فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا .

وقوله تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، هذا حكم من أحكام السورة متعلق بالنساء بمناسبة اليتامى ، وقيل متعلق باليتامى بأنفسهم أصالة وأموالهم تبعاً ، وما قبله متعلق بالأموال خاصة . فى الصحيحين وسنن النسائى والبيهقى والتفسير عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وإيها يشركها فى مالها ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بها أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة قالت عائشة : ثم إن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فيهن ، فأزل الله عز وجل : ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ، قالت : والذى ذكر الله أنه يتلى عليكم فى الكتاب الآية الأولى التى قال الله فيها : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى : وترغبون أن تنكحوهن ، رغبة أحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا فى مالها وجمالها إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن ، وفى رواية أخرى فى الصحيح عنها قالت : : أنزلت فى الرجل تكون له اليتيمة وهو وليها ووارثها ولها مال وليس أحد يخاصم دونها ، فلا ينكحها لما لها فيضربها ويسىء صحبتها فقال : إن

خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، يقول : خذ ما أحلت لكم ودع هذه التي تظلمها ، وفي رواية صحيحة أخرى عنها فيما يحال على هذه الآية في الآية الأخرى وهو قوله « وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكوهن ، قالت أنزات في اليتيمة تكون عند الرجل فتشركه في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها ويكره أن يتزوجها غيره فيشركه في مالها فيعضلها فلا يتزوجها ولا يتزوجها غيره ، قال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار : فعلى هذا تكون الآية مسوقة في الأصل للوصية بحفظ حق يتامى النساء في أموالهن وأنفسهن ، والمراد باليتامى فيها النساء ، وبالنساء غير اليتامى ، أي إن خفتم أن لا تقسطوا أي لا تعدلوا في يتامى النساء فتعاملوهن كما تعاملون غيرهن في المهر وغيره أو أحسن ، فاتركوا التزوج بهن وتزوجوا ما حل لكم أو مارات لكم وحسن في أعينكم من غيرهن قال ربيعة : أتركوهن فقد أحلت لكم أربعاً . أي وسع عليهم في غيرهن حتى لا يظلموهن . وقال الأستاذ بعد أن أورد قول عائشة بالمعنى مختصراً : كأنه يقول : إذا أردتم التزوج باليتيمة وخفتم أن تسهل عليكم الزوجية أن تأكلوا أموالها فاتركوا التزوج بها ، وانكحوا ما طاب لكم من النساء الرشيدات .

وقال ابن جرير الطبري : بعد أن ذكر عن بعضهم تفسير الآية بما أيده بالروايات عن عائشة ، وقال آخرون : بل معنى ذلك النهي عن نكاح ما فوق الأربع حذراً على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم ، وذلك أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل ، فإذا صار معدماً مال على مال يتيمه الذي في حجره فأنفقه أو تزوج به ، فنهوا عن ذلك ، وقيل لهم : إن خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم ، فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع ، وإن خفتم أيضاً من الأربع أن لا تعدلوا في أموالهن فاقصروا ، على الواحدة أو على ما ملكت أيمانكم . ثم روى بأسانيد عن عكرمة أنهم كانوا يتزوجون كثيراً ويتغايرون في الكثرة ويغيرون على أموال اليتامى من أجل ذلك . وروى

عن ابن عباس رضى الله عنه أن الرجل كان يتزوج بمال اليتيم ماشاء الله تعالى  
فنهوا عن ذلك ، وعنه أنه قال : قصر الرجل على أربع من أجل أموال اليتامى .  
ثم ذكر ابن جرير في الآية وجها ثالثا فقال : وقال آخرون: بل معنى ذلك أن  
القوم كانوا يتحوبون في أموال اليتامى ولا يتحوبون في النساء أن لا يعدلوا  
فيهن ، فقبل لهم : كما خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فكذلك تخافوا في النساء ألا تعدلوا  
فيهن ، ولا تنكحوا منهن إلا من واحدة إلى الأربع ولا تزيدوا على ذلك . وإن  
خفتم أيضاً أن لا تعدلوا في الزيادة عن الواحدة فلا تنكحوا إلا ما لا تخافون  
أن تجوروا فيهن من واحدة أو ما ملكت أيمانكم . وأورد ابن جرير الروايات  
التي تؤيد ذلك عن سعيد بن جبير والسدى وقتادة . وعن ابن عباس أيضاً من  
طريق عبد الله بن صالح أنه قال في الآية : كانوا في الجاهلية ينكحون عشرا  
من النساء الأيامى وكانوا يعظمون شأن اليتيم فتفقدوا من دينهم شأن اليتيم  
وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية - أى لم يفقدوه في الإسلام ويتأثموا بما  
فيه من ظلم النساء - فقال : وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب  
لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، ونهاهم عما كانوا ينكحون في الجاهلية .  
وروى نحوه عن الضحاك ، وفيه أنهم كانوا ينكحون عشرا من النساء ونساء  
آبائهم ، وأنه وعظهم في اليتامى وفي النساء ، وروى نحوه أيضاً عن الربيع ومجاهد .  
وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بتأويل الآية قول من قال : تأويلها : وإن  
خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فكذلك تخافوا في النساء ، فلا تنكحوا منهن إلا  
ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن من واحدة إلى الأربع ؛ فإن خفتم الجور في  
الواحدة أيضا فلا تنكحوها ، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم ، فانه أحرى أن  
لا تجوروا عليهم . وإنما قلنا : إن ذلك أولى بتأويل الآية لأن الله جل ثناؤه  
افتتح الآية التي قبلها بالنهي عن أكل أموال اليتامى بغير حقها وخلطها بغيرها  
من الأموال فقال تعالى ذكره : وآتوا اليتامى أموالهم ، الآية . ثم أعلمهم  
أنهم إن اتقوا الله في ذلك فتخرجوا فيه ، فالواجب عليهم من اتقاء الله والتخرج  
في أمر النساء مثل الذي عليهم من التخرج في أمر اليتامى ، وأعلمهم كيف التخلص

لهم من الجور فيه ، كما عرفهم المخلص من الجور في أموال اليتامى ، فقال :  
انكحوا إن أمتم الجور في النساء على أنفسكم ما أبحث لكم منهن مثنى وثلاث  
ورباع ، الخ ما تقدم عنه آنفا : ففي الكلام إذا كان المعنى ما ذكرنا متروك استغنى  
بدلالة ما ظهر من الكلام عن ذكره ، وذلك أن معنى الكلام : وإن خفتم أن  
لا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها ، فكذلك تخافوا أن لا تقسطوا في  
حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم ، فلا تتزوجوا منهن إلا ما أمتم معه  
الجور.. الخ . وذكر أن جواب الشرط في قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تعدلوا في  
اليتامى ، هو قوله « فانكحوا ما طاب لكم ، مع ضمنية قوله « ذلك أدنى أن  
لا تعدلوا ، فإن هذا أفهم أن اللازم المراد من قوله « فانكحوا ما طاب لكم ،  
هو العدل والإقسط في النساء والتحذير من ضده ، وهو عدم الإقسط فيهن  
الذي يجب أن يخاف كما يخاف عدم الإقسط في اليتامى ؛ لأن كلا منهما مفسدة  
في نظام الاجتماع تغضب الله وتوجب سخطه ويؤكد قوله تعالى « ذلك  
أدنى أن لا تعدلوا ، وقد بيناه بأوضح مما بينه هو به قال الشيخ رشيد رضا :  
وعلى هذا الوجه الذي اختاره ابن جرير يكون الكلام في العدل في النساء  
وتقليل العدل الذي ينكح منهن مع الثقة بالعدل مقصودا لذاته ، وهو الذي  
يليق بالمسألة في ذاتها ، لأنها من أهم المسائل الاجتماعية ، ويناسب أن يكون في  
أوائل السورة التي سميت سورة النساء . وأما على الوجه الذي قالته عائشة  
وهو الذي اختاره الأستاذ الإمام في الدرس فمسألة تعدد الزوجات جاءت  
بالتبع لا بالأصالة . وكذلك على الوجه الثالث الذي يقول : إن المراد منهم  
من التعدد الذي يحتاجون فيه إلى أموال اليتامى لينفقوا على أزواجهم  
الكثيرات ، وهذا أضعف الوجوه وإن قال الرازي إنه أقربها . وقد يصح  
أن يقال : إنه يجوز أن يراد بالآية مجموع تلك المعاني من قبيل رأى الشافعية  
الذين يجوزون استعمال اللفظ المشترك في كل ما يحتمله الكلام من معانيه  
واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه معا . والذي يقرره كاتب هذا الكلام في  
دروس التفسير دائما ، هو أن كل ما يتناوله اللفظ من المعاني المتفقة يجوز



أن يكون مراداً منه ، لا فرق في ذلك بين المفردات والجملة ، وعلى هذا تكون الآية مرشدة إلى إبطال كل تلك الضلالات والمظالم التي كانت عليها الجاهلية في أمر اليتامى وأمر النساء من التزوج باليتامى بدون مهر المثل والتزوج بهن طمعا في أموالهن يأكلها الرجل بغير حق ، ومن عضلن ليقى الولي متمتعا بمالهن لا ينازعه فيه الزوج ، ومن ظلم النساء بتزوج الكثيرات منهن مع عدم عدله بينهن - فمن لم يفهم هذا كله من هذه الآية ففهمه من مجموع الآيات هنا .

ويقول الإمام محمد عبده - كما ذكر الشيخ رشيد رضا - : جاء ذكر تعدد الزوجات في سياق الكلام عن اليتامى والنهي عن أكل أموالهن ولو بواسطة الزوجية فقال : إن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم أن لا تتزوجوا بها ، فإن الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن إلى أربع نسوة ، ولكن إن خفتن أن لا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط . والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه بل يصدق بتوهمه أيضاً ، ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو من علم بمثل هذه الأمور ، فالذي يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذي يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفاً . ولما قال ، فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة ، علله بقوله ، ذلك أدنى ألا نعولوا ، أى أقرب من عدم الجور والظلم ، فجعل البعد من الجور سبباً في التشريع ، وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريمه ومنه إلى أن العدل عزيز . وقد قال تعالى في آية أخرى من هذه السورة « وإن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، وقد يحمل هذا على العدل في ميل القلب ، ولو لذلك لكان مجموع الآيتين منتجا عدم جواز التعدد بوجه ما ، ولما كان يظهر وجه قوله بعد ما تقدم من الآية ، فلا تميلوا كل الميل فتندروها كالمعلقة ، والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يميل في آخر عهده إلى عائشة أكثر من سائر نساؤه ، ولكنه لا يخصصها بشيء دونهن . أى بغير رضاهن وإذنهن ، وكان يقول « اللهم هذا

قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك ، أى من ميل القلب . فمن تأمل الآيتين علم أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضيق كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح لمحتاجها ، بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور . وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضيق ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفساد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات ، فإن البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، ثم يجيء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، ففسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة . وكان لتعدد فى صدر الإسلام ضرورات قصوى ومنافع عديدة ، أهمها صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن ، لأن الدين كان متمكناً فى نفوس النساء والرجال ، وكان أذى الضررة لا يتجاوز ضررتها أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضررة إلى غيرها من أقارب الزوج وأولاده ، فهى تغرى بينهم العداوة والبغضاء ؛ تغرى ولدها بعبادة إخوته ، وتغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو بحماقته يطيع أحب نسائه إليه ، فيدب الفساد فى العائلة كلها ، ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين ، فمنها السرقة والزنا والكذب والحياثة والجبن والتزوير ، بل منها القتل ، حتى قتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والزوج زوجته ، كل ذلك واقع ثابت فى المحاكم - وناهيك بتربية المرأة التى لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد ، وهى جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه إلا خرافات وضلالات تلقفتها من أمثالها . يترأ منها كل كتاب منزل وكل نبي مرسل . فلو تربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغير ، لما كان هنالك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وإنما كان يكون ضرره قاصراً عليهن فى الغالب . أما والأمر على ما نرى ونسمع ، فلا سبيل إلى تربية الأمة

مع فشو تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ، فهم لا يتكروا أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم ، وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله ، فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة - على أساس أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح . قال : وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل . . أما قوله تعالى « أو ما ملكت أيمانكم ، فهو معطوف على قوله « فواحدة ، أي فالزموا زوجا واحدة أو أمسكوا زوجا واحدة مع العدل - وهذا فيمن كان متزوجا كثرات - أو الزموا ما ملكت أيمانكم واكتفوا بالتسرى بهن بغير شرط ، ذلك أدنى أن لا تعولوا ، أي أقرب إلى عدم العول وهو الجور ، فإن العدل بين الإمام في الفراش غير واجب إذ لا حق لمن فيه ، وإنما لمن الحق في الكفاية بالمعروف .

وكانت الأمة العربية قبل الإسلام تجعل الزواج الشرعي هو الأصل في تكون البيوت ، والرجل هو عمود البيت وأصل النسب ، ولكنه تعدد الزوجات لم يكن محدودا بعدد ولا مقيدا بشرط ، وكان اختلاف عدة رجال إلى امرأة واحدة يعد من الزنا المذموم ، وكان الزنا على كثرته يكاد يكون خاصا بالإمام ، والزنا لم يكن معينا ولا عارا صدوره من الرجل ، وإنما كان يعاب من حرائر النساء . وقد حظر الإسلام الزنا على الرجال والنساء جميعا حتى الإمام ، فكان يصعب جدا على الرجال قبول الإسلام والعمل به مع هذا الحجر بدون إباحة تعدد الزوجات . ولولا ذلك لاستبيح الزنا في بلاد الإسلام كما هو مباح في غيرها من البلاد أو شبه مباح .

وتعدد الزوجات شريعة اجتماعية ودينية معروفة من قديم ، وكانت هي السائدة في اليهودية ، ولم يحرم<sup>(١)</sup> التعدد فيها إلا مجتمع «وروز الرباني»

(١) راجع ص ٧٦ / ٤ تفسير الخطيب المنك .

(١١) - تفسير القرآن لخنفاي (٤)

في القرن الحادي عشر ، وما تزال بعض طوائف من اليهود تسير على التعدد حتى اليوم أسوة بأنبياء بني إسرائيل ، مثل يعقوب وداود وسليمان الذي كانت له ألف امرأة كما في الفصل الخامس من سفر صموئيل الثاني ، والفصل الحادي عشر من سفر الملوك الأول . وليس في العهد القديم أو الجديد نص صريح على منع التعدد الذي كان سائدا في المجتمع المسيحي حتى حرمة « مجمع الترية نيتي » بعد مجمع « نيقية » ، والمسيحيون الموارنة يسرون على التعدد حتى اليوم ؛ وكانت الكنيسة والدولة تقران تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر . وكان التعدد منتشرأ في أوروبا أيام سيزارو عند الجرمانين أيام « ناسيت » ، ثم حرمة « جوستنيان » الروماني . وفي « تشيكوسلوفاكيا » يقر قانونهم نظام التعدد ، وفي ألمانيا وإيطاليا تقوم بعض الجمعيات النسوية التي تطالب بنظام تعدد الزوجات .

ووضعت حكومة هتلر مشروع قانون إباحة تعدد الزوجات ، وصدرته بمذكرة إيضاحية تضمنت بحثاً مستفيضاً في الدفاع عن نظام تعدد الزوجات ، ولكن الظروف العسكرية حالت بين الحكومة وبين صدور هذا القانون ، ولكنها لم تحل دون تكوين جمعيات نسائية تطالب بتعدد الزوجات ، وتقول الأبناء الواردة من أوروبا أيضاً : إن أكثر حوادث القتل والانتحار بين الأزواج هناك ترجع إلى تحريم الطلاق ، فلا يجد الزوج أمامه وسيلة للانفصال إلا الانتحار ، ولذلك لم ير الباحثون الاجتماعيون هناك وسيلة لحل هذه المشكلة إلا بإباحة الطلاق ، ولقد أباحته فعلا بعض الدول الغربية كأميركا .. حتى نقل « روتر » في ٨ إبريل - ١٩٥٨ خبراً من لندن يقول : إن أربعة عشر من كبار القسس بزعامة الأسقف كاتربري - وهو من أكابر رجال الكنيسة البروستنتية - قد اجتمعوا مع بعض الباحثين الاجتماعيين في لندن ، وأصدروا قراراً دافع عن نظام تعدد الزوجات ، وطالبوا بإباحتها للمسيحيين من أجل المصلحة العامة ومصلحة النساء أنفسهن ، الأمر الذي حققه الإسلام من قبل مئات السنين ، وقد سن له من النظم ما يكفل السعادة والخير العام للجميع ، ثم

أذاعت روتر برقية تناقلتها الصحف في مايو عام ١٩٥٨ تقول : « إذا نجحت الحركة التي يقوم بها رجال الدين في بريطانيا الآن فإن الرجال الإنجليز سيتمتعون قريباً بالزواج من أكثر من امرأة ، ففي المؤتمر الذي سيعقد في يونيو القادم سيبحث تقرير أعده كبار رجال الدين والباحثين الاجتماعيين وعلماء اللاهوت ، تحت إشراف الدكتور جيوفري فيشر أسقف كاتدرى ، يدعون فيه إلى إطلاق حرية الرجال في الزواج بأكثر من واحدة ، أى إلى تعدد الزوجات ، ودعوتهم تستند إلى أنه بات من الحماقة تجاهل الغرض الذي يحققه تعدد الزوجات في العصر الحديث ، وأصبح من الخطأ التمسك تمسكاً قانونياً بضرورة قصر زواج الرجل على امرأة واحدة وتهديد المخالفين بالحرمان من الكنيسة . »

وقد أبحاث الشريعة الإسلامية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة ، قال تعالى : « إن خفتن ألا تعدلوا فواحدة » . فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وسامت معيشة العائلة ، إذ العباد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة . والرجل إذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد - كأن يستقضيها حاجة في يوم الأخرى - امتعضت تلك الأخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه إلى من لا حق لها ، وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن إلى هذا العهد يجمعون - كما قال صاحب تفسير المنار - بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن ، فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات في نوبة الأخرى إلا بإذنها ؛ ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الأكتاف حفظاً للعدل ، ولم يرض بالإقامة في بيت إحداهن خاصة ، فلما كان عند إحدى نساته سأل في أى

بيت أكون غداً ؟ فلم نساؤه أنه يسأل عن نبوة عائشة فأذن له في المقام عندها مدة المرض؛ فقال ، هل رضىتني ، ؟ فقلن نعم ، فلم يبق في بيت عائشة حتى علم أرضاهن . وهذا الواجب الذي يحافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصائحه ووصاياه ؛ فقد روى في الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث ، كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه وخنق كلامه : « الصلاة والصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم - أي أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وقال : « من كان له امرأتان فال إلى إحداهن دون الأخرى - وفي رواية : ولم يعدل بينهما - جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ، وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا - أي العدل في البيات والعطاء - جهدي فيما أملك ، ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك ، - يعني الميل القلبي - وكان يقرع بينهن إذا أراد سفرأ .

وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة ، وعقد بعد وفاتها على سودة بنت زمعة ، وكانت قد توفى عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية . والحكمة في اختيارها أنها من المؤمنات المهاجرات المهاجرات لأهلين . خوف الفتنة ، ولو عادت إلى أهلها بعد وفاة زوجها لعذبوها وفتنوها ، فكفلنا صلوات الله عليه ، وكافأها بهذه المنة العظيمة . ثم بعد شهر عقد على عائشة بنت الصديق ، والحكمة في ذلك كالحكمة في التزوج بحفصة بنت عمر بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة بيدر ، وهي إكرام صاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمر ، وإقرار أعينهما بهذا الشرف العظيم ، كما أكرم عثمان وعلياً بيناته ، وهؤلاء أعظم أصحابه وأخلصهم خدمة لدينه ، وأما التزوج بزَيْنَب بنت جحش فالحكمة فيه تعلق كل حكمة وهي إبطال تلك البدع الجاهلية التي كانت لاحقة ببدعة التبنّي كتحريم التزوج بزوجة المتبنّي بعده وغير ذلك . وقد نشر في المجلد الثالث من المنار مقالان في هذه المسألة أحدهما للأستاذ الإمام ، فليراجعهما المستزيد . وكذلك الحكمة في التزوج بجويرية وهي برة بنت الحارث سيدقومه بني المصطلق ،

فقد كان المسلمون أسروا من قومها ما تتي بيت بالنساء والذرارى ، فأراد رسول الله أن يعتق المسلمون هؤلاء الأسرى ، فتزوج بسيلتهم ، فقال الصحابة عليهم الرضوان : أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم وأعتقوهم ، فأسلم بنو المصطلق لذلك أجمعون ، وصاروا عونا للمسلمين بعد أن كانوا محاربين لهم وعونا عليهم ، وكان لذلك أثر حسن في سائر العرب . وقبل ذلك تزوج رسول الله بزَيْنَب بنت خزيمة بعد قتل زوجها عبد الله بن جحش في أحد ، وحكته في ذلك أن هذه المرأة كانت من فضليات النساء في الجاهلية حتى كانوا يدعونها أم المساكين لبرها بهم وعنايتها بشأنهم ، فكافأها عليه السلام على فضائلها بعد مصابها بزوجها بذلك ، فلم يدعها أرملة تقابى الذل الذي كانت تجير منه الناس ، وقد ماتت في حياته . وتزوج بعدها أم سلمة - واسمها هند - وكانت هي وزوجها - عبد الله أبو سلمة بن أسد بن عممة الرسول برة بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاة - أول من هاجر إلى الحبشة ، وكانت تحب زوجها وتجله حتى أن أبا بكر وعمر خطبها بعد وفاته فلم تقبل ، ولما قال لها النبي : « سلى الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيرا ، قالت : ومن يكون خيرا من أبي سلمة ؟ فن هنا يعلم مقدار مصاب هذه المرأة الفاضلة بزوجها ، وقد رأى رسول الله أنه لا عزاء لها عنه إلا به . فخطبها ، فاعتذرت بأنها مسنة وأم أيتام ، فأحسن الرسول الجواب وتزوج بها ، وظاهر أن ذلك الزواج ليس لأجل التمتع المباح له ، وإنما كان لفضلها الذي يعرفه المتأمل بجودة رأيها يوم الحديدية ولتعزيتها كما تقدم . وأما زواجه بأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب ، فلعل حكته لا يخفى على إنسان عرف سيرتها الشخصية ، وعرف عداوة قومها في الجاهلية والإسلام لبني هاشم ورغبة النبي في تأليف قلوبهم ، كانت رملة عند عييد الله بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية ، فتنصر هناك وثبتت هي على الإسلام ، فانظروا إلى إسلام امرأة يكافح أبوها بقومه النبي ، ويتنصر زوجها وهي معه في هجرة معروفة سببها ، أمن الحكمة أن تضيع هذه المؤمنة الموقنة بين فتلتين ؟ أم من المروءة أن يكفلها من تصلح له وهو أصلح لها ؟ . وكذلك تظهر الحكمة

في زواج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، وقد قتل أبوها مع بني قريظة وقتل زوجها يوم خيبر ، وكان أخذها دحية الكلبي من سبي خيبر فقال الصحابة: يا رسول الله إنها سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك ، فاستحسن رأيهم وأبى أن تذلل هذه السيدة بأن تكون أسيرة عند من تراه دونها ، فاصطفاهما وأعتقها وتزوجها ووصل سبيه ببني إسرائيل .

وفي حديث الترمذي أن صفية بلغها أن عائشة وحفصة قالتا فيها : نحن أكرم على رسول الله منها ، فذكرت ذلك للنبي فقال : ألا قلت : وكيف تكونان خير أمي وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى ، فهي من آل هارون معروف نسبها في قومها . ولما فتح حصن قومها وسبيت جاء بها بلال ومعها ابنة عم لها فمر بهما على قتلى يهود ، فصكت المرأة التي معها وجهها وصاحت وحثت التراب على وجهها ، فقال رسول الله لبلال : أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما ، وهكذا يقول ويفعل من أرسله الله رحمة للعالمين .

وآخر أزواجه ميمونة بنت الحارث الهلالية - وكان اسمها برة فسماها ميمونة - والذي زوجها منه هو العباس رضي الله عنه ، وكانت جعلت أمرها إليه بعد وفاة زوجها الثاني أبي رهم بن عبد العزى وهي خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد ، فلا أدري هل كانت الحكمة في تزوجه بها تشعب قرابتها في بني هاشم وبني مخزوم أم غير ذلك ؟ . وقد مات رسول الله عن تسع زوجات من أمهات المؤمنين ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكان رسول الله يعيش هو وزوجاته عيشة البساطة التي يألفها من قبل في المأكل والملبس والمسكن ، كما يقول صاحب تفسير الخطيب المكي ، وكم من أيام مرت دون أن يوقد في دار من دوره نار ، بل كان غذاؤه وغذاء زوجاته التمر والماء ، ولم يكن هناك ما يمنعه من أن يرغد نسائه بشهي الطعام ويسكنهن أفضل السكن ويغمرهن بمختلف الحلى ليزيد من جمالهن في نظره . وليس هذا بالعسير عليه ، فلديه الكثير الوفير من أموال الغنائم والتي التي كان



يجود بها بلا حساب على ذوى الحاجة ، الأمر الذى أطمع نساءه فى تحسين حالتهم ، ويقدمن إليه يطلبن زيادة المقرر لنفقتهم ، فلم يكن منه إلا أن غضب وسكت فلم يرد على نساته ، فدخل أبو بكر وعمر عليه فوجداه على تلك الحال وحوله نساؤه فأحسا بالأمر ، وقال أبو بكر : يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة - يعنى زوجته - سألتنى النفقة فقلت إليها فوجأت عنقها ، فضحك الرسول وقال : هن حولى كما ترى يسألنى النفقة ، فقام أبو بكر لعائشة يبجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يبجأ عنقها ويقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده؟ ، فقالن : « والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده ، أى أن الذى يسألنه رسول الله هو جانب بسيط بما عنده ، فلم يرض الرسول هذا ممنهن ، إذ أنه لم يجمعهن إلا باسم الدين وحمده وقد أردن المتعة ، ولذلك اعتزلهن شهراً لا يريد أن يستجيب لرغباتهن ولا هو يرضى بطلاقهن حتى أنزل الله عليه قوله : يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للحسنات منكن أجراً عظيماً ، عندئذ بدأ الرسول بأحب النساء إليه فقال لها يا عائشة - إنى أردت أن أعرض عليك أمراً أحب أن لاتتعجلي فيه حتى تستشيرى أبوبك قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية قالت : أفبئس نصيبي وما آتيتني ، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة وقنعن بما هن فيه من شظف العيش . ولعل فى هذا ما يشير إلى أنه يجب على المرأة أن تؤثر من الرجال صاحب الدين عن غيره ، ولا تجعل من المادة سبباً لمعاشرة الرجل ، نظير ما شرعه للرجال من تفضيل ذات الدين عند إرادة الزواج .

ومن أسلم وهو متزوج بأكثر من أربع اختار منهن أربعاً وفارق الباقيات ، فقد روى الشافعى وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر : أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحمته عشر نسوة ، فقال له النبي « اختر منهن أربعاً - وفى لفظ آخر - أمسك منهن أربعاً وفارق سائرهن ، وروى

نحو من ذلك عن نوفل بن معاوية الديلمي ، وعن قيس بن الحارث الأسدي حين أسلما - وكان عند الأول خمس وعند الثاني ثمان . والظاهر أن إمساك الأربيع يشترط فيه قصد العدل بينهن والثقة بالقدره ، فإن خاف أن لا يعدل فعليه أن يمسك واحدة فقط . وما قضت به السنة من الاقتصار على أربيع وما أجمع عليه أهلها من عدم جواز الزيادة عليهن هو عمدة الفقهاء في هذا الباب ، لا لأن مثنى وثلاث ورباع يدل على جواز أكثر من أربيع ، بل لأن العدد عندهم لا مفهوم له ، فذكر الأربيع لا يقتضى تحريم الخمس فأكثر ، فلما حتم النبي على من أسلم من المشركين وعنده أكثر من أربيع أن لا يمسكوا أكثر من أربيع كان ذلك بيانا منه صلى الله عليه وسلم لما في الآية من الإجمال واحتمال جواز الزيادة . وجاهير أهل الأصول قائلون بجواز بيان خبر الواحد لمجمل الكتاب . وقد أول بذلك المجوزون للزيادة على أربيع كبعض الشيعة ، بأنه يحتمل أن يكون الأمر بمفارقة ما زاد عن الأربيع ، لأنهم كان بينهن وبين أزواجهن سبب من أسباب التحريم الذاتي كالنسب القريب والرضاع وهو تأويل ظاهر البطلان ، إذ لو كان الأمر كما قيل في الاحتمال لما قال النبي عليه السلام : « اختر أربعا أو أمسك أربعا » .

وأما الآية الثانية منهما - فخاصة بفريضة المهر في الزواج ووجوب أدائه ، إلا إذا تنازلت الزوجة عنه لزوجها عن طيب نفس وسماحة صدر . وقوله تعالى « وآتوا ، أى أعطوا » النساء صدقاتهن ، جمع صدقة ، أى مهورهن ، « نحلة ، أى عطية ، يقال . نحلة كذا نحلة أى أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ، ونحلة : منصوب على المصدر ، لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء ، فكان الأسلوب في معنى : « وأنحلوا النساء صدقاتهن نحلة » . والخطاب للأولياء كما ذكر جماعة من المفسرين ، وذلك أن ولى المرأة كان إذا زوجها ، فإن كان معهم فى العشيرة لم يعطها من مهرها شيئا ، وإن زوجها غريبا حملوها إليه على يعير ولا يعطوها من مهرها غير ذلك ، فهام الله عز وجل عن ذلك ، وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله ؛ والصحيح أن الخطاب للأزواج .

وقوله تعالى : « فإن طبن لكم عن شيء منه ، أى الصداق ، وقوله تعالى  
« نفسا ، تميز محول عن الفاعل أى إن طابت نفسن لكم عن شيء فوهبته  
لكم من الصداق ، فكلوه ، أى نخذوه وأنفقوه « هنيئا ، أى طيبا « مريئا ،  
أى محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم فى الآخرة ، روى أن ناسا كانوا يتأثمون  
أن يرجع أحدهم فى شيء مما ساق إلى امرأته ، فقال الله تعالى : إن طابت نفس  
واحدة من غير إكراه ولا خديعة فكلوه هنيئا مريئا ، قال الزمخشري : وفى الآية  
دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط ، حيث بنى الشرط على  
طيب النفس فقال : « فإن طبن ، ولم يقل فإن وهبن أو سمحن إشعارا بأنه يجب  
أن يكون ذلك عن رضى وطيب نفس واختيار كامل .

وعن الشعبي أن رجلا أتى مع امرأته شريحا فى عطية أعطتها إياه وهى  
تطلب أن ترجع ، فقال شريح : رد عليها ، فقال الرجل : أليس الله قد قال  
« فإن طبن لكم ، قال : لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه ، وروى أن رجلا  
من آل أبى معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقا لها كان عليه فلبث شهرا ثم  
طلقها ، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان ، فقال الرجل : أعطتنى طيبة بها نفسها ،  
قال عبد الملك : فأين الآية التى بعدها : فلا تأخذوا منه شيئا . أردد عليها ، وعن  
عمر رضى الله عنه أنه كتب إلى قضاته أن النساء يعطين رغبة ورهبة ، فأبما  
امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها .

وخلاصة هاتين الآيتين أنهما تنظمان أحوال الأسرة تنظيما كاملا ،  
وتشرعان الزواج وتوجبان المهر فريضة للزوجة ، والآية الأولى تقر مبدأ  
تعدد الزوجات وتضيقة وتقيده بقيود شديدة ، ومبدأ التعدد موجود فى  
الشرائع القديمة والحديثة ، وتحاول دول الغرب المسيحية اللجوء إليه حلا  
لمشكلاتها الاجتماعية . وتعدد الزوجات يقضى على مشكلات المرأة ، ويجعل  
الرجل مسئولا عنها وعن زواجها ، ويوجب أن يكون لكل فتاة بلغت سن  
الزواج الحق فى الزواج ، ويترتب على هذا أن تكون الدولة والمجتمع الإسلامى  
مسئولين عن ذلك مسؤولية كاملة . وما دام عدد النساء أكثر من عدد الذكور

في العالم ، فبدأ التعدد كفيل بحل المشكلات أمام الفتاة ، وبإتاحة الفرص أمامها للزواج . . أما تضيق الإسلام في مبدأ التعدد فيرجع إلى اشتراط القرآن ثقة الرجل الثقة الكاملة بقدرته على العدل بين الزوجات ، ومن الطبيعي أن أن فقر الزوج يجعل هذه الثقة معدومة . ومن ثم فإن الفقير لا يصح له إطلاقاً أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما الغني الوائق من نفسه بالقدرة على العدل بين الزوجات فيباح له أن يتزوج بأكثر من واحدة ، فإذا جار بين الزوجات قومه الحاكم ، وألزمه بالعدل بينهن . فإذا لم يثق الغني الموسر بنفسه في قدرته على العدل بينهن فلا يباح له أن يتزوج أكثر من واحدة . والزواج المتعدد في الإسلام خير للمرأة من أن يقيد الرجل نفسه بواحدة ثم يتخذ له خدينات كثيرات كما يشاء ويشاء له هواه .

وفي عصرنا الحاضر نجد دعاة يدعوون إلى سن قوانين لمنع تعدد الزوجات . ولتحريم الطلاق ، ويعلمون ذلك برعاية مصالح المرأة وحقوق الأسرة ، وإذا كانوا يفهمون أنهم أشد رعاية لمصالح المرأة وحقوق الأسرة من الله العلي الحكيم خالق البشر والناس جميعا ، فبئس ما يتصورون وما يفهمون . . إن مبدأ التعدد ومبدأ الطلاق لا يمكن أن يقول أحد من المصلحين والمشفقين على المرأة بأنها في صالح المرأة والرجل على السواء ، أما تنظيم هذين المبدأين فهو ما ينادى به القرآن ، وما شرع الحدود والقيود من أجله ؛ ففي تعدد الزوجات لم يباح الإسلام التعدد إلا عند الثقة بالعدل ثقة كاملة كما فصلنا سابقا . وفي الطلاق لم يباح الإسلام الطلاق إلا بعد التحكيم ، حكم من أهل الزوج ، وحكم من أهل الزوجة ؛ وإذا لم يمكن التوفيق بعد التحكيم فإن الحياة الزوجية تصبح مستحيلة بالنسبة للمرأة والرجل على حد سواء ، أما ألفاظ الطلاق التي يتفوه بها الرجل في كل مقام ، ويهدد بها المرأة في كل وقت ، ففي رأي أنها لا مفعول لها ، ولا أثر لها ، إلا عند العزيمة ، وإرادة الطلاق إرادة حقيقية ، وفي هذه الحالة لا يقع طلاق إلا بعد التحكيم ، وبعد تعذر الوصول إلى حل حاسم ، وصعوبة التوفيق في الخلاف بين الزوجين ، وفي رأي أن كل إصلاح للأسرة

يجب أن يتمشى مع روح القرآن الكريم ومع منطوقه أيضاً ، وإلا فالويل  
لمجتمعنا ، والهلاك لبيوتنا وأولادنا . أما الدعوة إلى تحديد النسل وتنظيمه ،  
فهذه مسألة أخرى سوف نعرض لها ولحكمها في موضع قريب ، عند تفسير  
قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم » . بتوفيق الله وعونه إن شاء الله .

٥ - وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا  
وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

٦ - وَأَبْلُوا الِيتِمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ  
رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا  
أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا  
فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا  
عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا .

لما أمرنا الله عز وجل في الآيات السابقة بإيتاء اليتامى أموالهم ، وإيتاء  
النساء صدقاتهن ومهورهن ، أتى الله عز وجل بشرط للإيتاء بعم الأمرين  
السابقين في قوله الكريم « ولا توتوا السفهاء أموالكم » ، أي أعطوا كل يتيم ماله إذا  
بلغ ، وكل امرأة صداقها ؛ وإلا إذا كان أحدهما سفياً لا يحسن التصرف في ماله ،  
فحينئذ يمتنع أن تعطوه إياه لئلا يضيعه ، ويجب حفظه له حتى يرشد ويصير  
أهلاً للتصرف في ماله . . وقوله تعالى : « ولا توتوا ، أيها الأولياء ، السفهاء »  
أي الميذرين من الرجال والنساء ، وقيل : هم اليتامى والنساء ، أو النساء خاصة ،  
أو الأطفال الصغار أو هي عامة « أموالكم ، أي أموالهم ، وإنما أضاف الأموال  
إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم ، وقيل : هذا نهى إلى كل أحد  
أن يعدل إلى ما خوله الله من المال فيعطيه امرأته وأولاده ثم ينظر إلى أيديهم ،  
وإنما سماهم سفهاء لأنهم فقدوا القدرة على إمعان النظر ، وعلى بعد التفكير في  
الشدائد والمشكلات « التي جعل الله لكم قياماً ، أي تصرفاً فيها ، أو جعلها لكم قياماً

تقوم بمصالحكم ومصالح أولادكم، وقيامًا بمصدر قام ووارزقوهم، أى أطعموهم  
« فيها واكسوهم، فيها، وإنما قال (فيها) لجعله الأموال ظروفًا للرزق، فيكون  
الإتفاق من الربح لا من الأموال التى هى الظروف، بأن يتجرؤوا فيها ويحصلوا  
من ربحها ما يحتاجون إليه، ولو قيل منها لكان الإتفاق من نفس الأموال  
« وقولوا لهم قولًا معروفًا، أى عدوهم عدة جميلة يعطائهم أموالهم إذا رشدوا،  
وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل فهو  
معروف؛ وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكر. وعن عطاء إذا ربحت  
أعطيتك وإن غنمت فى غزائى جعلت لك حظاً. وقيل: إن لم يكن ممن وجبت  
عليك نفقته فقل له: عافانا الله وإياك، بارك الله فيك، وقيل: هو أمر لكل  
أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء، قريب أو أجنبي رجل أو امرأة يعلم  
أنه سوف يضيعه فيما لا ينبغي ويفسده، وابتلوا، أى اختبروا (اليتامى، فى دينهم  
وتصرفهم، بأن يختبر ولد التاجر فى شئون التجارة وولد الزارع فى الزراعة  
والمرأة فى شئون المنزل، ويشترط تكرار الاختبار مرتين أو أكثر حيث يفيد  
غلبة الظن برشده، ووقت الاختبار قبل البلوغ « حتى إذا بلغوا النكاح، أى  
صاروا أهلاً له إما بالسن وهو استكمال خمسة عشر سنة تحديدية، لخبر ابن  
عمر رضى الله عنهما: عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وأنا ابن أربع  
عشرة سنة فلم يجزنى ولم يرنى بلغت، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس  
عشرة سنة فأجازنى ورأى بلغت. رواه ابن حبان وأصله فى الصحيحين،  
وابتداؤها من حين الولادة وانفصال جميع الولد، قيل: عرض عليه سبعة  
عشر من الصحابة وهم أبناء أربعة عشر فأجازهم، وإما بخروج (المنى)  
فى وقت إمكانه وأقله تسع سنين قربة تحديدية سواء أخرج من نوم أم يقظة  
بجماع أو غيره، وتزيد المرأة على هذين الأمرين الحيض لوقت إمكانه، وأقله  
تسع سنين قربة تقريبية: هكذا قال الفقهاء. وقد حدد القانون المصرى  
سن الزواج بالنسبة للشباب بالثامنة عشرة وبالنسبة للفتاة بالسادسة عشرة  
« فإن آنستم، أى أبصرتم « منهم رشداً، وهو صلاح الدين والمال،

أما صلاح الدين فإن لا يرتكب محرماً يسقط العدالة من كبيرة أو إصرار على صغيرة ، وأما صلاح المال فإن لا يضيعه فيما لا فائدة فيه أو يصرفه في محرم ، وليس صرفه في الخير بتبذير؛ نعم ، إن صرفه في ذلك أو في الكماليات بطريق الاقتراض له حرم عليه ، فادفعوا إليهم أموالهم ، من غير تأخير ، ولا تأكلوها ، أيها الأولياء . . وقوله تعالى « إسرافاً ، أي بغير حق » و « بداراً » ، حالاً أي مسرفين ومبادرين إلى إنفاقها مخافة « أن يكبروا ، رشداً فيلزمكم تسليمها إليهم » ومن كان ، أي من الأولياء ، « غنياً فليستعفف ، أي يعف عن مال اليتيم . ويمتنع من أكله » ومن كان فقيراً فليأكل ، منه « بالمعروف ، أي بقدر الأقل من حاجته وأجرة سعيه كما مر ، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي ، وروى النسائي وغيره أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : في حجري يتيم أفأكل من ماله ؟ فقال : بالمعروف . وإيراد هذا التقسيم بعد قوله « ولا تأكلوها ، يدل على أنه نهى للأغنياء منهم أن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى شيئاً ، وللفقراء منهم أن يأخذوا منها شيئاً بغير المعروف ، كما أن قوله « ولا تأكلوها إسرافاً وبادراً أن يكبروا ، يدل على أنه نهى للفريقين عن أكلها إسرافاً ومبادرة لكبرهم ، ومعنى « المعروف » أن الفقير يباح له أن يأخذ أجره على قيامه بحفظ أموال اليتيم وبتنميتها ، فإذا دفعتم إليهم ، أي اليتامى ، أموالهم فأشهدوا ، ندباً عليهم ، أنهم قبضوها ، فإن الإشهاد أني للثمة وأبعد عن الخصومة فتحتاجون إلى البيعة ، وهذا يدل على أن القيم لا يصدق في دعواه الدفع بلا بيعة ، وهو مذهب الشافعي ومالك خلافاً لأبي حنيفة ، وكفى بالله حسيباً ، أي حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم .

٧ - لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ  
نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ  
نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

٨ - وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ  
فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

٩ - وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ  
فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا .

ثلاث آيات كريمة فيها ذكر للمبادئ الأساسية في الميراث ، ووجوب  
إشراك المرأة والأطفال فيه ، كالرجال الكبار دون تفضيل ولا إثرة ، وعن  
ابن عباس : « كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى  
يدركوا ، فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت ، وترك ابنتين وابنا  
صغيرا ، فجاء ابنا عمه خالد وعرجة - وهما عصبته - فأخذوا ميراثه كله ، فأتت  
امرأته رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال : ما أدري ما أقول ،  
فنزلت « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك  
الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ، وأخرج ابن جرير  
في تفسيره عن ابن جريج عن عكرمة قال : نزلت في أم كحة وابنة كحة وثعلبة  
وأوس بن سويد وهم من الأنصار ، كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها .  
فقالت : يا رسول الله توفي زوجي وتركني وابنته فلم نورث . فقال عم ولدها :  
يا رسول الله لا تركب فرسا ولا تحمل كلا ولا تنكح عدوا ، نكسب عليها  
ولا تكتسب ، فنزلت الآية . وروى عن قتادة وابن زيد أنها نزلت في إبطال  
ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء ولا الصغار ، ولم يذكر واقعة  
معينة . وجمهور المفسرين على أن هذا الكلام جديد ، وهو انصراف عن  
الموضوع قبله كما يقول الإمام محمد عبده ، على ما ذكر صاحب المنار ، ولكن  
قوله تعالى بعد ثلاث آيات « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، الخ يدل  
على أن الكلام في شأن اليتامى لا يزال متصلا ، فإنه بعد أن بين التفصيل  
في حرمة أكل أموال اليتامى وأمر بإعطائهم أموالهم إذا رشدوا ، ذكر أن



المال الموروث الذي يحفظه الأولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء، خلافا لما كان في الجاهلية من عدم توريث النساء؛ فهذا تفصيل آخر في المال نفسه بعد ذلك التفصيل في الإعطاء ووقته وشرطه. ومال اليتامى إنما يكون في الأغلب من الوالدين والأقربين. فعنى الآية: إذا كان لليتامى مال مما تركه لهم الوالدون والأقربون فهم فيه على الفريضة، لا فرق في شركة النساء والرجال فيه بين القليل والكثير، ولهذا كرر «مما ترك الوالدان والأقربون»، وعنى بقوله «نصيباً مفروضاً» أنه حق معين مقطوع به لا محاباة فيه وليس لأحد أن ينقصهم منه شيئاً.

وقوله تعالى: «للرجال» الذكور «نصيب» أى حظ «مما ترك الوالدان والأقربون» أى المتوفون «وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه» أى المال «أو أكثر» جعله الله «نصيباً مفروضاً» أى مقطوعاً بتسليمه إليهم روى أن أوس بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه توفى وترك امرأته أم كحة بضم الكاف والحاء المشددة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه سويد وعرجة، فأخذوا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً، وكل أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار وإن كان الصغير ذكراً، إنما كانوا يورثون الرجال ويقولون: لا يعطى إلا من قائل، وجاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد الفضيخ، والفضيخ: موضع بالمدينة، قيل لعله المسجد الذى كان يسكنه أصحاب الصفة - فشكت إليه فقالت: يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك ثلاث بنات، وأنا امرأته وليس عندي ما أنفق عليهن، وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرجة لم يعطيانى ولا بناته شيئاً، وهن فى حجرى لا يطعمن ولا يسقن، فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكأ عدوا، فنزلت هذه الآية فأثبتت لهن الميراث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقربا من مال أوس شيئاً، فإن الله جعل لبناته نصيباً مما ترك - ولم

ميت كم هو - حتى أنظر بما ينزل فيهن، فأنزل الله تعالى « يوصيكم الله في أولادكم ، فأعطى صلى الله عليه وسلم أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم ، وهذا دليل غلي جواز تأخير البيان عن الخطاب .

والآية الثانية هي قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة ، أي للميراث « أولو القربي ، أي ذوو القربي بمن لا يرث « واليتامى والمساكين فارتزقوهم ، أي أعطوهم « منه ، أي المقسوم شيئاً ، قبل القسمة تطيباً لقلوبهم وتصديقاً عليهم ، وهو أمر ندب للبالغ من الورثة ، وقيل أمر وجوب ، واختلف العلماء في حكم هذه الآية : فقال قوم : هي منسوخة بآية الموارث كالوصية ، وعن سعيد بن جبير أن ناساً يقولون : نسخت ، والله ما نسخت ، ولكنها بما تهاون به الناس « وقولوا لهم قولاً معروفاً ، وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا على ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم ، وعن الحسن والنخعي : أدركنا الناس وهم يقسمون على القربات والمساكين واليتامى من العين أي الذهب والفضة ، فإذا قسم الذهب والفضة وصارت القسمة إلى الأرض وما أشبه ذلك قالوا لهم قولاً معروفاً ، كأن يقولوا لهم : بورك فيكم « وليخش ، أي وليخف على اليتامى « الذين لو تركوا ، أي قاربوا أن يتركوا « من خلفهم ، أي بعد موتهم « ذرية ضعفاء ، أي أولادا صغاراً وخافوا عليهم ، أي الضياع « فليتقوا الله ، في أمر اليتامى وغيرهم وليأتوا إليهم ما يحبون أن يفعل بذريعتهم من بعدهم « وليقولوا ، أي للمريض « قولاً سديداً ، أي عدلاً وصواباً بأن يأمره بأن يتصدق بدون الثلث ويترك الباقي لورثته ولا يتركهم عالة ، وذلك أنه كان إذا حضر أحدهم الموت يقول له عواده : أنظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئاً ، قدم لنفسك ، اعتق ، وصدق ، وأعط حتى يأتي على عامة ماله ، فنهام الله عن ذلك ، وأمرهم أن يأمره أن ينظر لولده ولا يزيد في وصيته على الثلث ، ولا يحذف بورثته .

قال ابن جرير : ثم اختلف الذين قالوا : هذه الآية محكمة ، وأن القسمة - أي الرزق والعطاء - لأولى القربي واليتامى والمساكين واجبة على أهل الميراث .

إن كان بعض أهل الميراث صغيرا وقسم عليه الميراث ولى ماله ، فقال بعضهم : ليس لولى ماله أن يقسم من ماله ووصيته شيئا لأنه لا يملك من المال شيئا ، ولكنه يقول لهم قولا معروفا . قالوا : والذي أمره الله بأن يقول لهم قولا معروفا هو ولى مال اليتيم إذا قسم مال اليتيم بينه وبين شركاء اليتيم ، إلا أن يكون ولى ماله أحد الورثة فيعطيهم من نصيبه ، ويعطيهم من يجوز أمره في ماله من انصباهم ، قالوا : فاما من مال الصغير فالذى يولى عليه ماله لا يجوز لولى ماله أن يعطيهم منه شيئا . وساق الروايات في ذلك عن الحسن وسعيد بن جبير والسدى وكذا عن ابن عباس ، ثم قال : وقال آخرون منهم : ذلك واجب في أموال الصغار والكبار لأولى القربى واليتامى والمساكين ، فإن كان الورثة كبارا تولوا عند القسمة إعطاءهم ذلك ، وإن كانوا صغارا ولى ذلك ولى ما لهم . . . . . وأورد الروايات في ذلك عن محمد بن عبيدة ومحمد بن سيرين ، ولكنهما تأولا الرزق بإطعام الطعام ، فكانا عند القسمة يأمران بذج شاة وصنع طعام لمن حضر القسمة من ذكر . وروى عن الحسن أنهم كانوا يحضرون فيعطون الشيء والثوب الخلق .

١٠ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظَالِمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي

بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا

هذه الآية الكريمة فيها وعيد شديد لهؤلاء الذين يستضعفون اليتيم ، فيأكلون ماله ظلما وعدوانا ، وينهبون حقوقه زورا وبهتانا ، وقوله تعالى « يأكلون ، أى يأخذون ، وعبر عن الأخذ والانتفاع بالأكل مجازا ، لأن الأكل أهم أسباب الأخذ ، أو مبالغة ؛ لأن الرجل كأنه أخذ مال اليتيم ووضعها في بطنه وقوله تعالى « ظلما ، أى بغير حق » وإنما يأكلون في بطونهم نارا ، أى ملء بطونهم يقال أكل فلان في بطنه وفى بعض بطنه ، ومعنى « يأكلون نارا ، أى يأكلون مايجر إلى النار ، فكأنه نار فى الحقيقة ، روى أنه يبعث آكل مان اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا ، فالمراد بالنار ، ما هو سبب لعذاب النار أو ما يشبه النار

في ضررها ، وروى أن أفواههم تملأ يوم القيامة جمرا ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم ليلة المعراج يجعل في أفواههم صخر من نار فيقذف في أجوافهم ، أى مثل له عذابهم بما سيكون عليه . وقد جعل بعض المفسرين هذا تفسيرا للآية بجعل أكل النار حقيقة لا مجازا ، وهو إنما يصح إذا صححت الرواية بجعل « يأكلون » للاستقبال والمتبادر منه أنه للحال بقريئة عطف الفعل المستقبل عليه وهو قوله « وسيصلون سعيرا » ، وهو قريئة لفظية ، من حيث أن صلى السعير هو عبارة عن دخول النار ، وإنما يكون أكل النار لمن يأكلها بعد دخولها أى دخول دار الجزاء التى سميت باسمها ، لأن جل العذاب فيها يكون بها ، فلو كان ما ذكره هو معنى الآية لكان لفظها هكذا : « فسيأكلون نارا ويصلون سعيرا » فالأكل عذاب باطن البدن ، لأن معظم اغتيال المال يكون للأكل ، والصلى عذاب ظاهره فهو جزاء اللباس وسائر التصرفات .

١١ - يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

١٢ - وَأَلَّكُمُ نَصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ

يَكُنْ لَكُمْ وَاوَدُّ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا  
تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ  
يُورِثُ كَفَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ  
مِنْهُمَا الشُّدُوسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي  
الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةُ  
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ .

آيتان كريمتان تينان فريضة الميراث في الإسلام وأحكامه على التفصيل ،  
وقد أمر الله تعالى فيما قبل هاتين الآيتين من أوائل السورة - كما يقول الشيخ  
رشيد رضا في تفسير المنار - بإعطاء اليتامى والنساء أموالهم ، إلا من كان سفيها  
لا يحسن تسمير المال ولا حفظه ، فيشمره له الولي ويحفظه له إلى أن يرشد ، ونهى  
عن أكل أموالهم ، وأبطل ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريثهم ، فناسب  
بعد هذا أن يبين أحكام الميراث وفرائضه . فكان بيانه في هاتين الآيتين وآية  
في آخر السورة . فهذه هي الفرائض التي جرى عليها العمل بعد نزولها . فبطل  
بها وبقوله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ما كان من نظام التوارث  
في الجاهلية وفي أول الإسلام أما الجاهلية فكانت أسباب الإرث عندها ثلاثة :  
١ - النسب ، وهو خاص بالرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون الأعداء  
ويأخذون الغنائم ، وليس للطفل والمرأة منه شيء .

٢ - التبني ، فقد كان الرجل يتبنى ولد وغيره فيرثه ويكون له غير ذلك  
من أحكام الدين الصحيح ، وقد أبطل الله التبني بآيات من سورة الأحزاب ،  
ونفذ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بذلك العمل الشاق ، وهو الزوج بمطلقة  
زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه قبل الإسلام .

٣ - الحلف والعهد ، كأن الرجل يقول للرجل : دمي دمك وهدمي هدمك  
وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك . فإذا تعاهدا على ذلك مات أحدهما

قبل الآخر كان للحى ما اشترط من مال الميت، وقيل: إن هذا لم يبطل إلا بآيات الميراث. وأما الإسلام فقد جعل التوارث أولاً بالهجرة والمؤاخاة، فكان المهاجر يرث المهاجر البعيد ولا يرثه غير المهاجر وإن كان قريباً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يؤاخى بين الرجلين فيرث أحدهما الآخر. وقد نسخ هذا وذاك، واستقر الأمر عند جميع المسلمين بعد نزول أحكام الفرائض أن أسباب الإرث ثلاثة: النسب والصهر والولاء، وحكمة ما كان في أول الإسلام ظاهرة؛ فإن ذوى القربى والرحم للمسلمين كان أكثرهم مشركين، وكان المسلمون لقلتهم وفقيرهم محتاجين إلى التناصر والتكافل بينهم ولا سيما المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وتركوا المال منهم ماله فيها وذهب كثير من العلماء إلى أن الوصية للوالدين والأقربين قد نسخت أيضاً بآيات الميراث، ولكنك ترى أن هاتين الآيتين المفصلتين لأحكام الإرث قد جعلتا الوصية مقدمة على الإرث. وأكدت ذلك بتكراره عند كل نوع من أنواع الفرائض فيها، وترى أن الوصية للوالدين والأقربين في سورة البقرة مؤكدة تأكيداً ينافي النسخ، وتقدم ذلك في سورة البقرة: «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي في سننه وغيرهم من حديث جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيدا، وإن عهدهما أخذ ما لهما فلم يدع لهما مالا ولا نسكحان إلا ولهما مال. فقال: يقضى الله في ذلك. فنزلت آية الميراث «يوصيكم الله في أولادكم، الآية» فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عهدهما فقال: أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثلث وما بقي فهو لك، أخرجوه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر. قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه. قال العلماء: وهذه أول تركة قسمت في الإسلام. هذا والخطاب في الآية - كما يقول الإمام محمد عبده - عام موجه إلى جميع المكلفين في الأمة، لأنهم هم الذين يقسمون التركة وينفذون الوصية وتكافل الأمة في الأمور العامة. وقال غيره: إن الآية وما بعدها

تفصيل للإجمال في قوله « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » الآية . وقالوا : إنه يدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ولا حاجة لهم فيها على هذا القول ، إذ الظاهر أنها نزلت هي وما قبلها - ومنها تلك الآية المجملة - في وقت واحد . وما ذكر في سبب النزول لا يدل على التراخي والتأخير عن وقت الحاجة . ويجوز على فرض التأخير والتراخي أن تكون الآية الأولى أبطلت هضم حق المرأة والطفل لما فيه من الظلم والقسوة . ولم يكن المسلمون وقت نزولها قد كثروا وكثر أقاربهم منهم واستعدوا بذلك لنسخ أسباب الإرث الأولى المؤقتة بأسباب الإرث الدائمة ، فلما استعدوا لذلك نزل التفصيل بعد غزوة أحد كما في رواية جابر .

والآية الأولى من هاتين الآيتين هي قوله تعالى : « يوصيكم الله ، أي يأمركم ، في أولادكم ، أي في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة ، وهذا إجمال تفصيله قوله تعالى « للذكر ، منهم » مثل حظ ، أي نصيب « الأثنتين ، إذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف ، فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان ، وإنما فضل الذكر على الأنثى لاختصاصه بلزوم ما يلزم الأنثى من الجهاد وتحمل أعباء الأسرة وغيرهما ، وله حاجتان : حاجة لنفسه وحاجة لزوجته ، والأنثى حاجة واحدة لنفسها ، بل هي غالباً مستغنية بالتزويج عن الإنفاق من مالها ، ولكن لما علم الله تعالى احتياجها إلى النفقة وأن الرغبة تقل فيها إذا لم يكن لها مال جعل لها حظاً من الإرث وأبطل حرمان الجاهلية لها ، فإن قيل : هلا قيل للأثنتين مثل حظ الذكر أو للأنثى مثل نصف حظ الذكر ، أجيب بأنه إنما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك ، ولأن قوله « للذكر مثل حظ الأثنتين » قصد إلى بيان نقص الأنثى ، وما كان يقصد إلى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه ، ولأنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان ، وكان في ابتداء الإسلام بالمخالفة ، قال تعالى « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » ثم صارت الوراثة بالهجرة قال تعالى « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء » ،

ثم نسخ ذلك كله بالآية الكريمة . واختلف في سبب نزولها : فعن جابر أنه قال :  
جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا مريض لأعقل ، فتوضأ وصب  
على من وضوئه فعقلت فقلت : يا رسول الله لمن الميراث إنما يرثني كلاله  
فنزلت ، وقال مقاتل والسكبي في أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته ، وقال  
عطاء : استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أحد وترك امرأة وابنتين وأخاً فأخذ  
الأخ المال ، فأتت امرأة سعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم بابنتي سعد ، وإن  
سعدا قتل يوم أحد شهيداً وأن عمهما أخذ ما لهما فقال صلى الله عليه وسلم :  
ارجعي فلعل الله سيقضي في ذلك فنزلت ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
عمهما وقال : أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فهو لك ، فهذا أول  
ميراث قسم في الإسلام ، فإن قيل : كيف حظ الأثنين الثلثان ؟ فكأنه قيل :  
لذكر الثلثان ، أجيب بأن المراد حالة الاجتماع كما مر ، أما حالة الانفراد  
فالإبن يأخذ المال كله والبنتان تأخذان الثلثين .

والحكمة في جعل حظ الذكر كحظ الأثنين هي - كما ذكر الشيخ رشيد  
رضا - أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجته فكان له  
سهمان . وأما الأنثى فهي تنفق على نفسها ، فإن تزوجت كانت نفقتها على  
زوجها ، وبهذا الاعتبار يكون نصيب الأنثى من الإرث أكثر من نصيب  
الذكر في بعض الحالات بالنسبة إلى نفقاتهما . وما ذكره بعض المفسرين في  
بيان الحكمة من نقص عقولهن وغلبة شهوتهن المفضية إلى الإنفاق في  
الوجوه المنكرة فهو قول منكر ، وضعف عقولهن لا يقتضي نقص نصيبهن ،  
بل ربما يقال : إنه يقتضي زيادته كضعف أبدانهم لقلة حيلتهن في الكسب  
وعجزهن عن الكثير منه ، ولذلك روى عن بعض السلف أن الميراث جاء  
على خلاف القياس المعقول ، وما أرى الرواية صحيحة ، كما أن معناها غير  
صحيح لما علمت من الحكمة التي بينها . وأما ما يزعمون من كون شهوتهن  
أقوى من شهوة الرجال ، وما بنوه عليه من إفضائه إلى كثرة إنفاق المال فهو  
باطل بنى على باطل ، وأنا نعلم بالاختبار أن الرجال هم الذين ينفقون الكثير



من أموالهم في سبيل إرضاء شهواتهم ، وقلبا نسمع أن امرأة أنفقت شيئا من مالها في مثل ذلك ، فمن يأخذن ولا يعطين ، والرجال هم الذين يبذلون لأنهم أقوى شهوة وأشد ضراوة.. نعم إن النساء يملن إلى الإسراف في الزينة وهي تستلزم نفقات كثيرة ، والشرع ينهى عن الإسراف فلا تكون أحكامه مبنية عليه ، ولكن علم بالاختبار أنهم كثيرا ما يرجحن الاقتصاد إذا كان أمر النفقة موكولا إليهن ، فإن كانت من الوالد أو الزوج فلا يكاد إسرافهن يقف عند حد . ولهذا نرى بعض الرجال المقتصدین يكلون أمر النفقة في بيوتهم إلى أزواجهم ، فتقل النفقة ويتوفر منها ما لم يكن يتوفر من قبل . وقوله تعالى : «فإن كن، أى الأولاد ، نساء ، خلصا ليس معهن ذكر ، وأنث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات ، وقوله تعالى : فوق اثنتين ، أى نساء زائدات على اثنتين ، فإن قيل : قوله تعالى «لذكر مثل حظ الأنثيين» كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد لا لبيان حظ الأنثيين فكيف صح أن يردف قوله «فإن كن نساء» وهو لبيان حظ الإناث ؟ أجيب بأنه وإن كان مسوقا لبيان حظ الذكر إلا أنه لما علم منه حظ الأنثيين مع أخيها كان كأنه مسوق الأمرين جميعاً ، فلذلك صح أن يقال : فإن كن نساء ، فلهن ثلثا ما ترك ، أى المتوفى منكم ، ويدل عليه المعنى « وإن كانت ، أى المولودة » واحدة فلهما النصف ، اختلف في ميراث الأنثيين فقال ابن عباس : حكمهما حكم الواحدة ؛ لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما ، وقال الباقر : حكمهما حكم ما فوقهما ؛ لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ، ثم لما أوهم ذلك أن يزداد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى «فإن كن نساء فوق اثنتين ، ، ويؤيد ذلك بأن البنت الواحدة لما استحققت الثلث مع أخيها فبالأولى والأحرى أن يستحقه مع أخت مثلها ، ويؤيده أيضا أن البنتين أمس رحما من الأختين ، وقد فرض لهما الثلثين بقوله « فلهما الثلثان بما ترك ، وقيل : فوق زائدة ، وقيل : لدفع توهم زيادة النصيب بزيادة العدد لما فهم استحقاق الثلثين من جعل الثلث للواحدة مع الذكر ، ولأبويه ، أى الميت :

وقوله تعالى « لكل واحد منهما السدس مما ترك » فالأب يكون له مثل ما للأم في هذا الموضع . . . وإن كان له ، أى الميت « ولد » ذكر أو غيره وألحق بالولد الابن وبالاب الجد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه ، أى فقط بقريته المقام « فلأمه الثلث » ، مما ترك ، وإنما لم يذكر حصة الأب لأنه لما فرض أن الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم علم أن الباقي للأب ، وكأنه قال : فلهما ما ترك أثلاثاً ، ولو كان معهما أحد الزوجين كان لها ثلث ما بقي بعد فرضه كما قال الجمهور لا ثلث المال كما قاله ابن عباس ، فإنه يفضى إلى تفضيل الأثني على الذكر المساوي لها في الجهة والقرب ، وهو كما قال البيضاوي خلاف وضع الشرع ، فإن كان له إخوة ، أى اثنان فصاعداً ذكوراً أو إناثاً كما عليه الجمهور « فلأمه السدس » والباقي للأب ولا شيء للإخوة ، وقال ابن عباس : لا يجب الأم من الثلث إلى السدس إلا ثلاثة إخوة ذكور أخذوا بظاهر اللفظ . وإطلاق اللفظ يدل على أن الإخوة يردونها من الثلث إلى السدس وإن كانوا لا يرثون مع الأب شيئاً ، وعن ابن عباس أنهم يأخذون السدس الذى حجبوا عنه الأم ، وقوله تعالى « من بعد وصية يوصى بها أو دين » متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها ، أى هذه الأنصبة للورثة من بعد وصية أو وفاة دين ، وإنما عبر بأو دون الوار للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومفردين ، فإن قيل : لم قدمت الوصية في الذكر على الدين مع أنها متأخرة في حكم الشرع عنه ؟ أجيب بأنها لما كانت شاقة على الورثة لكونها مأخوذة بلا عوض وهى مستحبة لكل مكلف بخلاف الدين فإنه لا يكون على كل مكلف ، فقدمت لذلك ؛ وقوله تعالى « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، أى لا تعلمون من أنفع لكم بمن يرثكم من أصواتكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم ، فمنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له ، وإنما العالم بذلك هو الله تعالى وقد دبر أمركم على ما فيه المصلحة فانبعوه ، وقال ابن عباس : أطوعمكم الله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة ، والله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض ، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة رفع إليه

ولده ، وإن كان الولد أرفع درجة من أبيه في الجنة سأل الله أن يرفع إليه  
فيرفع بشفاعته ، فريضة ، أى ما قدر من الموارث فرض ، من الله إن الله  
كان عليماً ، بأمور عباده ، حكماً ، فيما قضى وقدر ، أى لم يزل متصفاً بذلك .  
وبتلك الآية ينتهى الربع السابع من هذا الجزء ، وقد تضمن ما تضمن :  
من أمر بالتقوى وبصلة الرحم ، ومن تقويم لروابط الأخوة بين الناس ، ومن  
عناية باليتيم ، وتفصيل لطريقة معاملته ، ورعاية ماله ، والسهر على تنميته  
واستثماره ، ومن تشريع لنظام الزواج والمهر ، وإباحة لتعدد الزوجات بقيود  
فصلها القرآن الكريم ، ومن الأمر بالوصية ، وشرح نظام توريث الأموال  
بين الورثة ، ومن إبطال لعادات الجاهلية في الميراث ، ومنعهم لتوريث المرأة  
والأطفال .. إلى غير ذلك مما تضمنه هذا الربع من أحكام خطيرة ، لها أثرها  
في حفظ كيان المجتمع الإسلامى .

أما الآية الثانية من هاتين الآيتين ، فهى قوله تعالى : « واكم نصف ما ترك  
أزواجكم ، الخ - لما فرغ من بيان فرائض عمود النسب فى القرابة وهو الأولاد  
والوالدون ، وقدم الأهم منهما من حيث الحاجة إلى المال المتروك وهم الأولاد  
دون الأشرف وهم الوالدون - بين فرائض الزوجين وهما فى المرتبة الثانية  
لأنهما سبب لحصول الأولاد . والسبب إنما يقصد لأجل غيره والمسبب هو المقصود  
لذاته وهذا لا يعارض ما قلناه آنفاً فى قوة رابطة الزوجية ، فالوجه فى التفاضل  
تختلف باختلاف الاعتبارات ، قال عز وجل : « واكم نصف ما ترك أزواجكم ،  
أى اللواتى تحققن بهن الزوجية بأكل معناها ، وقوله تعالى : « إن لم يكن لهن  
ولد ، ذكر أو غيره منكم أو من غيركم ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن  
من بعد وصية يوصين بها أو دين ، وولد الإبن فى ذلك كالولد إجماعاً » ولهن ،  
أى الزوجات تعددن أو لا ، الربع مما تركتم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن  
ولد ، منهن أو من غيرهن « فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها  
أو دين ، وولد الإبن كالولد فى ذلك إجماعاً ، فقد فرض للرجل بحق العقد  
الصحيح ضعف ما للمرأة كما فى النسب ، وهكذا قياس كل رجل وامرأة وارثين

اشتركا في الجهة والقرب من الميت « وإن كان رجل ، أي الميت « يورث ، أي منه ، من ورث صفة رجل « كلاله ، اختلفوا في الكلاله ، فذهب أكثر الصحابة إلى أنها من لا واد له ولا والد ، قال الشعبي : سئل أبو بكر رضي الله عنه عن الكلاله ، فقال : إني سأقول فيها برأيي ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، أراه ما خلا الوالد والولد . وقال : لما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : إني لأستحي من الله أن أرد شيئا قاله أبو بكر ، وذهب طاووس أن الكلاله من لا ولد له ، وهي إحدى الروايتين عن ابن عباس ، وأحد القولين عند عبد الله بن عمر ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ثلاث لو يكون النبي بينهن لنا أحب إلينا من الدنيا وما فيها : الكلاله والخلافة وأبواب الربا ، وقال معاذ بن أبي طلحة : خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني لا أدع بعدى شيئا أهم عندي من الكلاله ، وما أغلظ بي في شيء ما أغلظ فيه حتى طعن بأصبعه في صدري وقال : يا عمر ألا يكفيك آية آخر سورة النساء ، وإني إن أعش أقض فيها بقضية يقض بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن .

ويقول الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار في ذى الكلاله : هو من ليس له والد ولا ولد ، وعليه أكثر الصحابة . واللفظ مصدر كل يكال بمعنى الكلال ، وهو الإعياء ، ثم استعمل للقرابة البعيدة غير قرابة الولد والوالد لضعفها بالنسبة إلى قرابة الأصول والفروع . وقال بعضهم : كالت رحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة ، وحمل فلان على فلان ثم كل عنه إذا تباعد ، ومنه سميت القرابة البعيدة كلاله ، ذكره الرازي وجها ثانيا . وذكر وجها ثالثا هو أن الكلاله في أصل اللغة عبارة عن الإحاطة ، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس ، والكل لإحاطته بما يدخل فيه ، ويقال : تكلم السحاب إذا صار محيطا بالجوانب قال : إذا عرفت هذا فنقول من عدا الوالد والولد إنما سموا بالكلاله لأنهم كالدايرة المحيطة بالإنسان وكالإكليل المحيط برأسه ، أما قرابة الولادة فليست كذلك ؛ فإن فيها يتفرع البعض عن البعض ويتولد البعض من البعض .

كالشئ الواحد الذي يتزايد على نسق واحد . فأما القرابة المغايرة لقرابة  
الولادة وهي كالأخوة والأخوات والأعمام والعمت ، فإنما يحصل لنسبهم  
اتصال وإحاطة بالمنسوب إليه . ثم بين أن الكلالة يوصف بها الميت  
الموروث ويراد بها من يرثه غير أولاده ووالديه ، ويوصف بها الوارث  
ويراد به من سوى الأولاد والوالدين ، ورجح هذا بحديث يدل عليه ، وذكر  
كغيره أن لفظ الكلالة مصدر يستوى فيه القليل والكثير ولا يجمع ولا  
يثنى ، وقال بعضهم : إنه صفة كالمهاجة الأحمق . وعن عمر أنه كان  
يقول : الكلالة من سوى الولد من الوارثين ، وروى أنه لما طعن قال :  
كنت أرى أن الكلالة من لا واد له ، وأنا استحي أن أخالف أبا بكر : الكلالة  
من عدا الوالد والولد . رواهما عنه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير  
والبيهقي وغيرهم . والرواية الثالثة عنه التوقف ، وكان يقول : ثلاث لأن يكون  
النبي بينهن لنا أحب إلى من الدنيا وما فيها : الخلافة والكلالة والربا . رواه  
عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأبو الشيخ في الفرائض والحاكم والبيهقي وغيرهم .  
وروى ابن راهويه وابن مردويه عن سعيد بن المسيب بسند صحيح أن عمر  
سأل النبي كيف يورث الكلالة ؟ فقال : « أو ليس الله قد بين ذلك ، ؟ ثم قرأ :  
« وإن كان رجل يورث كلالة ، الخ الآية ، فكان عمر لم يفهم . فأنزل الله  
« يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ، الخ الآية ، فكان عمر لم يفهم ، فقال  
لحفصة : إذا رأيت رسول الله طيب نفس فاسأليه عنها ، فسأله فقال : « أبوك  
ذكر لك هذا ؟ ما أرى أباك يعلمها أبدا ، فكان يقول : ما أراي أعلمها أبدا  
وقد قال رسول الله ما قال . وروى عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن سعيد  
أيضاً أن عمر كتب أمر الجد والكلالة في كتف « أي عظم كتف ، ثم طفق  
يستخير ربه فقال : اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه ، فلما طعن دعا بالكتف ،  
فحأها ثم قال : كنت كتبت كتاباً في الجد والكلالة وكنت أستخير الله فيه ،  
وإني رأيت أن أردكم على ما كنتم عليه . فلم يدروا ما كان في الكتف . وهذه  
الروايات غريبة في معناها . فالأمر واضح لم يشتهه فيه من دون عمر ولا من

في طبقته ، والله في البشر شؤون ، وقلبا تقرأ ترجمة رجل عظيم إلا وتجد فيها أنه انفرد بشيء غريب في بابه . إن الله تعالى أنزل آيتين في الكلاله : الآية التي نفسرها والآية التي في آخر هذه السورة ، فبين في هذه الآية ما يرثه الإخوة للأم من الكلاله فقط للحاجة إلى ذلك وعدم الحاجة عند نزول الآية إلى بيان ما يأخذه إخوة العصب ، وكأنه وقع بعد ذلك إرث كلاله فيه إخوة عصب ، وسئل النبي عن ذلك فنزلت الآية الأخرى التي في آخر السورة ، التي جعلت للأخت الواحدة النصف إذا انفردت ، وللأختين فأكثر الثلثين ، وللأخ فأكثر كل التركة ، فإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، فأجمع الصحابة على أن قوله تعالى هنا وله أخ أو أخت ، يعنى به الأخ أو الأخت من الأم فقط ، لأن الأخوين من العصب قد بين حكمهما في الآية الأخرى ولأن قوله « فللكل واحد منهما السدس » ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ، يدل على أنهم إنما يأخذون فرض الأم ، فإنه إما السدس وإما الثلث ، واستدل المفسرون على ذلك بقراءة أبي زيادة « من الأم » ، وسعد ابن أبي وقاص بزيادة « من أم » ، وقالوا : إن القراءة الشاذة أى غير المتواترة تخصص لأن حكمها حكم أحاديث الأحاد . وعندى أن هذا ليس قراءة وإنما هو تفسير سمعه بعض الناس منهما فظنوا أن كلمة « من الأم » قراءة وإنهما يعدانها من القرآن . وأرى أن كل ما روى من الزيادة على القرآن المتواتر في قراءة بعض الصحابة قد ذكر على أنه تفسير ، فإن لم يكن الصحابي هو الذى قصد التفسير بذلك كان النبي الذى تلقى ذلك الصحابي عنه هو الذى قصد التفسير ، فظن الصحابي أنه يريد القرآن . والدليل على ذلك القراءة المتواترة عنه صلى الله عليه وسلم الخالية من هذه الزيادة . ولا دخل ههنا للفظ الراوى في الترجيح لأنهم يروون الأحاديث بالمعنى . والحاصل أن الأخ من الأم يأخذ في الكلاله السدس وكذلك الأخت لا فرق فيه بين الذكر والأنثى ، لأن كلا منهما حل محل أمه فأخذ نصيبها . وإذا كانوا متعددين أخذوا الثلث وكانوا فيه سواء ، لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم لما ذكرنا من العلة .

وقوله تعالى : «أو امرأة، أي أو امرأة تورث كلاله كذلك ، «وله، أي للرجل . «أخ أو أخت ، اكتفى بحكم الرجل عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركما فيه، ويصح أن يعود الضمير على الموروث الكلاله فيشمل الرجل والمرأة «فلكل واحد منهما السدس» ، وقد أجمعوا أن المراد به الأخ والأخت من الأم، فإن كانوا ، أي الأخت والأخوات من الأم ، أكثر من ذلك ، أي من واحد ، فهم شركاء في الثلث ، يستوى فيه ذكورهم وإناثهم ، لأن الأولاد بمحض الأنوثة ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، وقوله تعالى «غير مضار ، حال من ضمير يوصى ، أي غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث . وعن قتادة : كره الله الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث . وعن قتادة : كره الله الضرر في الحياة وعند الممات ونهى عنه ، وعن الحسن : المضارة في الدين أن يوصى بدين ليس عليه ، ومعناه الإقرار ، وقوله تعالى «وصية من الله ، مصدر مؤكد ليوصيكم ، أي يوصيكم بذلك وصية ، كقوله : فريضة من الله «والله عليم ، بما دبره خلقه من الفرائض ، حلیم ، بتأخير العقوبة عن خالفه . هذا وقد خصت السنة تورث من ذكر بمن ليس فيه مانع من قتل أو اختلاف دين .

١٣ - تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

١٤ - وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

آيتان جامعتان تشير أولاهما إلى الأحكام التي ذكرت من أول هذه السورة إلى ما قبل هذه الآية ، فقد جعل الله تلك الأحكام حدوداً لأعمال المكلفين ينتهون منها إليها ، ولا يجوز لهم تجاوزها أو تعديها ، وهكذا جميع أحكام الله تعالى من المأمورات والمنهيات والمباحات ، فإن لها حدوداً إذا تجاوزها المكلف وقع في المحذور ، والمدار في الطاعة على البقاء في دائرة هذه الحدود .

وهي الشريعة ، ومدار العصيان على اعتدائها ، وقوله تعالى : « تلك ، أى الأحكام المذكورة فى أمر اليتامى والوصايا والموارث « حدود الله ، أى شرائعه التى حدها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدوها » ومن يطع الله ورسوله ، فيما حكما به ، ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وقوله تعالى « خالدىن فيها ، حال مقدرة ، وذلك الفوز العظيم ، وأى فوز أعظم من ذلك الفوز » ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ، أى الله « يدخله ناراً ، خالداً فيها » وله عذاب مهين ، أى ذو إهانة ، وروى فى الضمائر فى الآيتين لفظ (من) وفى خالدىن معناها ، وقرأ نافع وابن عامر : ندخله جنات وندخله ناراً .

هذا وطاعة الله عز وجل هى اتباع دينه ، والتسك بما شرعه الله من الدين على لسان رسوله الكريم ، صلوات الله عليه ، وطاعة الرسول هى اتباع ما جاء به من الدين عن ربه عز وجل ؛ فطاعته هى عين طاعة الله عز وجل كما قال تعالى « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، وسيأتى ذكر الآية مع تفسيرها ، فما هى النكته إذا فى ذكر طاعة الرسول مع ذكر طاعة الله تعالى ؟ قد يقال : إن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول إنما تتحدان ، فتسكون الثانية عين الأولى فيما يسنده الرسول إلى ربه وبين أنه بوحي منه . وقد يأمر الرسول بأشياء وينهى عن أشياء باجتهاده ، فإذا جزم بذلك ولم يقم دليل على أن الأمر للإرشاد أو الاستحباب والنهى للكراهة أو الاستهجان وجبت طاعته فى ذلك ، سواء كان فى العبادات أو الأمور السياسية والقضائية ، لأنه إمام الأمة وحاكمها . وقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى لا يقرر رسله على خطأ فى اجتهادهم ، بل يبين لهم ذلك مع ذكر العفو عن عدم إعطاء الاجتهاد حقه المرصلى إلى ما هو الصواب المرضى عنده عز وجل ، كقوله لنبينا عند ما أذن لبعض من استأذنه من المنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك : « عفا الله عنك لم أذنت لهم ، الآية ، أو مع العتاب كما عاقبه على اجتهاده الموافق لاجتهاد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى قبول الفداء من أسرى بدر ، ما كان لنى أن يكون له أسرى ، الآيتين ، وكما عاقبه فى الإعراض عن الأعمى المسترشد



في أول سورة د عبس وتولى ، إلخ ولا يدخل في هذا المقام ما يقوله صلوات الله عليه في الأمور الدنيوية المحضة كالعادات والزراعة ونحوها ، لأنه ليس دينا ولا قضاء ولا سياسة ، ولذلك قال صلوات الله عليه في مسألة تأبير النخل :  
« أتم أعلم بامر دنياكم ، كما في الصحيح .

١٥ - وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ  
مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ  
الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا .

١٦ - وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأُتَاؤُهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا  
عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا .

١٧ - إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ  
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ  
عَلِيمًا حَكِيمًا

١٨ - وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ  
أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُدِّئْتُ بِالسُّوءِ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ  
كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَجْعَلُ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

هذه الآيات الأربع تتحدث عن الخيانة الزوجية وعقوبتها ، وعن التوبة إلى الله ، ووجه قبولها ووجه المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها أن هذه الآيات هي في بعض الأحكام المتعلقة بشئون الأسرة كآيات التي قبلها ، فذكر الله تعالى حكم إتيان النساء الفاحشة ، وحكم إتيان الرجال الفاحشة كذلك ، وسوف يلي هذه الآيات آيات أخرى بين الله عز وجل فيها حكم ما كانت عليه الجاهلية من إرث النساء كرها وعضلهن لأكل أموالهن ، وحكم ما يحرم منهن في النكاح .

وقوله تعالى : « واللاتي يأتين الفاحشة ، أي الزنا ، من نساءكم فاستشهدوا  
عليهن أربعة منكم ، أي من رجال المسلمين ، وهذا خطاب للحكام ، أي فاطبوا  
عليهن أربعة من الشهود ، وفيه بيان أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة من الشهود  
، فإن شهدوا ، عليهن بها « فأمسكوهن ، أي احبسوهن » في البيوت ، واجعلوها  
سجناً لهن ، وامنعوهن من مخالطة الناس ، حتى يتوفاهن الموت ، أي ملائكته  
« أو ، إلى أن » يجعل الله لهن سبيلاً ، أي طريقاً إلى الخروج منها ، أمروا بذلك  
أول الإسلام ، ثم جعل لهن سبيلاً ، بجلد البكر وتعذيبها عاماً ورجم المحصنة ،  
وفي الحديث لما بين الحد قال : خذوا عني خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً .  
رواه مسلم . . « واللذان ، أي الزاني والزانية » يأتيناها ، أي فاحشة الزنا « منكم ،  
أي الرجال » فأذوهما ، أي بالسب والضرب والتأديب « فإن تابا ، أي منهما  
« وأصلحا ، أي العمل » فأعرضوا عنهما ، ولا تؤذوهما « إن الله كان تواباً ،  
علي من تاب » رحيماً ، وهو علة الأمر بالإعراض وترك المذمة ، وهذا منسوخ  
بالحد ، روى ابن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما أخبراه أن  
رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله  
اقض بيننا بكتاب الله ، فقال الآخر - وكان أفقهما - أجل يا رسول الله ،  
فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي أن أتكلم ، فقال : إن ابني كان أجبراً عند  
هذا ، فزنا بامرأته ، فأخبروني أن علي ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة  
وبجارية ، ثم إنني سألت أهل العلم فأخبروني أنما علي ابني جلد مائة وتغريب  
سنة ، وإنما الرجم على امرأته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأقضين بينكما  
بكتاب الله ، أما غنمك وجاريتك فرد عليك ، ووجد ابنه مائة وغربه عاماً أي  
لأنه كان غير محصن ، وأمر أنيسا الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت  
رجمها فاعترفت فرجمها ، وروى ابن عباس عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه  
قال : إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل الله آية  
الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها ، رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ورجمنا بعد ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية

الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . والرجم في كتاب الله حق من زنى إذا أحسن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو الاعتراف . وجملة حد الزنا أن الزانى إذا كان محصنا - وهو الذى اجتمع فيه أربعة أوصاف : العقل والبلوغ والحرية والإصابة بالنكاح الصحيح ؛ فحد الرجم مسلما كان أو ذميا ، وعند أبي حنيفة أن الإسلام من شرائط الإحصان ؛ فلا يرجم عنده الذمى ، ويرده ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا ، وإن كان الزانى غير محصن بأن لا يجتمع فيه هذه الأوصاف - نظر إن كان غير بالغ أو مجنوناً فلا حد عليه ، وإن كان حراً عاقلاً بالغاً غير أنه لم يصب بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام ، ومثل الزنا اللواط عند الشافعى رضى الله تعالى عنه ، لكن المفعول به لا يرجم عليه وإن كان محصنا بل يجلد ويغرب .. « إنما التوبة على الله ، أى أن قبول التوبة ، كالمحتوم على الله ، تفضلاً منه بمقتضى وعده ، لأنه تعالى وعد بقبول التوبة فإن وعد شيئاً فلا بد أن ينجز وعده ، لأن الخلف فى وعده سبحانه وتعالى محال ، للذين يعملون السوء ، أى المعصية ، وقوله تعالى « بجهالة » فى موضع الحال ، أى يعملون السوء جاهلين ، أى سفهاء ، فإن ارتكب الذنب بما يدعو إليه السفه والشهوة ، لا ما تدعو إليه الحكمة والعقل ، وعن مجاهد : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع - أى يخرج من جهالته ، وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عصى به الله فهو جاهل جهالة عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل « ثم يتوبون من ، زمن « قريب ، أى قبل أن يدركهم الموت ، لقوله تعالى « حتى إذا حضر أحدهم الموت ، وقوله صلى الله عليه وسلم : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . وعن عطاء : ولو قبل موته بفراق ناقة . وعن الحسن أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض : وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه فى جسده ، فقال الله : وعزتي وجلالى لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر . والغرغرة : تردد الروح فى الحلق ، ومعنى (من) فى قوله « من قريب ، للتبويض ، أى يتوبون (١٣ - تفسير القرآن لخواجى ٤)

بعض زمان قريب ، كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضوره الموت زمانا قريبا ؛ لأن أمر الحياة قريب ، لقوله تعالى « متاع قليل ، ففي أى جزء تائب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب وإلا فهو تائب من بعيد » فأولئك يتوب الله عليهم ، أى يقبل توبتهم ، فإن قيل ؛ ما فائدة ذلك بعد قوله تعالى « إنما التوبة على الله ، أجيب بأن ذلك وعد بالوفاء بما وعده وكتبه على نفسه ، كما يعد الوفاء بما عليه « وكان الله عليما ، بخلقه « حكيا ، فى صنعه بهم « وليست التوبة للذين يعملون السيئات ، أى الذنوب « حتى إذا حضر أحدهم الموت ، أى أخذ فى النزح « قال ، عند مشاهدة ما هو فيه « إني تبت الآن ، حين لا يقبل من كافر إيمان ولا من عاص توبة ، قال تعالى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق « ولا الذين يموتون وهم كفار ، أى إذا تابوا فى الآخرة عند معاينة العذاب ، لا ينفعهم ذلك ولا تقبل توبتهم ، فسوى سبحانه وتعالى بين الذين يسوفون توبتهم إلى حضور الموت لمجازة كل منهما أوان التكليف والاختيار .

والمراد بالكفر هنا ما هو دون الشرك ، وعدم تصديق دعوة النبوة ، وهو استعمال معروف فى القرآن وقالوا : إنه يوجد كفر دون كفر ، وبه فسر أبو حامد الغزالي الحديث الصحيح « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، فقد بين أن ما يجب الإيمان به قسمان : قسم يجب أن يعلم لذاته ولا يتعلق به عمل ، كالإيمان بوجود الله ووحدانيته وسائر ما وصف به نفسه وبالوحي وصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقسم يجب أن يعلم ليعمل به كالإيمان بالفرائض وكون أدائها من أسباب رضوان الله ومشوبته ، وبتحريم المحرمات وكون اقترافها من أسباب سخطه تعالى وعقابه ، أى فوق ما فى الفرائض من إصلاح النفس وحال الاجتماع ، وما فى المحرمات من الضرر فى الأفراد والجماعات ، وإن من يعمل السيئة المحرمة لا يكون مؤمنا بتحريمها وصدق الرسول فيما أخبر به من كونها موجبة لسخط الله تعالى وعذابه ،

فالإيمان يشترط فيه اليقين، ومن أيقن بأن شيئاً من الأشياء يضره فهو لا يأتيه كما هو معلوم من غرائز البشر وارتباط أعمالهم بإرادتهم وإرادتهم بعلومهم المتعلقة بالنفع والضرر، بل علم أن من عادة الإنسان وطبعه أن يحتاط في دفع الضرر حتى إنه ليعمل فيه بقول من لا ثقة بقوله عنده لعدم عدالته . فإذا كنت جائعاً ولم تجد إلا طعاماً أخبرك رجل لا تثق بروايته في إخباره أنه مسموم، أفلا تبني على الاحتياط وتترك الأكل من ذلك الطعام؟ بل إنك لتقول إنه يحتمل أن يكون صادقاً فلا تعرض نفسك للهلاك بهذا الطعام! وقد أخبرك النبي المعصوم الصادق الأمين بأن هذه الذنوب سموم مهلكة للأرواح مفضية إلى سخط الله وعذابه، فكيف تدعى الإيمان به والجزم بصدقه وأنت تجعل خبره دون خبر ذلك الذي تجزم بعدم عدالته؟

وقوله تعالى « أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » أي أولئك الفريقان البعيذان عن سنة الفطرة وهداية الشريعة، المستعبدان لسلطان الشهوة وشيطان الرذيلة، قد أعتدنا وهياناً لهم عذاباً مؤلماً في دار الجزاء بما قدموا لأنفسهم في دار الأعمال، فإن إصرارهم على السيئات، إلى أن وافاهم الممات، قد دسى نفوسهم . وأفسد قلوبهم، فصاروا تهبط خطاياهم بأرواحهم إلى هاوية الهوان، وتعجز عن العروج إلى الجنان، ومعاهد الكرامة والرضوان .

١٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا  
وَلَا تَهْضُبُوهُنَّ لِتَهْضُبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ  
بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ  
فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

٢٠ - وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَّنَ زَوْجُكُمْ إِحْسَانًا  
فَنظَارًا بِالْأُولَىٰ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ؕ تَأْخُذُونَ مِنْهُ وَإِنَّمَا تُحِذُّونَ

٢١ - كَفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بِبَعْضِكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ  
مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا .

ثلاث آيات في حفظ حقوق المرأة ورعاية حرمتها ، وتقديس إرادتها ،  
وفي النهي عن استغلال ضعفها وهوانها ، وتحريم عادات شائعة عند العرب  
قبل الإسلام تسيء إلى المرأة وكرامتها .

والآية الأولى من هذه الآيات الثلاث يروى في سبب نزولها عن ابن  
عباس رضي الله عنه ، قال : « كان الرجل إذا مات أبوه أو حميمه وترك جارية-  
التي عليها ابنه أو حميمه ثوبه فمئنها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن  
كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، وفي رواية البخاري وأبي داود « كانوا  
إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن  
شاءوا وزوجوها وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه  
الآية في ذلك . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في كيشة  
ابنة معن بن عاصم من الأوس كانت عند أبي قيس بن الأسلت فتوفي عنها  
بفتح عليها ابنه ، فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : لا أنا ورثت  
زوجي ولا أنا تركت فأنكح . فنزلت . . وروى مثله عن أبي جعفر . وأخرج  
ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم  
في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله ، فكان يعضلها حتى يتزوجها أو يزوجها  
من أراد ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك . وروى عن الزهري : أنها نزلت في  
الرجل يحبس المرأة عنده لاجتاجة له بها وينتظر موتها حتى يرثها . وقوله تعالى :  
« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء ، أي ذاتهن « كرها »  
نزلت في أهل المدينة ، كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله  
امرأة وللرجل عصبية وألقى ثوبه على امرأة الميت أو على خباتها صار أحق  
بها من نفسها ومن غيره ، ثم إن شاء تزوجها بصدقتها الأول وإن شاء زوجها  
غيره وأخذ صداقتها ، وإذا شاء عضلها ومنعها من الأزواج ، يضارها  
لتفتدي المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها عصبية الميت ثوبه ، فهي أحق بنفسها  
وكانوا على هذا حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته ،  
فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها فورث فكاحها ثم تركها ، فلم يقربها

ولم يتفق عليها - يضارها لتفتدى نفسها منه ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : إن أبا القيس توفي وورث نكاحي ابنة ، فلا هو ينفق عليّ ، ولا يدخل بي ، ولا يدخل بي ، ولا يدخل بي ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والكره بالفتح ما أكره عليه ، وبالضم المشقة والبغض .

وقوله تعالى « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ، عطف على أن ترثوا ، أي لا تمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم يامساكن ولا رغبة لكم فيهن ضررا لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر ، وقيل : هذا خطاب لأولياء الميت ، والصحيح كما قال البغوي أنه خطاب للأزواج ، قال ابن عباس : هذا في الرجل يكون له المرأة وهو كاره صحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدى وترد إليه ما ساق إليها من المهر ، فنهى الله عن ذلك ، قال الزخشي : العضل الحبس والضيق ، ومنه : عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها به فخرج « إلا أن يأتين بفاحشة مينة ، كالزنا والنشوز وسوء العشرة ، قال عطاء : كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها ، فنسخ ذلك بالحدود . وقوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، قال الحسن رجع إلى أول الكلام . يعني : فأتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف ، وهو النصفة في الميت والإجمال في القول ، وقيل : هو أن يتصنع لها كما تتصنع له . فإن كرهتموهن ، فاصبروا ولا تفارقوهن « فحسى أن تكرر هوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، أي فربما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأحمد ، وأحببت ما هو ضد ذلك ، وليسكن نظركم ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير ، فلعل الله أن يرزقكم منهن ولدا صالحا ويعطفكم الله عليهن ، وقد نهت الآية على إمساك المرأة مع الكراهة لها ، ونهت على أن الإنسان لا يكاد يجد محبوبا ليس فيه ما يكره ، فليصبر على ما يكره لما يجب .

ولما كان الرجل إذا طمحت عينه إلى استظراف امرأة بهت بالتي تحته حورماها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاه ، ليصرفه إلى زوج

غيرها - نزل « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، أى أخذها بدلها بأن  
طلقتموها » و ، قد ، آتيم إحداهن ، أى الزوجات « قنطارا ، أى مالا كثيرا  
صداقا ، فلا تأخذوا منه ، أى القنطار « شيئا ، وهو قوله تعالى « تأخذونه بهتانه  
أى ظلما » وإنما مينا ، أى بينا ، أى تأخذونه باهتين وآمين ، وعن عمر رضى  
الله تعالى عنه أنه قام خطيبا فقال : أيها الناس ، لا تغالوا بصداق النساء ، فلو  
كان مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتى عشرة أوقية ؛ فقامت  
إليه امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، لم تمنعنا حقا جعله الله لنا ؟ والله يقول  
« وآتيم إحداهن قنطارا ، فقال عمر رضى الله عنه : كل أحد أعلم من عمر ،  
ثم قال لأصحابه : تسمعوننى أقول مثل هذا القول ولا تنكرونه على حتى  
ترد على امرأة ليست من أعلم النساء .. وقوله تعالى « وكيف تأخذونه ، استفهام  
توبيخ وإنكار ، أى تأخذونه بأى وجه ؛ « وقد أفضى ، أى وصل « بعضكم إلى  
بعض ، بالجماع المقرر بالمهر ، وكنى الله تعالى عن الجماع بالإفضاء وهو الوصول  
إلى الشيء من غير واسطة تعليما لعباده لأنه مما يستحى منه « وأخذن منكم ميثاقا ،  
أى عهدا « غليظا ، أى شديدا وهو ما أخذه الله للنساء على الرجال من إمساك  
بمعروف أو تسريح بإحسان ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله فى  
النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله . وقد قيل :  
صحة عشرين يوما قرابة ، فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد  
والامتزاج ؟

وقد استدل بعض الناس بذكر القنطار هنا على جواز التغالى فى المهور ،  
والآية ليست نصا فى جواز جعل القنطار مهرا - كما يقول الشيخ رشيد رضا  
فى تفسير المنار - لجواز أن يكون إتياء القنطار بوجوه متعددة كالهدايا  
والمنع ، ولكن روى سعيد بن منصور وأبو يعلى بسند جيد عن مسروق أن  
عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزاد فى الصداق على أربعائة



درهم ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول ، وآتيتهم إحداهن قنطاراً ، فقال : اللهم عفووا كل الناس أفتقه من عمر . اثم رجع فصعد المنبر فقال : إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربعائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب . وفي رواية أبي عبد الرحمن السلمي عند عبد الرزاق وابن المنذر أنه قال : إن امرأة خاصمت عمر نخصمته ، وفي الموفقيات للزبير بن بكار عن عبد الله بن مصعب قال : قال عمر : لا تزيدوا في مهر النساء على أربعين أوقية - أي من الفضة - فمن زاد أوقية جعلت الزيادة في بيت المال ، فقالت امرأة : ماذا لك ، قال : ولم ؟ قالت : لأن الله يقول « وآتيتهم إحداهن قنطاراً ، الآية فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ، ونقول : نعم إن الشريعة لم تحدد مقدار الصداق للمرأة ، بل تركت ذلك للناس لتفاوتهم في الغنى والفقير فيعطى كل بحسب حاله ، ولكن ورد في السنة الإرشاد إلى اليسر في ذلك وعدم التغالي فيه ومنه حديث : إن من خير النساء أيسرهن صداقاً . رواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عباس ، وحديث : إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها . رواه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث عائشة . وفي معناها حديثها عند هؤلاء : أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً . كذا رأيت في بعض كتب التفسير وهو في الجامع الصغير بلفظ « أيسرهن مؤنة ، . هذا والتغالي في المهور قد صار من أسباب قلة الزواج ، لأنه يكلف الرجال ما لا طاقة لهم به ، وقلة الزواج تفضي إلى كثرة الزنا والفساد ويكون الغبن في ذلك على النساء أكثر ، حتى إنه ربما ينتهي بالسنة الإلهية في الخلق المعبر عنها برد الفعل إلى أن يصير النساء في الإسلام هن اللواتي يعطين المهور للرجال ليتزوجوهن كما هي عادة النصارى . وإنك لترى هذه العادة الضارة متمكنة في بعض الناس تمكناً غريباً ، حتى إن أحدهم ليمتنع من تزويج ابنته للسكفاء الصالح الذي لا يطمع في مثله إذا كان لا يعطيه ما يراه لائقاً بمقامه من الصداق ، وقد يزوجه لمن لا يرضيه دينه ولا خلقه ولا يزوجها لها الهناء عنده إذا هو أعطاه المقدار الكثير ، الذي يخيل إليه جهله أنه لائق

بمكاته .. ومن الواجب في حياتنا الحاضرة تخفيف المهور إلى الحد المستطاع ليكون ذلك أبعث للشباب على الإقدام على الزواج .

٢٢ - وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

٢٣ - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

آيتان جليلتان تبيان الحدود التي يجب أن يحافظ عليها الإنسان عند ما يفكر في الزواج ، وتوضحان من يحل له أن يتزوجها ومن لا يحل من النساء . ويروى أنه كان الرجل إذا توفي عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن أمه ، أو ينكحها من شاء ، فلما مات أبو قيس ابن الأسلت قام ابنه محسن فورث نكاح امرأته أم عبيد بنت ضمرة ، ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئاً ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : ارجعي لعل الله ينزل فيك شيئاً . فنزلت : وَلَا تَنْكِحُوا ، الآية . ونزلت أيضاً : لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ، أي نزلت هذه الآيات عقب وقوع هذه الحادثة وأمثالها ، وتقدم ذكر القصة بلفظ آخر عند تفسير الآية الأولى . وقال الواحدى وغيره : إنها نزلت في محسن المذكور وفي الأسود بن خلف تزوج امرأة أبيه ، وفي صفوان بن أمية بن خلف

تزوج امرأة أبيه فاخته بنت الأسود بن المطلب ، وفي منظور بن رباب  
تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة . وقوله تعالى « ولا تتكحوا ما نكح آباؤكم  
من النساء ، وإنما عبر بـ ( ما ) دون ( من ) لأنه أريد به صفة ذات معينة وهي  
كونهن منكوحات ، وقيل ( ما ) مصدرية ، وقوله تعالى « إلا ما قد سلف » استثناء  
من المعنى اللازم للنهي فكانه قيل : تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما  
قد سلف ، أو من اللفظ للمبالغة في التحريم ، والمعنى : لا تتكحوا حلائل آباؤكم  
إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تتكحوه ولا يمكن ذلك ، والغرض المبالغة في  
تحريمه وسد الطريق إلى إباحته ، أي لكن ما قد سلف من فعلكم ذلك فإنه  
معفو عنه وقوله تعالى « إنه ، أي نكاحهن » كان فاحشة ومقتا ، علة للنهي ،  
أي إنه فاحشة ، فـ ( كان ) مزيدة أي قبيحا عند الله ، ما رخص فيه لامة من الأمم ،  
معموتا عند ذوى المروءات من الجاهلية وغيرهم ، وكانت العرب تقول لولد  
الرجل من امرأة أبيه « المقتى » ويسمى به الرجل المذكور أيضا ، قال في  
القاموس : نكاح المقت أن يتزوج امرأة أبيه بعده ؛ فالمقتى ذلك المتزوج  
أو ولده ، ومن ثم قيل : ومقتا ، كأنه قيل : هو فاحشة في دين الله بالمغة في القبح  
لقبح معقوت في المروءة ، ولا مزيد على ما يجمع القبيحين « وساء » أي بش  
« سيلا » أي طريقا ذلك . روى عن البراء بن عازب أنه قال : مر بي خالي  
ومعه لواء فقلت : أين تذهب ؟ فقال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى  
رجل تزوج إلى امرأة أبيه آتية برأسه . واعلم أن أسباب التحريم المؤبدة ثلاثة :  
قربة ورضاع ومصاهرة ، وضابط المحرمات بالنسب والرضاع أن يقال : تحرم  
نساء القرابة إلا من دخلت تحت ولد العمومة أو ولد الخؤولة ، وقد بدأ الله  
بالسبب الأول وهو القرابة فقال « حرمت عليكم أمهاتكم » أي العقد عليهن ،  
وكذلك يقدر في الباقي ؛ لأن تحريم نكاحهن هو الذي يفهم تحريمهن ، كما يفهم  
من تحريم الخمر تحريم شربها ، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله ، والأمهات  
جمع أم ، والأم كل من ولدتك فهي أمك حقيقة ، أو ولدت من ولدتك ذكرا  
كان أو أنثى ، كأم الأب وإن علت ، وأم الأم كذلك ، فهي أمك مجازا ، وإن شئت

قلت: كل أثنى ينتهى إليها نسبك ، وبناتكم ، جمع بنت وضابطها كل من ولدتها فهى بنتك حقيقة ، أو ولدت من ولدها ذكرًا كان أو أثنى ، كبنت ابن وإن نزل ، وبنت بنت وإن نزلت فبنتك مجازا ، وإن شئت قلت : كل أثنى ينتهى إليك نسبها ، وخرج بالبنت هذه البنت المخلوقة من زنا الرجل لأنها تحل له لأنها أجنبية عنه ، بدليل منع الإرث بالإجماع ، ويحرم على المرأة ولدها من زنا بالإجماع كما أجمعوا على أنه يرثها ، والفرق أن الابن كالمضو منها وانفصل منها إنسانا ، ولا كذلك النطفة التى خلقت منها البنت بالنسبة للأب ، وأخواتكم ، جمع أخت ، وضابطها هو : كل من ولدها أبوك أو أحدهما فهى أختك ، وعماتكم ، جمع عمة ، وضابطها هو : كل من هى أخت ذكر والدك بلا واسطة فعمتك حقيقة أو بواسطة كعمة أبيك فعمتك مجازا ، وقد تكون العمه من جهة الأم كأخت أبى الأم ، وخالاتكم ، جمع خالة وضابطها هو : كل من هى أخت التى ولدتك بلا واسطة فخالتك حقيقة ، أو بواسطة كخالة أمك فخالتك مجازا ، وقد تكون الخالة من جهة الأب كأخت أم الأب ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، من جميع الجهات ، وبنات اولادهم وإن سفن ، ثم ثنى بالسبب الثانى وهو الرضاع فقال ، وأمها تم اللاتى أرضعنكم وضابط أمك من الرضاع هو : كل من أرضعتك أو أرضعت من أرضعتك أو صاحب اللبن ، أو أرضعت من ولدك بواسطة أو غيرها ، أو ولدت مرضعتك بواسطة أو غيرها صاحب لبنها وهو الفحل بواسطة أو غيرها فأم رضاع ، وأخواتكم من الرضاعة ، وضابط أخت الرضاع هو : كل من أرضعتها أمك وأرضعت بلبن أبيك أو ولدتها مرضعتك أو ولدها الفحل ، ويلحق بذلك الستة باقى السبع لخبر الصحيحين : يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة ، وفى رواية : حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب ، وضابط بنت الرضاع : كل أثنى أرضعت لبنك أو لبن من ولده بواسطة أو غيرها وكذا بناتها من نسب أو رضاع وإن سفن ، وضابط عمه الرضاع هو : كل أخت للرضعة أو أخت أثنى ولدت المرضعة بواسطة أو غيرها من نسب أو رضاع ، وضابط بنات الإخوة وبنات الأخوات من الرضاع : كل أثنى من

بنات أولاد المرضعة والفحل من الرضاع والنسب ، وكذا كل أثنى  
أرضعتك أختك أو ارتضعت بلبن أخيك ، وبناتها وبنات أولادها من  
نسب أو رضاع ، وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين : أحدهما أن يكون قبل  
استكمال المولود حولين لقوله تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين  
كاملين ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء ،  
وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا رضاع إلا ما نشر العظم  
وأثبت اللحم ، وإنما يكون هذا في حال الصغر ، وعند أبي حنيفة : مدة الرضاع  
ثلاثون شهرا لقوله تعالى « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وهي عند  
الأكثرين لأقل الحمل ، وأكثر مدة الرضاع وأقل مدة الحمل ستة أشهر ،  
وابتداء الحولين من تمام انفصاله ، والشرط الثاني أن يوجد خمس رضعات  
متفرقات ، لما روى عن عائشة رضيت الله تعالى عنها أنها قالت فيما أنزل الله في  
القرآن عشر رضعات معلومات يحرم من ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي فيما يقرأ من القرآن أى يقرؤها من  
لم يبلغه نسخن ، فقد نسخت تلاوتهن وبقي حكمهن ، وهذا ما ذهب إليه الشافعي ،  
وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره محرم ، وهو قول ابن  
عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب ، وإليه ذهب سفيان الثوري ومالك  
والأوزاعي ، وعبد الله بن المبارك وأبو حنيفة ويقوى الأول قوله صلى الله  
عليه وسلم : لا تحرم المصاة من الرضاع والمصتان - ثم تلك بالسبب الثالث  
وهو النكاح فقال « وأمهات نسائكم ، أى بواسطة أو غيرها من نسب أو رضاع  
سواء أدخل بزوجه أم لا لإطلاق الآية « وربائبكم ، جمع ربيبة وهي بنت  
الزوجة من غيره ، وسميت ربيبة لأنه يربها كما يربي أبناءه ولو في غالب الأمر ثم  
اتسع فيه ، وسميت بذلك وإن لم يقم بتربيتها ، وقوله تعالى « اللاتي في حجوركم ،  
صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها « من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، أى  
جامعتموهن سواء كان ذلك بعقد صحيح أم فاسد لإطلاق الآية « فإن لم تكونوا  
دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، أى في نكاح بناتهن إذا فارقتموهن . تنبيه : قضية

كلام الشيخ أبي حامد وغيره أنه يعتبر في الدخول أن يقع في حياة الأم ، فإن قيل :  
لم يعتبر الدخول في تحريم أصول البنات واعتبر في تحريمها الدخول؟ أجيب  
بأن الرجل يبتلى عادة بمكالمة أمها عقب العقد لترتيب أموره ، فحرمت بالعقد  
ليسهل ذلك عليه بخلاف بنتها وحلائل ، أى أزواج «أبنائكم» ، واحداً منها حليلة  
والذكر حليل ، سمي بذلك لأن كل واحد يحل إزار صاحبه ، من الحل وهو  
ضد العقد ، وقوله تعالى «الذين من أصلا بكم» احتراز عن حليلة المتبني ، فإنها  
لا تحرم على الرجل الذي تبناه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة  
زيد بن حارثة ، وكان تبناه صلى الله عليه وسلم ، لا عن حليلة ولده من الرضاع  
فإنها تحرم عليه ، ولا عن حلائل أبناء الولد وإن سفلوا ، ثم ذكر سبحانه وتعالى  
تحريم الجمع بقوله تعالى «وأن تجمعوا بين الأختين» ، أى ولا يجوز للرجل  
أن يجمع بين الأختين في نكاح ، سواء كانتا من نسب أم رضاع ، وسواء  
أنكحهما معاً أم مرتباً ، فإذا نكح امرأة ثم طلقها بائناً جاز له نكاح أختها .  
ويلحق بالأختين الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من نسب أو رضاع ولو  
بواسطة ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تنكح المرأة على عمتها ولا العممة على  
بنت أخيها ، ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أخيها ، لا الكبرى على  
الصغرى ولا الصغرى على الكبرى . رواه الترمذى وغيره وصححه ، لما فيه  
من طبيعة الرحم وإن رضيت بذلك ، فإن الطبع يتغير ، وإليه أشار صلى الله  
عليه وسلم في خبر النهي عن ذلك بقوله : إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامهن .  
وضابط تحريم الجمع ابتداءً ودواماً ، هو : كل امرأتين بينهما قرابة أو رضاع ،  
لو فرض أن إحداً من ذكر وحرماً تناكحهما حرم أيضاً الجمع بينهما بنكاح . وقوله  
تعالى «إلا ما قد سلف» استثناء عن لازم المعنى وهو المؤاخذة فكانه تعالى قال :  
تؤاخذون بذلك إلا ما قد سلف قبل النهي فلا تؤاخذون به ، أو منقطع ، أى  
لكن ما سلف من نكاح بعض ما ذكر فإنه مغفور لكم ، ويؤيد هذا قوله تعالى  
«إن الله كان عفورا» ، لما سلف منكم قبل النهي «رحيماً» بكم في ذلك .

وأخيرا ينتهى الربع الثامن من الجزء الرابع من القرآن الكريم ، الذى اشتمل على كثير من أحكام فريضة الميراث ، واشتمل على تحديد واضح لحدود الله ، وجزاء الطائعين والعاصين ، واشتمل كذلك على أحكام ومبادئ فى معاملة النساء اللاتى يأتين الفاحشة ، وعلى التوبة المقبولة وغير المقبولة ؛ وفيه إبطال لعادات جاهلية مذمومة ، كاعتبار النساء متاعا يورثن كما يورث ، وكحضل النساء - أى منعهن - عن الزواج ، وفيه أمر إلهى بمعاشرة النساء بالمعروف ، ودعوة إلى سماحة الصدر ولين الجانب فى معاملتهن ، وفيه كذلك نهى عن استرداد الرجل لشيء من مهر زوجته عند رغبته فى الانفصال عنها . وفيه بيان للحرمان من النساء على المسلم أن يتزوجهن ؛ وما أعظم إنسانية الإسلام الكريم ومعاملته للمرأة حين نهى أن تورث المرأة ، وبهذا اعتبرها القرآن ذات شخصية مساوية لشخصية الرجل تماما ، ولم ينظر إليها على أنها سلعة تباع وتشتري وتوهب وتورث - كما كان يفعل فى الجاهلية - ؛ ثم ما أروع هذا التعبير القرآنى البليغ : « أفضى بعضكم إلى بعض ، وما أروع تمثيل أحكام الإسلام وأوامره ونواهيه بحدود الله .

## نظرة عامة

### في الجزء الرابع من القرآن الكريم

الجزء الرابع من القرآن الكريم يشمل كثيرا من سورة آل عمران ،  
وربعين من ثمانية من سورة النساء .

في سورة آل عمران تقرأ في الربع الأول من الجزء الرابع : حجاجا  
لبنى إسرائيل ، ودعوة لهم إلى اتباع شريعة جدهم إبراهيم عليه السلام ، وتعظيما  
للبيت الحرام بناء إبراهيم ، ثم تقرأ فيه توبيخا لأهل الكتاب لكفرهم بدعوة  
محمد ورسالاته ، ولمقاومتهم لدينه وشريعته . وفي هذا الربع كذلك نهى للمؤمنين  
عن طاعة فريق من أهل الكتاب ، يسعون لزعزعة عقيدة المسلمين ، ولردمهم  
بعد إيمانهم كافرين ؛ وفيه أمر إلهي للمؤمنين بتقوى الله حق تقواه ، وبالاعتصام  
بالإسلام والتأخي فيه ، ودعوة لهم إلى وجوب الدعوة للإسلام ومبادئه ،  
وفيه كذلك رفع لمنزلة أمة الإسلام على سائر الأمم ، ودعوة لأهل الكتاب  
ليؤمنوا برسالة محمد عليه السلام كما آمنوا برسالة أنبيائهم ورسولهم .

وفي الربع الثاني تنويه بطائفة من أهل الكتاب آمنت بنبيها ورسول  
الإسلام ، كما اشتمل آخر الجزء السابق على ذكر طائفة منهم مناقضة لهذه  
الطائفة ، طائفة كفرت بالكتب السماوية ، واعتدت على أنبياء الله بالقتل ،  
وعصوا أوامر الله .

وصف القرآن الكريم الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب - التي جمعت إلى  
الإيمان برسالة نبيهم الإيمان برسالة نبي المسلمين - بهذه الصفات الجليلة ، وبأنهم:  
أمة قائمة .

يتلون آيات الله أناء الليل .

وهم يسجدون .

يؤمنون بالله



ويؤمنون باليوم الآخر .  
ويأمرون بالمعروف .  
وينهون عن المنكر  
ويسارعون في الخيرات .

ثم ذكر القرآن الكريم الكافرين وعقابهم الشديد في الآخرة عند الله .  
وفي هذا الربع أيضا نهى للمؤمنين عن اتخاذ بطانات لهم من الكافرين الذين  
يسعون في الخبال والدمار للمؤمنين، والذين يضررون الحق والكرامية للمسلمين ،  
ويحزنون لما ينالهم من خير ونعمة ونصر ، ويفرحون لما يصيب المسلمين من  
شر وهزائم ومحن وخطوب . واشتمل كذلك على ذكر بدر وانتصار الإسلام  
فيها ، وأهمية هذا الانتصار في حياة الإسلام والمسلمين . وفيه كذلك نهى عن  
الربا ، وإرشاد إلهي للمؤمنين بأن يعملوا على اتقاء النار دائما وأبدا ، وأمر لهم  
بطاعة الله وطاعة الرسول ، وتعليق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة على  
هذه الطاعة .

أما الربع الثالث ففيه دعوة للمؤمنين ليسارعوا إلى مغفرة من الله وإلى  
جناته الواسعة العظيمة التي أعدت للمتقين ، وفيه شرح لصفات المتقين من  
بذل وجود وكظم للغيظ ، وعفو عن الناس ، وتوبة وترك للإصرار على  
الذنوب . وفيه كذلك دعوة إلى الاعتبار بمصائر الأمم ، قد خلت من قبلكم  
سنين ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين ، وفيه عزاء  
للسول والمسلمين عن هزيمة أحد ، وتقوية لروح المسلمين المعنوية ، وبعث  
لهم على الجلد والصبر ، ووعد من الله بالخيال والهلاك للمشركين والكافرين .  
وفي الربع الرابع تصوير لهزيمة المسلمين في أحد وأسبابها ، وعزاء للمؤمنين  
في هذه الهزيمة ، وفيه نهى عن الخيانة في الغنائم ، وما أروع ما قال الله  
عز وجل في تصوير إحسان الله العظيم ببعثة محمد خاتم النبيين .

لقد من الله على المؤمنين :

إذ بعث فيهم رسولا .  
من أنفسهم .  
يتلو عليهم آياته .  
ويزكهم .  
ويعلمهم الكتاب .  
والحكمة .

وإن كانوا من قبل لني ضلال مبين .

ولو حاولنا أن نفصل معنى ذلك ودلالته على ما أصاب الإنسانية كلها بيعة محمد ، وعلى ما أصاب المؤمنين كذلك ، وعلى ما أصاب العرب خاصة ، من خير ومجد وعزة وهدى وفلاح ، بنزول القرآن ، وبعثة محمد ورسالته ، وهو رسول عربي من العرب الذين نزلت في وسطهم رسالة الإسلام ؛ لو حاولنا ذلك لضاق الوقت ، وتعسر البيان ، وتعذر التفصيل .  
واحتوى هذا الربع كذلك على تعظيم منازل الشهداء عند الله ، وعلى تصوير ما يلحقهم من خير بسبب استشهادهم وتضحياتهم وجهادهم في سبيل الإسلام ، وقد حدث الله عز وجل عنهم بأنهم :  
أحياء عند ربهم .

يرزقون .

فرحون بما آتاهم الله من فضله .

كما تحدث القرآن الكريم في الربع الخامس كذلك عنهم ، ووصفهم بأنهم يستبشرون بنعمة وفضل من الله .. وقد أمعن المفسرون في تفسير معنى الرزق الذي بناهم ، وما يصيبون من مآكل وملذات في القبر ، وهذا خطأ وعدم فهم لكتاب الله ، لو دروا أن الرزق كما يكون بالمال والأكل يكون كذلك بالرضاء والرعاية والعطف ، لفسروا الآية تفسيرا آخر ، فمعنى « يرزقون » أنهم ينالون ما كانوا يطمعون فيه من رضاء الله ومشوبته وإكرامه وفضله .

وفي الربع الخامس تنويه كذلك بالشهداء وجهادهم وتضحياتهم وثباتهم في سبيل الإسلام ورسوله الكريم . وفيه إشادة بمواقف رائعة لصحابة رسول الله في جهاد المشركين ، وفي الدفاع عن الإسلام ، وفي نضال أعداء المسلمين . وفيه تصوير رائع للبخلاء وجزائهم في الآخرة عند الله ، ولمواقف جماعة من اليهود ، قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . وقالوا : إن الله عهد إلينا ألا تؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

وفي الربع السادس تعزية للمسلمين عما يصيبهم من محن وشدائد وخطوب وإيذاء كثير ، ودعوة لهم إلى التمسك بالصبر والتقوى ، وفيه بيان لما أزم الله عز وجل به أهل الكتاب في كتبهم المقدسة من بيان أحكام الله كاملة وعدم كتمان شيء منها . ولو كان هذا الشيء هو بشارة الله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة الناس عامة إلى الإيمان بهذه الرسالة ، وفيه تمجيد لله وتعظيم لخلقته ، ولما صنع في الأرض والسماء وفي الكون والحياة من معجزات ، وفيه شرح لصفات المؤمنين ، وبيان لجزائهم عند الله ، وفيه كذلك تسلية للرسول ، وتقوية لروحه ، وربط على قلبه ، وحفز له على مواصلة الجهاد ، وعلى عدم المبالاة بالكافرين ، وبألا يغره تقلبهم في البلاد ، ويبين الله عز وجل مصير الكافرين في الدنيا والآخرة ، ومصير المتقين المؤمنين كذلك . كما يبين جزاء أهل الكتاب الذين آمنوا بالإسلام مع الإيمان برسالة أنبيائهم . ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى الصبر والمصابرة وقوة العزيمة في سبيل نشر الإسلام ودعوة الناس جميعا إلى الإيمان برسالاته ، ويعلق على ذلك الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة .

وبذلك تنتهي سورة آل عمران ، وينتهي بنهايتها الربع السادس من الجزء الرابع من القرآن الكريم ، هذه السورة العظيمة التي جمعت أعظم وأروع الأصول ، والتي فصلت مبادئ الدعوة إلى الإسلام تفصيلا كثيرا ، والتي رفعت من منزلة الإسلام والمسلمين في الحياة ، والتي فرضت الدعوة إلى الإسلام فرضا على المسلمين ، والتي دعا فيها الله عز وجل أهل الكتاب من

اليهود والنصارى إلى الإيمان برسالات أنبيائهم وبرسالة رسول الإسلام ،  
وبذلك أقام الإسلام أساس الأخوة الإنسانية في الدين ، وأساس النهضة  
الروحية للبشر كافة .

إن سورة آل عمران مثل عظيم في معانيها وحكمها ودعواتها ، وفي آرائها  
وأفكارها ، وفي بلاغاتها وأسلوبها ونظمها ؛ وهي جديرة بوجوب التأدب  
بآدابها ، لينال المسلمون من وراء هذه التوجيهات الإلهية - لو عملوا بها - القوة  
والعزة والمجد والخير والفلاح ، في الدنيا والآخرة ، وفي الأولى والعقبى ؛ وإلى  
الله ترجع الأمور ، وتصير الحياة والأحياء جميعا .

أما الربعان الباقيان من هذا الجزء فهما في أول سورة النساء ، السورة  
الرابعة من سور القرآن الكريم .

ويصور الربع الأول من سورة النساء مدى عناية القرآن الكريم باليتامى  
في أنفسهم وأموالهم ، ويجيز تعدد الزوجات في الإسلام إلى أربع ، ويوصى  
برعاية أموال السفهاء واليتامى وتديريها واستثمارها وترك الطمع فيها ، ويرعى  
حقوق النساء ويحافظ عليها ويدافع عنها ، ويشرح حقوق الإرث وفريضة  
المواريث شرجا وافيا .

وفي الربع الثاني يتمم الله عز وجل حديث فريضة الميراث ومستحقه ،  
ويفصل أحكام المواريث ، ويرسم الله عز وجل حدود شريعته : « الإسلام »  
آمرا من أطاعه باتباعها ، ومحذرا من عصاه من اجتنابها .

ثم يشرح عدة أحكام تتعلق بالمرأة ورعاية حقوقها والمحافظة على كرامتها ،  
وإبطال عادات جاهلية كانت تضر بالمرأة ومعنويتها ، ويفيض القرآن الكريم  
في ذكر المحرمات من النساء على الرجل . وبذلك ينتهى الربع الثانى من هذه  
السورة ، وينتهى بانتهائه الجزء الرابع من أجزاء القرآن الكريم .

وإذا استعرضنا الموضوعات التى ذكرت فى هذين الربعين من سورة  
النساء نجدها على التوالى هكذا :

١ - الأمر بتقوى الله وبصلة الأرحام ورعايتها وأداء حقوقها .. والكلام

على الأرحام هنا هو المقصود ، ولتأكيد الأمر بحفظ حقوق الرحم وبتقوى الله في الأرحام صدرت السورة بالأمر بتقوى الله في كل حال ؛ تمهيدا للأمر بتقوى الله في الأرحام .

٢ - إعطاء اليتامى أموالهم عند انتهاء الوصاية عليهم .

٣ - جواز تزوج المسلم بواحدة وبأثنتين وبثلاث وبأربع ؛ بشرط أمن العدالة في معاملتهن ، وهذا العدل بالنظر إليهما معا بأن يسوى بينهما في كل شيء ، وبالنظر إليهما واحدة واحدة بأن يستطيع أن ينفق عليهما وعلى كل واحدة منهما ، وعلى أولاده من كل واحدة .

٤ - فرض المهر وجعله حقا للزوجة عند العقد عليها ، ولا يجوز أخذ الصداق كله أو بعضه من الزوجة إلا إذا تنازلت عنه عن طيب نفس .

٥ - وجوب تحرى سن الرشد بالنسبة لليتيم عند انتهاء مدة الوصاية عليه ، لرفع الحجر عنه ، ولدفع أمواله كاملة إليه ، وعدم أخذ شيء منها إلا بالمعروف الذي يتعارف عليه الناس ، ويرضى عنه ضمير المسلم .

٦ - شريعة الميراث وتقرير حق الرجل والمرأة فيها على حد سواء .

٧ - إخراج شيء من التركة حين قسمتها للأقرباء المحتاجين واليتامى

والمساكين ، على سبيل الصدقة ، رعاية لحقوق الفقراء ، وصدقة على الميت ، لعل الله أن يكرمه في القبر وعند البعث والحساب ؛ وهذا منشأ العادة الإسلامية الجارية بتلاوة القراء للقرآن الكريم أيام وفاة الميت وبصنع الأكل وتقديمه للفقراء . وجواز ذلك بشرط القصد وعدم الإسراف . وأن يكون القصد هو

وجه الله تعالى لا الفخر والمباهاة

٨ - وجوب معاملة الوصي اليتيم ، كما يجب الوصي أن يعامل به أولاده .

بعد وفاته .

٩ - النهي عن أكل مال اليتيم ظلما وعدوانا لا بالمعروف .

١٠ - تقرير فريضة الميراث وتحديد أنصبة الورثين .

١١ - بيان جراء الطائعين والعاصين من مخالفتهم دين الله ، وخاصة في

فريضة الميراث ، فيقسمونه دون ما أمر الله ، أو يجعلون أموالهم لواحد دون الآخر من أولادهم ووراثهم .

١٢ - جزاء الزوجات اللاتي يأتين الفاحشة وتقرير العقوبة على جريمة الزنى على الرجل والمرأة على السواء ، وقد قرر القرآن الكريم هذه العقوبة بقوله « آذوهما » ، والإيذاء يتناول القليل والكثير منه ، وقد فصلت سورة النور هذه العقوبة وقررتها وبينت تحديدها بوضوح ودون خفاء ، والله عز وجل يتوب على من تاب من عباده .

١٣ - بيان التوبة ، ومتى تكون مقبولة ، ومتى لا تكون مقبولة .

١٤ - إبطال ما كان متبعاً قبل الإسلام من وراثة النساء ، والنهي عن منعهن من الزواج ، ووجوب معاشرتهن بالمعروف ، وتحمل هفواتهن ، والتساع في معاملتهن .

١٥ - تقرير عدم جواز استرداد شيء من المهر لأي سبب من الأسباب ، اللهم إلا إذا تنازلت الزوجة عنه برضاها وطيب نفس منها ، ودون طلب من الزوج أو إلحاح أو إكراه من جانبه .

١٦ - بيان المحرمات من النساء على الرجال ، لا يتزوج بهن ولا يقربهن . ومن هذا السرد يتضح مدى عناية القرآن الكريم بالأسرة وحفظها ورعايتها ، وسن القوانين الإسلامية اللازمة لحمايتها .

والآيات الواردة في اليتيم هي دستور المجالس الحسينية التي نشأت في العصر الحديث ، وقامت لتطبيق هذه المبادئ الجليلة في معاملة الأوصياء لليتامى وفي المحافظة على أموالهم وأدائها إليهم كاملة عند بلوغهم سن الرشد ، وهذه هي شريعة الإسلام التي نزلت من السماء منذ أربعة عشر قرناً من الزمان لتهدب الإنسانية ، وترقى بمستوى الحياة ، وتدافع عن حقوق الضعفاء ، في عصر كانت القوة وكان الطغيان فيه هما كل شيء .

هذا هو الإسلام ، وهذه هي مبادئه التهذيبية المتحضرة ، التي كانت هي

الشعاع الأولى التي أنارت للإنسانية الطريق ، وسارت بالحياة إلى الغاية ، وقادت الإنسان إلى عصر الإخاء الإنساني ، حتى أوصلته أخيرا إلى عصر البخار والكهرباء والذرة ، ولا تزال تقوده لتسير به في عصر الفضاء الكوني والصواريخ لتجعله يعود إلى الإيمان من جديد ، قوى الروح ، قوى الثقة والإيمان بالله العلي والعظيم .

ونحن لانملك أنفسنا إلا أن نخر ساحدين لله رب العالمين ، صاغرين أمام عظمة كتابه الحكيم ، وقرآنه الكريم ، وبيانه المعجز ، وفرقانه الناطق بأنه من عند الله الذي أحسن كل شيء صنعا ، والذي أنزل من السماء كتابه هاديا للناس ، وبشيرا للمؤمنين ونذيرا للجاحدين ، وداعيا إلى الله بإذنه ، وسراجا منيرا ، وما أعظم ما قال الله عز وجل : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، .

صدق الله العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ومنه نستمد السداد والعون إنه نصير المؤمنين ، وولي المخلصين ؟

## خاتمة هذا الجزء

( ١ )

بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . في ختام هذا الجزء من تفسيرنا للقرآن الكريم نتحدث عن طائفة من الموضوعات التي تتصل بالكتاب الحكيم ، وبالدراسات القرآنية .

وأولى هذه المسائل هي بيان الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم . قال الألويسي في تفسيره : روى واحد وعشرون صحابيا حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، حتى نص أبو عبيدة على تواتره ، وعن عثمان رضی الله عنه قال وهو على المنبر : أذكر الله رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف ، لما قام ، فقاموا حتى لم يحصوا ، فشهدوا بذلك . فقال عثمان : وأنا أشهد معهم . واختلف في معناه على أقوال :

١ - أنه من المشكل الذي لا يدري لا اشتراك الحرف .

٢ - أن المراد التكثير لا حقيقة العدد ، قد جروا على تكثير الأحاد بالسبعة والعشرات بالسبعين والمئات بسبعائة ، وإليه جنح عياض ، ويرد عليه حديث رواه النسائي أن جبريل وميكائيل أتيا فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ سبعة أحرف ، وفي رواية أبي بكر في آخر هذا الحديث : « فنظرت إلى ميكائيل فسكت ، فعلمت أنه قد انتهت العدة ، وهذا أقوى دليل على إرادة الانحصار .

٣ - أن المراد بها سبع قراءات ، ويرد على هذا أن ذلك لا يوجد في كلمة واحدة إلا نادرا ، والقول بأن كلمة تقرأ بوجه أو وجهين إلى سبع بشكل عليه ما قرىء على أكثر ، اللهم إلا أن يقال : ورد ذلك مورد الغالب . ويقول



السيوطي : قد ظن كثير من القوم أن المراد بها القراءات السبعة، وهو جهل .  
٤ - أن المراد بها سبعة أوجه من المعاني المتفقة على ألفاظ مختلفة ،  
نحو أقبل وتعالى وهلم وعجل وأسرع ، وإليه ذهب ابن عينة وجمع كثير،  
وأيد برواية ، حتى بلغ سبعة أحرف كلها شاف كاف ، ما لم تختم آية عذاب  
برحمة أو رحمة بعذاب ، ويرد على هذا أن ذلك كان رخصة لحسر تلاوته  
بلفظ واحد على الأيمن ، ثم نسخ ؛ وإلجازات روايته بالمعنى ، ولذهب التعبد  
بلفظه ، ولفات كثير من الأسرار والأحكام .

٥ - أن المراد بها كيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار وتفخيم  
وترقيق وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتلين وتحقيق ، ويرد عليه أن  
ذلك ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى . واللفظ الواحد بهذه  
الصفات باق على وحدته فليس فيه حينئذ جليل فائدة .

٦ - أن المراد سبعة أصناف ، وعليه كثيرون ، ثم اختلفوا في تعيينها ،  
فقيل : محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ ، وخصوص وعموم ، وقصص . وقيل :  
إظهار الربوبية وإثبات الوجدانية وتعظيم الألوهية ، والتعبد لله ومجانبة  
الإشراك ، والترغيب في الثواب . والترهيب من العقاب ، وقيل : أمر ونهى  
ووعد ووعيد وإباحة وإرشاد واعتبار . وقيل : غير ذلك ، والكل محتمل ،  
بل وأضعاف أمثاله ، إلا أنه لا سند له ولا وجه للتخصيص به .

٧ - أن المراد سبع لغات ، وإليه ذهب ثعلب وأبو عبيد والأزهري ،  
وصححه البيهقي . واعترض بأن لغات العرب أكثر . وأجيب بأن المراد ،  
أفصحها وهي لغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر ،  
واستنكر هذا القول ابن قتيبة قائلا : لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش بدليل ، وما  
أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، وعليه يلتزم كون السبع لغات هي لغات  
فروع قريش ، وليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل إنها مفرقة  
فيه ولعل بعضها أسعد من بعض وأكثر نصيبا ، وقيل : السبع في مضر خاصة .

لقول عمر رضى الله عنه : نزل القرآن بلغة مضر : وقال بعضهم : إنهم هذيل  
وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسيد بن خزيمة وقريش ، وقيل : أنزل أولا  
بلسان قريش ، ومن جاورهم من الفصحاء ، ثم أبيع للعرب أن تقرأه بلغاتها  
دفعاً للشقة ، ولما كان فيهم من الحمية ، ولم يقع ذلك وفق آراء الناس ، بل  
المرعى فيه هو السماع من النبي صلى الله عليه وسلم . قال السيوطي : هذا كله هو  
مردود بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهشام بن حكيم كلاهما قرشي من  
لغة واحدة وقبيلة واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما ، ومحال أن ينكر عليه عمر  
لغته ، فدل على أن المراد بالأحرف السبعة غير اللغات .

( ٢ )

أما المسألة الثانية فهي تحقيق الكلام في جمع القرآن الكريم ؛ وترتيبه ؛  
قال الألوسي : اعلم أن القرآن جمع أولا بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، روى  
عن زيد بن ثابت قال : كنا عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نؤلف القرآن  
في الرقاع . وثانيا بحضرة أبي بكر رضى الله تعالى عنه . فقد أخرج البخارى في  
صحيحه عن زيد بن ثابت أيضا قال : « أرسل إلى أبو بكر في مقتل أهل اليمامة  
فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل  
قد استحر - أى اشتد وكثر - بقرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل  
بالقرآن في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن ،  
فقلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل يراجعنى ، حتى شرح الله صدرى لذلك ،  
ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد : قال لى أبو بكر : إنك شاب عاقل  
لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
فتتبع القرآن فاجمعه ، فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على  
عما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف<sup>(١)</sup> وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى لم أجدتها مع غيره ، لقد جاءكم رسول ، حتى خاتمة برائة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى ، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر ، ويروى أن أبا بكر قال لعمر وزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه ، والغرض من الشاهدين أن يشهدا على أن ذلك كتب بين يدي الرسول صلى الله تعالى عليه ، وإنما اکتفوا في آية التوبة بشهادة خزيمة لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل شهادته بشهادة رجلين ، ويروى عن عبد خير قال : سمعت عليا يقول : أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله ، وعن أبي بريدة قال : أول من جمع القرآن في مصحف : سالم مولى أبي حذيفة ، أقسم لا يرتدى برداه حتى يجمعه ، ولعله كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر رضي الله عنه ، كما قال السيوطي ، ولكن الصحيح أن سالما هذا قتل في وقعة اليمامة كما يدل عليه كلام ابن حجر في الإصابة ، ونص عليه السيوطي نفسه في كتابه «الإتقان» ..

وفي سنة خمس وعشرين حمل عثمان على القراءة بوجه واحد ، باختيار وقع بينه وبين من شهد من المهاجرين والأنصار ، لما خشى الفتنة من اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات ، فقد روى البخارى عن أنس أن حذيفة ابن اليمان قدم عثمان ، وكان يغازى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا في اليهود والنصارى ؛ فأرسل إلى حفصة أن

---

(١) العسب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشفها خوصها والنوى لم ينبت عليه الخوس

من السعف .. واللخاف ، بوزن كتاب : حجارة بيض رفاق واحدها لحفة بالفتح .

أرسلنا إلينا بالصحف ننسخها ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ؛ حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القراءات في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، قال زيد بن ثابت : ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ بها ، فالتسناها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصاري : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ألحقناها في سورتها في المصحف ، وقد ارتضى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد أسقط في زمن الصديق ما نسخت تلاوته من القرآن الكريم ، ولم يال جهدا رضى الله عنه في تحقيق ذلك . كما روى عن حميدة بنت يونس أنه كان في مصحف عائشة رضى الله عنها : إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأول ، وما روى من أن رسول الله قرأ ولم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ، حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله ، يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، إن الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل ذلك فلن يكفره . . . ويروى أن الثناء على الله كان مكتوبا في القرآن ثم نسخت تلاوته ، وهو : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق . . .

هذا وسور القرآن مائة وأربع عشرة، وقيل: ثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة، وهي في مصحف بن مسعود مائة واثنى عشرة سورة لأنه لم يكتب المعوذتين، وكان يقول: إنما أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتعوذ بهما، ولهذا عوذ بهما الحسن والحسين، ولم يتابعه أحد من الصحابة على ذلك، وقد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قرأهما في الصلاة.

( ٣ )

وأما المسألة الثالثة فهي حول إعجاز القرآن الكريم، قال الألوسي: في تفسيره: اختلف الناس في بيان إعجاز القرآن الكريم:

١ - فذهب بعض المعتزلة إلى أن وجه إعجازه اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من العرب في مطالعته وفواصله ومفاصله.

٢ - وذهب الجاحظ إلى أنه اشتماله على البلاغة التي تتقاصر عنها سائر ضروب البلاغات.

٣ - وقيل: إن وجه الإعجاز في القرآن هو في كونه مع طوله وامتداده غير متناقض ولا مختلف.

٤ - وقيل: وجه الإعجاز موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى.

٥ - وقيل: إعجازه قدمه.

٦ - وقال أبو إسحاق الإسفرايني والنظام: إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته، وقال المرتضى: بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة. ويرد على هذا أن التحدى وقع بالقرآن على كل العرب، فلو كان الإعجاز بالصرفة لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه، فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له، على أنه لو كان الإعجاز يفقدهم العلوم لتحذثوا به، ولشاع ذلك وعرف بين الناس، وهو ما لم يحدث.

٧ - وقال الأمدى وغيره : الإعجاز بجملة وبالنظر إلى نظمه  
وبلاغته وإخباره عن الغيب ، وارتضاه الكثير .

وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن ، وأتوا بوجوه شتى ،  
الكثير منها خواصه وفضائله ، مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأنه  
لا يمله تاليه ، بل يزداد حبا له بالترديد ، مع أن الكلام يمل إذا أعيد ، وكونه  
آية باقية ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه ، إلى غير ذلك من الوجوه  
التي ذكرها العلماء في قضية الإعجاز وأسبابها ، والله ولي التوفيق .

## كلمة أخيرة

---

بسم الله عليه توكلت ، وإليه أنبت ، وإليه المصير .. وبعد :  
فهذه هي خاتمة الجزء الرابع من تفسير كتاب الله ، وسوف تتلوه أجزاء  
عدة تصل بهذا التفسير إلى الثلاثين جزءا .. مما سوف يجعله موسوعة جديدة  
عن كتاب الله وعن مبادئ الإسلام وأصوله وأهدافه ومناهجه في قيادة  
الحياة والإنسانية .

وهذا التفسير الجديد العصري ، الذي يتمشى مع منطق العقل العلي ،  
ومع فهم القرن العشرين للدعوات الدينية ؛ إن هو إلا محاولة من محاولاتنا  
في خدمة كتاب الله ، وتيسير فهمه على جيلنا وعلى الأجيال المسلمة المقبلة .

وإنا لنضرع إلى الله ، أن يوفقنا إلى خير القول ، وخير العمل ، وأن  
يهدينا إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وما توفيقى إلا بالله .

---

## فهرست الجزء الرابع

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٤	النهي عن أكل الربا	٩	سورة آل عمران ودلالاتها
٥٦	المبادرة بطاعة الله وصفات المتقين من عباده	١٠	افتراءات لليهود والرد عليها
٦٠	عزاء وتسلية للمسلمين عن هزيمة أحد	١٢	تعظيم شأن البيت الحرام
٦٥	عزاء في المحنة	١٤	فريضة الحج
٧١	نتائج معركة أحد	١٥	موقف أهل الكتاب من الإسلام
٧٤	تصوير معركة أحد	١٦	تحذير وتوجيه
٨١	أخلاق الرسول	٧١	شاس بن قيس اليهودي
٨٥	لا خيانة ولا غلول	١٨	وجوب الاعتصام بالدين
٨٧	الرسول وأصحابه	١٩	الدين فطرة في الإنسان
٨٩	هزيمة أحد والاستشهاد في سبيل الله	٢١	هذا هو الإسلام
٩٥	التنويه بفضل المدافعين عن الإسلام في أحد	٢٧	التراحم والتعاطف في الإسلام
١٠٥	تثبيت الرسول بعد أحد	٢٨	الوحدة الإسلامية
١٠٧	البخلاء وجزاؤهم	٢٩	تبليغ الدعوة الإسلامية
١١٥	القربان في شريعة اليهود	٣١	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١١٨	توطين المسلمين على الصبر	٣٣	تكريم الله لامة الإسلام
١٢٧	عظمة خلق الله وعظمة خلائق المتقين	٣٦	شرح مبادئ الإسلام
١٣٨	الكافرون والمتقون وأهل الكتاب	٣٩	مغزى الربع الأول ودلالته
١٤٣	الأمر بالصبر والتقوى	٤١	أهل الكتاب وطبقاتهم
		٤٢	النهي عن اتخاذ بطانات من الكافرين
		٤٦	انتصار بدر ومغزاه



المصنعة	الموضوع	المصنعة	الموضوع
١٤٤	مغزى سورة آل عمران	١٨٦	فريضة الميراث في الإسلام
١٤٧	بين سورة الحمد والبقرة		وأحكامها
	وآل عمران	١٩٧	الأحكام التي جعلها الله حدوداً
١٥٢	سورة النساء		لأعمال المكلفين
١٥٣	تمهيد	١٩٩	الخيانة الزوجية وعقوبتها
١٥٣	سورة النساء ودلالاتها		والتوبة إلى الله
١٥٦	تقوى الله وتقوى الأرحام	٢٠٣	حفظ حقوق المرأة ورعاية
١٥٩	دفع أموال اليتامى إليهم		حريتها
	بعد البلوغ	٢٠٨	الحدود التي يجب المحافظة عليها
١٦٠	الزواج وتعدد الزوجات والمهر		عند ما يفكر الإنسان في
١٧٩	التحرى عند دفع أموال		الزواج
	اليتامى إليهم	٢١٤	نظرة عامة في الجزء الرابع
١٨٢	التصدق على الفقراء من		من القرآن الكريم
	تركة الميت	٢٢٢	خاتمة هذا الجزء
١٨٥	الوعيد الشديد للذين يأكلون	٢٢٩	كلمة أخيرة
	مال اليتيم ظلماً وعدواناً		

## المؤلف

- قصة الأدب في مصر - ٥ أجزاء
- » » الأندلس - ٥ »
- » » المعاصر - ٤ »
- » الأزهري في ألف عام - ٣ »
- » صور من الأدب الحديث - ٤ »
- رائد الشعر الحديث - جزءان
- ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة
- الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥١٠ »
- دراسات في الأدب والنقد
- مع الشعراء المعاصرين
- الذكر الحكيم
- الشعر والتجديد
- مواكب الحرية في مصر الإسلامية
- في ظلال الإسلام - بالاشتراك



دار العهد الجديد للطباعة  
كامل مصباح - ٥ : ٥٨٢